

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

الطريق الطويل

Dr. Naguib Al Keilany

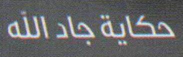


The Long Road

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا





حكاية جاد الله

حارة اليهود







الطريق الطويل

القصة الفائزة بالجائزة الأولى

بمسابقة وزارة التربية ١٩٥٧م

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٨٣٤٧

الترقيم الدولى:

977-255-345-7



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

الفصل الأول

كنت أسيرُ فى طرقات قريتنا وأنا فى فكر عميق، وكانت مشكلتى التى تربكنى تبدو فى نظرى أكثر أهمية، وأقسى تعقيدًا من الحرب ومن «هتلر»، ولذلك لم أكن أعبأ بالأحجار التى تصطدم بقدمى الحافية، ولا أكاد أحس بها وهى تغوص فى روث البهائم، أو البقع الموحلة المتناثرة هنا وهناك فى طرقات القرية . . .

ومددت يدى إلى جيب جلبابى لأستخرج الخطاب الذى أرسلته المدرسة الابتدائية إلى والدى، وهو سبب الإشكال الذى تورط فيه عقلى الصغير، فالمدرسة تخبر والدى بأنها لن تقبلنى فى السنة الرابعة إلا إذا عولجت علاجًا تامًا من مرض البلهارسيا والأنكلستوما، وفى الوقت نفسه تحتم على ألا آتى إليها فى العام الجديد إلا وقد ارتديت لباسًا خاصًا أسوة بباقى الطلبة، وطبقًا للنظام واللائحة . .

كنت أعرف أن أبى غارق فى الديوان حتى أذنيه، وأن محصول

القطن زهيد الثمن في ذاك العام، ولم يبقَ في دارنا إلا قليل من الأذرة، لا يكاد يفي بحاجة أسرتنا الكثيرة العدد. وأمي هي الأخرى مسكينة . . لا تفتأ تشكو من آلام حادة في صدرها، وهي حامل في شهرها السادس وفي مسيس الحاجة إلى عرضها على طبيب، ومع هذا فقد كان أبي وأمي يعتبران الذهاب إلى الطبيب في مثل هذه الحالة من الكماليات، أو ضربًا من البذخ لا تحتمله ماليتنا الواهية إن صح أن تُسمى مالية . .

كل هذا كان يؤكد لي فكرة علاجي من البلهارسيا مشكلة عويصة، ولِمَ لا تكون كذلك وأنا أحتاج لقرش ذهابًا، ومثله إيابًا، حتى أستطيع الوصول إلى مستشفى الأنكلوستوما والبلهارسيا في «ميت غمر»؟؟ هذا بالإضافة إلى قطع المسافة التي بين قريتنا وبين أقرب محطة نركب منها القطار، وهذه المسافة لا تقل عن خمسة كيلو مترات . .

وكنت في قرارة نفسي -رغم هذه العوائق- أتشوق إلى زيارة «ميت غمر» وخاصة مع رفاقي من الأطفال الذين تعودوا أن يذهبوا إليها من عام لآخر؛ لإعطائهم حقن «الطرطير المقيء» حتى يوفروا على أنفسهم آلام التبول والدماء التي تنزف معه . . لقد كانوا يصورون لي جمال مباني «ميت غمر» والكبري الواسع الذي يصل بين «زفتى» و«ميت غمر» ويقولون عنه إن اسمه «الكوبري الفرنساوي» ويتحدثون في خوف ورهبة عن الإنجليز الذين

يعسكرون هناك، ولا يكاد يمضى وقت دون أن يمروا بسياراتهم الحربية، ووجوههم الحمراء عبر هذا الكوبرى . . ترى هل سيكون أبى أسلس قياداً هذه المرة، فيضحى بهذين القرشين فى كل يوم فيه حقنة كى لا يحرمنى من هذه المتعة التى أتشوق إليها؟

ودلفت إلى حارتنا الضيقة وأنا أشق طريقى ذاهلاً بين البهائم العائدة من الحقول ، والحمير المحملة بالبرسيم، والمحاريث والطنابير، واقتربت من منزلنا، فلمحت أبى جالساً على المصطبة، وبجانبه «الشيخ حافظ شيحا» أحد جيراننا، ولم أكن فى حاجة لأرهف السمع حتى أعرف فيم يتحدثان؛ لأن الشيخ حافظ شيحا كان كعادته يرغى ويزيد ويتكلم بصوت مرتفع :

- وشرفى يا عبد الدايم لينتصر «هتلر» على الإنجليز أولاد الكلاب .

- يا شيخ حافظ دعنا فى حالنا . . لعنة الله عليهم أجمعين . .

- يا رجل خذ بالك . . هتلر رجل شريف ويحترم الإسلام وحرية المسلمين والعرب، ولن يكون مثل هؤلاء الإنجليز الأنجاس .

- صحيح؟؟

- طبعًا صحيح . . . من زمن طويل، و«تشرشل» راكب فوق أنفاسنا يسقينا الذل والويل .

- من يدرى؟؟ ربما كان هتلر أفظع وأضل سبيلاً .

- سبحان الله ! أتظن يا عبد الدايم أن هتلر جوعان وجربوع مثل هؤلاء الإنجليز؟؟

- لا أعلم، فأنا رجل من دارى لغيطى، ومن غيطى لدارى، أسأل عن النورج، وأبحث عن ميعاد الرى وما إلى ذلك.

- أبدًا. . . هتلر يريد لنا الحرية والخلاص من هؤلاء النصابين واللصوص. .

- هل قلبه طيب لهذا الحد؟؟ وما السبب فى دفاعه عنا؟؟

- يا حبيبى هذه سياسة. . . سياسة عميقة وكثيرة المسالك مثل سكة «أبو زيد» تمامًا.

- لا أفهم ما تقول.

- غدًا تفهم.

كان أبى والشيخ حافظ يواصلان حديثهما، وأنا أتسلل متمسحًا بجدران منزلنا الجرباء الكالحة، حتى أبلغ أمى أولاً، فأحكى لها قصة الخطاب الوارد من المدرسة؛ لأنها ولا شك ستكون أقدر منى على التفاهم والتصرف مع والدى، لكنه رآنى حينما كنت على وشك أن أتوارى دخل المنزل، فهتف بى قائلاً:

- تعالَ يا «سليمان». . . علمت أن المدرسة قد أرسلت خطابًا. . . خير إن شاء الله. .

فسارعت بإخراج الخطاب وقدمته إلى والدى، لكن يد الشيخ حافظ -جارنا- كانت أسبق، فتناوله، وأتيت له باللمبة «الصاروخ» كى يقرأه على ضوئها... وصدق ظنى، فقد قال أبى ساخرًا:

- بلهارسيا..؟؟ مدرسة مجنونة صحيح.. هل هناك من يسلم منها؟؟

إنها ترافقنا كطعامنا وشرابنا...

فرد الشيخ حافظ قائلاً:

- لكن سليمان تلميذ مجتهد، ومن شباب المستقبل، ولا بد من حفظ صحته من كل الأخطار.

- يا شيخ حافظ.. الله يصلحها لك... هل أعالجه من البلهارسيا لتعود إليه بعد شهور، أو أشترى له حذاء؟؟ لقد صح ما توقعته... إن القرشين اللذين أحتاج إليهما كى أدفعهما للمواصلات يوميًا، أمر صعب بالنسبة لأسرتنا، وأيام الحرب كلها إفلاس وضيق وحرمان، ويبدو أنها ستضن علىّ بهذين القرشين... وصحوت من أحلامى البائسة على صوت والدى وهو يقول:

- ادخل لتتعشى... ستفرج إن شاء الله.

قالها أبى وهو متضايق متألم، ولم يكن ذلك بغريب علىّ، فلقد عهدته دائمًا كلما تكاثرت عليه الديون، ووقع فى أزمات

مالية، حائرًا متألمًا . . . فمشيت إلى الداخل وأنا فى كرب شديد، فسوف أحرم من مشاهدة الكوبرى الفرنساوى، وميت غمر ومبانيها وبحرها الواسع، والإنجليز بوجوههم الحمراء المخيفة . . . ثم حانت منى التفاتة إلى جاموستنا العجفاء التى تتلوى من نقص البرسيم، وإلى الباب المكسور لإحدى الحجرات لا نسطيع إصلاحه، وإلى أمى وهى تعد لنا طعام العشاء المكون من «الخبيزة» والخبز الجاف، وقد بدت على وجهها تقلصات الألم، وتخرج منها من آن لآخر تأوهات باكية : «آه يا قلبى» !! ومع ذلك فيدها لا تكف عن العمل، إذ تملأ الأطباق «بالخبيزة» الساخنة، وترص الخيار المملح، وتصفف أرغفة الخبز التى تاهت سمرتها فى ضوء المشعل المتاهفت الضئيل . . . وطالت المباحثات بين أبى وأمى، فكانت أم تلح وتصر على تهيئة الظروف المناسبة لعلاجى؛ حيث إن المدرسة أمرت فلا راد لأمرها ولا معقب لحكمها، وليس من المعقول أن أتخلف عن دراستى لضيق ذات اليد عن مثل هذا المبلغ، ولكن أنّى لأبى أن يهتم بالمعقول وغير المعقول ما دام لا يملك مليمًا واحدًا فى جيبه؟ وسرعان ما وجدت أمى الحل، أنها ستبيع نصف كيلة من الأذرة، وما أكثر الباحثين عن الحبوب فى تلك الأيام السوداء، وسيكون ثمنها كفيلاً بقضاء ما أحتاج إليه .

وهرولت إلى سعيد ابن عمى الشيخ حافظ شيحا وزميلى فى المدرسة :

- سعيد. . . لقد وافق أبى أخيراً . . . وسآتى معك غداً إلى ميت غمر. . .

وكانت الدنيا لا تكاد تسع سعيد من الفرحة، فقد كنا منذ الطفولة حتى ذاك اليوم - ونحن فى الثالثة عشرة من عمرنا تقريباً- أصدقاء أوفياء، كالأخوين، كثيراً ما نأكل معًا، ونلعب سويًا، ونذاكر فى مكان واحد، قلت:

- اسمع يا سعيد. . أمن الممكن أن أرى الإنجليز؟؟

- طبعًا. . . كلنا نراهم ونحن ذاهبون أو راجعون من المستشفى.

- ألا تستطيع الكلام معهم؟؟

- يا خبر أسود. . !! ماذا جرى لك يا سليمان؟؟ إن عرباتهم الصفراء تمر علينا وكأنها الريح، ويا ويل من يغفل عن نفسه لحظة أو يتوانى فى مشيته. . . !!

- ماذا يحدث؟؟. .

- يلفظ أنفاسه تحت العجلات.

تركت سعيداً يصف ويهول، بينما أخذ خيالى الخصيب يؤلف لى نماذج شيطانية من هؤلاء الإنجليز الذين ينطلقون كالعاصفة وينقضون كالموت ولا يعبأون بأرواح الناس. . . ثم قلت فجأة:

- ألا يستطيع أبى وأبوك أن يقصف رقبة أحدهم؟

فضحك سعيد وقال :

- اسكت يا عبيط . . . إن عندهم مسدسات ومدافع وقنابل ودبابات . .

- مسدسات ومدافع و . . . ؟؟

- أجل وسوف تراها بعينيك .

وفى اليوم التالى كان علينا أن نصحو مع الفجر فأمامنا خمسة كيلو مترات حتى نصل إلى أقرب محطة نقطعها مشيًا، وسارت قافلتنا -وهى تربو على العشرة عددًا- ما بين بنين وبنات، وصغار وكبار، وكنا حفاة الأقدام، فأحذيتنا لا نلبسها إلا حين الذهاب إلى المدرسة، ولم نكن نكترث كثيرًا بالتحذيرات التى نقرأها فى كتب الصحة، التى توصينا بعدم السير حفاة؛ لأن ذلك مدعاة للعدوى والأمراض، ولكن معنى ذلك أن يحل موعد الدراسة ونحن لا نمتلك أحذية . .

وانطلقت أشباحنا الذابلة تدب فى الظلام، ونحن نتعثر ونكبو، وما زالت أجفاننا الصغيرة تحاول الخلاص من سلطان النوم، وقد تعلق فى يمين كل منا منديل يحوى رغيفًا وقطعة من الجبن؛ لأننا لن نعود من سفرنا إلا آخر النهار . . . أما القرشان فقد ربطتهما أمى ربطًا محكمًا فى الكم بحيث لا يلمحهما أحد، وأوصتنى كثيرًا أن أحترس وأحذر من اللصوص لأنهم ذوو دهاء

وعبقرية فى السرقة، ويستطيعون أن «يسرقوا الكحل من العين» على حد تعبيرها . . .

لم نكن نشكو أو نتألم من طول المسير المضنى، ولم نكن نتبرم من قسوة الحياة وبخلها علينا، فقد تعودنا هذا النمط من الكفاح والصبر، بل كنا نحمد الله على نعمه «الكثيرة» لأننا نحظى بالذهاب إلى المدرسة، بينما أضرابنا لا هَمَّ لهم إلا الجرى وراء الحمار طول اليوم، والكدح المتواصل فى الحقل . . .

ولكن كان يحز فى نفسى أن جدتى -سامحها الله- قد تركت فى كم جلبابى رقعة واضحة كبيرة، ولشد ما كانت تؤلمنى هذه الرقعة، إذ تبدو كعلامة للذلة والفقر، وإشارة على الخزى والعار، ولطالما حاولت جاهداً أن أخفيها أو أتخلص منها، وخاصة عندما جاءنى حسن بن موسى أبو عفر -أحد أثرياء الحرب فى قريتنا- وكان يحقد علىّ لنجاحى فى دراستى، وقال لى فى شماتة:

- جلبابك مرقع . . ألست خزيان؟؟

ولكن لا مفر، فقد كان هو الجلباب الوحيد الذى لا أملك غيره، بل كنت أجلس فى بيتنا كالحبيس حتى تغسله أمى وتجففه، ثم تلبسه لى وأنا أزمجر وأتذمر، بينما هى تهمس فى ثقة وإيمان:

- هذا رزق من عند الله . . . ما أكثر مَنْ لا يجدون مثله . . البطر يزيل النعمة يا ولدى .

ولقد كان تألمى من هذه الرقعة أشد وأقسى وأنا ذاهب إلى «ميت غمر»، ولكن ما الحيلة؟؟ إن أمى تقول:

«الحرب»، وأبى يقول: «الحرب» والشيخ حافظ شيحا لا يفتأ يقول: «الحرب»، والإنجليز هم أساس البلاء.. لكن هتلر رجل شريف «ومناسب» حتى لكأن هتلر أحد أقربائه..!!

وكنا فى كل مرة نرخى ونجذب مع «كمسارى» القطار، فتارة نقول له: إننا طلبة ولا يجوز لنا أن ندفع نصف أجرة السفر، وتارة أخرى نخلع ما على رؤوسنا -كما جرى العرف بيننا نحن الأطفال- كيما نبدو أصغر سنًا فى نظره، لكنه كان يتحايل أو يهدد أو يتوسل حتى ينال نصف الأجرة، وكنا نحن نعلم أن القطار لم يصنع للركوب مجانًا مثل حمارنا، لكن الركوب مجانًا كان معناه أن نستمتع بإنفاق قرش أو قرشين فى «ميت غمر» حيث الحلوى والفواكه والخبز الطرى الذى يختلف كثيرًا عن خبزنا الجاف الأسود، وهذا ما كان يدفعنا للتمحك ومحاولة الإفلات من الدفع...

وحينما كنا على مقربة من ميت غمر واحتشدنا مع الناس عند فاتحة الكوبرى تساءلت: «لِمَ لا يتركوننا نمر الآن؟» فرد صديقى سعيد حافظ مبديًا علمه ببواطن الأمور:

- علينا أن ننتظر دقائق، فالمرور الآن ممنوع، والسفن الشراعية هى التى تمر فى مثل هذا الوقت من كل يوم...

فقلت: ولِمَ لا تمر السفن من تحت الكوبرى فى الوقت نفسه الذى نمشى نحن من فوقه؟؟

فقال سعيد: هذا غير ممكن . . .

وقطع حديثنا صوت نفير فى عربة صفراء تنطلق مسرعة دو أن تعبأ بأحد، وسرعان ما أفسح لها الناس طريقًا رحبًا ، وهرول حارس بوابة الكوبرى ليفتحها، ويعطى إشارة للذين يعملون على إخلاء السبيل أمام السفن الشراعية، فأوقفوا عملهم بسرعة أيضًا، بينما تهادت العربة الصفراء فى مشيتها، ونحن ننظر إليها فى خشوع ورهبة، وهمس سعيد فى أذنى:

- أمامك الآن اثنان من الجنود الإنجليز فى عربتهم الصفراء . . .

- إذن فهؤلاء هم الإنجليز؟؟

أجل.

- وأين القنابل والمدافع و . . . ؟

- المسدس فى جيب السترة، والمدفع فى يد الجندى الجالس فى الخلف ألا تراه؟؟

- بلى.

- إنهم يملكون عربات، ومخازن كثيرة مملوءة بهذه الأسلحة . . .

- ولماذا تخاف منهم يا سعيد؟

- إنهم ناس كفار يا سليمان، وغلاظ الأكباد، الموت عندهم أمر هين، و معهم سلاح كثير. . كثير جداً.

- ولِمَ لا نصنع سلاحًا مثلهم؟

- أبى يقول إنهم يمنعوننا من ذلك. .

- كيف؟ ولماذا؟؟

وهز سعيد كتفيه وهو يتمتم: لا أدرى. . .

وقبل أن تنطلق العربة الصفراء، سمعت من خلفى صوتًا عاليًا يقول:

- هات واحدًا «بياستر» (قرش) يا جونى.

ثم يتبعها بقهقهة عالية، وحينما التفت إلى مصدر الصوت وجدت غلامًا كث الشعر، ملوث المنظر، حلته مملوءة بالبقع الزيتية المتسخة، وحوله مجموعة من أصحابه، ثم أخذوا يصفقون ويرددون فى صوت رتيب منغم: يا عزيز، يا عزيز. . . كبة تأخد الإنجليز.

وبعد وقت فتحت البوابة، وجرينا وسط الحشد المتدفق، وكان زملائى وهم يجرون معى يستمعون للأصوات اللذيذة التى تنبعث من أثر ارتطام أقدامهم الحافية بالأرض الخشبية فوق الكوبرى أو

بحجر البازلت فيما بعد الكوبرى، وعربات الإنجليز تمر واحدة فى إثر الأخرى، حتى لكأن الإنجليز قد ملئوا كل ناحية، وسدوا كل منفذ . .

وكنت ذاهلاً عما حولى، وأرسم فى عقلى علامات استفهام كثيرة حائرة، ولم يكن عقلى الصغير بقادر على أن يجد لها الإجابات الشافية . . .

كنت أتساءل: ما السبب الذى جعل الإنجليز يختارون ديارنا بالذات منزلاً لهم؟ ولماذا نهابهم، ونرتعد منهم رغم أنهم غرباء، ونحن أصحاب الأرض؟ وهل فى مقدورنا أن نكون شجعانًا كهتلر؟؟ أجل . . . هتلر ذلك الذى يطاردهم ويذيقهم الدمار والفناء كما سمعنا من الشيخ حافظ الذى يواظب على قراءة الصحف والمجلات . . . إن هتلر جدير بالاحترام حقًا ما دام فى استطاعته أن يحارب هؤلاء الإنجليز بالرغم من أسلحتهم ونظراتهم المتغطرسة المخيفة . . ووجوههم الحمراء التى تبدو كوجوه الشياطين.

وكنت أسمع فى المدرسة وفى الشارع ومن الشيخ حافظ: أن الإنجليز والحرب هما سبب البلاء، وعلة الفقر والجوع، والضائقات المالية التى يرزح الناس تحت وقعها، وكنت أشعر بدورى أن هذا الكلام صحيح، أما كيف يكون ذلك؟ فلم أكن

أعرف له تفسيراً . . المهم أن هاتفًا فى أعماقى يصرخ مؤكداً هذه الحقيقة وكنت واثقًا أن اعتقادى صحيح، إذا لم يكن كذلك فما السبب فى أن مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما كانوا فى صراع دائم، وحرب لا تهدأ مع هؤلاء الإنجليز؟؟ لا بد وأنهم أساس الشقاء، ومصدر الجوع والحرمان وكل المصائب . . . ووصلنا شوارع ميت غمر:

- سعيد . . . سعيد . انظر . . . ما هذه المبانى؟ أتراها مخازن للغلال التى ينتزعونها منا -نحن الفلاحين- كل عام، ليطعموا منها الإنجليز؟

قهقه سعيد عاليًا، وشعر بشىء من الغبطة والتعالى الذى مصدره جهلى أو سذاجتى، وتوقعت هذه المرة أن ينعتنى بالعبط والبله، لكنه قال:

-هذه مخابئ . . أفهمت؟!

- مخابئ؟

- أجل ليهرع إليها الناس فى وقت الغارات حتى ينجوا من قنابل هتلر . . .

- عجبًا، ماذا جنينا فى حق هتلر حتى يمطرنا بالقنابل؟ . .

- فى الحقيقة أن هتلر -كما يقول أبى- يقصد ضرب الإنجليز،

لكنهم منبثون فى أرضنا وديارنا وفى كل ناحية، فماذا يعمل هتلر؟؟

- أيضرب المذنب والبرىء؟

- نحن مذنبون أيضًا.

- ماذا تقول؟

- طبعًا، لأننا سمحنا للإنجليز بالمقام فى أرضنا، وأطعمناهم من قمحنا، وأمددناهم بكل ما يحتاجون إليه.

- ولماذا نفعل ذلك؟

- قلت لك مرة أننى لا أعلم، هكذا يقول أبى، وهذا غاية ما أعرفه..

●●●

كانت مستشفى البلهارسيا والأنكلستوما موجودة فى منطقة زراعية فى الطرف الشمالى من ميت غمر -يحيط بها سور خشبى من جهاتها الأربع، والفلاحون يتكدسون داخلها بوجوههم الشاحبة التى تترجم عن فقر الدم الشديد، بينما وجوه الإنجليز تكاد تنفجر وينبثق منها الدم لشدة حمرتها واكتنازها، ويظهر الفلاحون بملابسهم الزرقاء الرثة، وبأقدامهم المشققة الحافية، و أجسادهم الضامرة الهزيلة، التى أكلتها البلهارسيا، كما تأكل النار الهشيم،

وبطونهم المتنفخة التى ثوى فيها الداء، وأرهقتها العلة. . إن الواحد منهم ليأخذ العلاج ثم يسارع إلى حقله، ويلقى برجليه فى ماء القناة، ويقبض على يد الطنبور بكفيه الجافة الخشنة، ويظل يديره الساعات الطوال، وتبدأ البلهارسيا -بالطبع- دروتها من جديد، وكأنه لم يعالج أو يشق ويتعب فى الذهاب إلى بعيد حيث يوجد المستشفى. .

ولا أزال أذكر ذلك «التومرجى» الضخم الجثة بسترته البيضاء، وطربوشه الأحمر الذى يرتكز على قمة عوده الفارع، وشواربه المفتولة فى عنجهية وكبرياء. . .

ولن أنسى منظره وهو يطل من نافذة الحجرة الخشبية التى تعطى فيها الحقن، ويصرخ بصوت عالٍ صوب المرضى:

- تعالوا هنا يا بهائم. . . تعالوا اسمعوا الدرس. . وكنا نجرى ونتكفئ ونتسابق فى الوصول إلى مكان الدرس، وإلا فالكرباج الذى فى يد «التومرجى» سيبعث فينا النشاط والهمة إن نحن تراخينا. . . وكان يدور فى ذهنى هذا السؤال: «هل يمتُّ «التومرجى» بصلة ما لهؤلاء الإنجليز؟ إن هناك عاملاً مشتركًا أعظم بينه وبينهم واضحًا كل الوضوح. . . وهل هذه المستشفى هى الدار التى تفيض برحمة وحنان، وتخفف البلوى عن الإنسان كما تعلمنا فى المدرسة. . ؟؟».

وكنت أفهم أن كل ما يتصل بالصحة والطب نظيف غاية النظافة، لكن ما أكثر ما تقززت نفسى كلما ذهبت إلى دورة المياه بالمستشفى حيث الأقذار المكشوفة هنا وهناك بصورة لم أرها فى حظيرة بهائمنا فى الريف. . .

وفى آخر النهار عدنا نجرجر أرجلنا المنهوكة من أثر المشى الطويل، ووعثاء السفر، وعادت أقدامنا لتضرب الأحجار والحصى من جديد فى طرقات القرية فتذكرنا نعومة الشوارع فى ميت غمر، وخاصة طريق المعاهدة الذى رصفوه خصيصًا للإنجليز، وقارنا ذلك بقريتنا المتواضعة، ولم نستطع أن تواصل مقارنتنا فقد كان الشيخ حافظ شيحا يهدد كالمعتاد ويهدد فى السياسة ويعلق على الأخبار التى يقرؤها فى الجريدة، ويثنى بكل فخر وإعجاب على خطط هتلر الحربية وانتصاراته فى شتى الميادين:

- أقسم بالله العظيم أن هتلر لا بد أن ينتصر على الإنجليز الملاعين، ويلبسهم الخيش والمرقع ويجعلهم عبرة لمن يعتبر. . .

- نذرٌ علىّ يا شيخ حافظ لأذبحن خروفًا لأهل الله وأوزع الشربات يوم أن ينتصر هتلر. . .

كنا نسمع الحديث فى بيت الحديث الشيخ حافظ ونحن نقترب من المنزل. بينما قابلتنا «بسيمة» الحلوة فى مرح ظاهر، وبراءة محببة:

- حمداً لله على السلامة.

فازورّ عنها أخوها سعيد، ولم يحاول الالتفات إليها فى جفوة معتادة، بينما ابتسمت أنا لها فى حب وعطف وقلت :

- الله يسلمك يا بسيمة .

- ألم تأتِ لنا بشىء حلو . . ؟

- المرة الثانية إن شاء الله . .

فبدأ على وجهها شىء من من الاكفهرار والتأثير وقالت :

- لا أريد منك شيئًا . .

- ماذا؟ هل أنت غاضبة؟ أنت تعلمين أن القرشين اللذين أخذناهما يكفيان فقط كأجر للقطار . .

لكن بسيمة ذات الاثنى عشر ربيعًا لم تكن لتحفل بمنطق أو تكترث لحجة نبديها لها، إنها تعلم أننا كنا فى ميت غمر حيث الحلوى والفاكهة وكل شىء، وإننا من الواجب علينا أن نحضر لها أى شىء، ولو بضعة أوراق ملونة، أو قطعًا من الأقمشة الخضراء والحمراء، أو أغطية الزجاجات التى تحلم بشرب مياهها الغازية، ولكنى ربّت على رأسها فى حنان، وقلت فى شهامة :

- وحق مقام سيدى عيسى العراقى يا بسيمة لأحضر لك ما تشائين بعد غد إن شاء الله . . .

فاستنار وجهها بابتسامة عذبة، وأشرقت ملامحها بالأمل الجذاب، الأمل الذى نحيا عليه جميعًا، وأمسكت بيدى، ودلفت معى إلى منزلنا، وفى قلبى مشاعر متلاطمة مختلطة، يخص «بسيمة» جزء كبير منها، بينما فتحت أمى ذارعيها حينما رأتنى:

- أهلاً سليـمـان... وصلت يا حـبـيـبى...؟ تعـال يا ولد استرح...

وكانت بسيمة أسرع منى فى الارتماء بين أحضان أمى التى ضمت كلينا فى حنين وشغف، وقبلتنا فى وجنتينا قبلة طويلة، بينما تسللت يدها المعروقة إلى قدمى تتحسسها، وتنفض عنها الغبار والأقذار قائلة:

- لا بد أنك تعبت كثيرًا يا بنى...

- أبدًا... كان سفرًا طيبًا... ورأينا الإنجليز.

- تحمّل يا ولدى.. الصبر طيب.. غدًا تصبح موظفًا كبيرًا وتستمتع بحياتك، طول العمر يبلغ الأمل يا ولدى...

وطافت بمخيلتى صورة طبيب المستشفى بمنظاره الأنيق، وساعته البراقة التى تتدلى من عنقه وكأنها طوق من المجد والفخار، وسلسلة المفاتيح الفضية التى يلفها على أصبعيه، وهو يحدثنا بلغة متأنقة رقيقة عن البلهارسيا وأعراضها، وعدواها،

وعن ضرورة اهتمامنا بالأغذية حتى نشفى سريعًا، والفلاحون يجلسون أمامه على الأرض، يستمعون إلى الدرس وكأن على رؤوسهم الطير، يهزون رؤوسهم دون أن يفهموا تمامًا ما يقول، مناديل الخبز الجاف معلقة فى أذرعهم... ثم صورة التمورجى ذى الشارب الطويل المبروم، وهو يلوح بكرباجه الأزعر، ويخب فى سترته البيضاء وحذائه الأسود اللامع... ترى أى الصور الثلاث سأكون عليها فى مستقبلى: الطبيب أم التمورجى أم هؤلاء الفلاحين بنظراتهم الطيبة الفطرية، ولحاهم غير الحليقة تمامًا، والبشرة التى لوحتها الشمس وأضنتها العسرة والكد الطويل؟..

●●●

الفصل الثانى

لم تكن أسرتنا تضم غير سبعة أفراد: جدتى وأبى وأمى وأخوين صغيرين -ليلى ومحمود- وعمى «فريد» وأنا. . .

أما جارنا الشيخ حافظ شيحا فقد كانت له أخت عانس فى حوالى الأربعين من عمرها بالإضافة إلى زوجته «خضرة»، و«سعيد»و «بسيمة». . .

وللشيخ حافظ قصة طريفة لعلها تكشف لنا عن جانب مهم من جوانب شخصيته؛ لقد كان الشيخ حافظ يعتبر العدو اللدود والخصم رقم واحد للإنجليز. . . صحيح أننا كلنا يجمعنا حقد مقدس ضد هؤلاء الذين أفسدوا أمورنا السياسية، والاقتصادية، وانحرفوا بالأخلاق والقيم إلى طريق شائك حالك. . . لكن الشيخ حافظ كان شعلة متقدة من غضب وثورة، وسيان أكان فى محل الخردوات الذى يمتلكه أو فى بيته أو فى سوق القرية حيث يعرض بضاعته، فى أى مكان كان يسب ويلعن ويسخط على الإنجليز،

بقدر ما يمتدح ويمجد فى هتلر، حتى ابنته «بسيمة»، وابنه «سعيد»، كانا يشعران بكثير من الحرج والضيق حينما نقول لأحدهما: «يا ابن الشيخ حافظ هتلر».

لقد كان يمشى دائمًا وفى جيبه جريدة، ومعروف عنه أنه إذا ما عثر على جريدة أتى عليها من أولها إلى آخرها، فإذا ضاقت به السبل ولم يجد جريدة جديدة، هرع إلى مخلفاته، يقلب فى محتوياتها القديمة حتى يعثر على أخبار قديمة تصور انتصار الدكتاتور الألمانى، فيعيد قراءتها مثنى وثلاث ورباع، ولقد ساعد على اندماجه فى السياسة بديهة حاضرة، وعاطفة متقدة، وإلمام كافٍ بالقراءة والكتابة، فقد قضى فى الجامع الأحمدى بطنطا ما يقرب من ثلاثة أعوام حفظ خلالها بعض الفقه والأحكام بالإضافة إلى القرآن الكريم.

كثيراً ما كانت تخرج زوجته خضرة هائجة مائجة وهى تقول:

-ماذا جرى لعقلك يا شيخ حافظ؟؟ أليس وراءك غير هتلر..؟؟ يا راجل حرام عليك... قم واعمل لك شغلة تأكل منها لقمة عيش.

لكن الشيخ حافظ كان رجلاً يعتز برجولته وكرامته، ويرى أن تدخل الزوجة فى أمر زوجها مروق وقلة أدب، ومنقصة لشرفه وشجاعته، فينهال عليها سبًا وشتمًا ويتوعدها ويزمجر قائلاً:

- اسكتى يا حمقاء يا جاهلة . . . ومن أدراك بهتلر وبالسياسة؟ لم يبقَ غير أن تلبسى جلبابى وعمامتى وتقومين مقامى . . قلة أدب . . !!

ويحاول الجالسون معه إسكاته ، ولكن هيهات إنه لن يقر أو يهدأ له بال إلا إذا أعطى زوجته درسًا قاسيًا فى واجبات الزوجة واحترام رجولته ومركزه. . .

كان سعيد وبسيمة يشعران بالخجل لهذه المظاهر ، لكن بمرورالزمن ، وتكرار هذه الأمور ، أصبح لها حكم العادة . فلم تعد تثير فى نفسيهما همآ شديدآ . . . أقول إن للشيخ حافظ قصة غريبة تكشف عن جانب مهم من جوانب شخصيته ؛ فلقد كان أبوه - رحمه الله- مصريًا صميمًا ، وضابطًا فى جيش الخديوى توفيق ، واشترك مع عرابى جنبًا لجنب فى الصراع الدامى الذى خاض الشعب غماره ضد الغزو الإنجليزى إبان الثورة العرابية . . . وطعن الخديوى الثورة من الخلف ، فوجد الإنجليز ثغرة واسعة ينفذون منها إلى ديارنا ، إذ زعموا أنهم جاءوا مؤقتًا لحماية الخديوى ، واستقرار الحكم ، والقضاء على المتمردين والثائرين . . . وسرعان ما أقيمت المحاكم ، وحوكم أنصار الثورة ، فأعدموا وشردوا ونفوا واضطهدوا ، واستطاع والد الشيخ حافظ شيحا أن ينجو بنفسه ، فهاجر من القاهرة متخفيًا ، وأوى إلى قريتنا غريبًا طريدًا ، فأفسحوا

له وحموه، وبمرور الزمن اتخذ له زوجة ودارًا فأنجب الشيخ حافظ، وتلك العانس التى ذكرناها، وترك زوجه الأولى وأولاده منها فى القاهرة للأقدار تتصرف فيهم كيف تشاء. . .

وهكذا اقتضت الظروف أن يعيش هذا الرجل -والد الشيخ حافظ- فترة طويلة من القلق والتخفى ومقاساة الأهوال، بينما هيأت الخيانة لغيره من الأذناب عيشًا رغيدًا وسوقًا رائجة، ومناصب عالية. . . أما عرابى والبارودى فقد قضوا ردحًا من الزمن رهن الغربة القاتلة، والوحدة الموئسة فى جزر المحيطات النائية. . .

فالإنجليز إذن هم الذين حكموا على والد الشيخ حافظ بالضياع والتشرد، وهم الذين تسببوا فى أن يرفع الأوغاد والخونة، وأن يطارد ويضطهد ذوو الرأى الحر، والنزعة الاستقلالية، ورواد التقدم.

فلم يكن غريبًا أن يكون حقد الشيخ حافظ على الإنجليز أضعاف حقدنا، بل إن حقده هذا دفعه لأن ينشد الانتقام والثأر منهم على يد أى إنسان مهما كان جنسه وليكن هتلر مثلاً. . . وقد يكون هتلر مستعمرًا مستغلاً مثل الإنجليز تمامًا لكن الشيخ حافظ كان يبعد عن ذهنه أمثال هذه الخواطر، فيصور له وهمه أن هتلر هذا قد أرسلته العناية الإلهية ليذيق الإنجليز سوء العذاب، فضلاً عن أن دعاية المحور، وزعمها بأن هتلر رجل يدعو إلى تحرير الشعوب من ربقة

الاستعمار، وأنه شخصيًا يحب الإسلام ويميل إليه، ويشعر بشعور الود والإخاء للعرب. . كل ذلك جعل الشيخ حافظ يتمادى فى حسن ظنه، ويغالى فى ثقته بهتلر، ويجعل من معارك الجيوش الألمانية أنشودة يتغنى بها فى كل مكان. . .

وقد استطاع الشيخ حافظ أن يجمع حوله عددًا من الرجال فى القرية يؤمنون بما يؤمن به، ويتفانون فى حبهم لهتلر، كان فيهم الشيخ سلامة الأعمى فقيه المكتب، والحاج عبد الستار راسب الكفاءة وزميل عمى فريد، وزكى القبانى، وعثمان الطرطورى كاتب الشكاوى والعرائض وغيرهم. . .

●●●

جلس الشيخ حافظ مع أصدقائه، ثم تنهد وهز رأسه فى حسرة وأسى بالغ، فرمقه الشيخ عثمان الطرطورى، وقال:

- ما بك يا شيخ حافظ. . ؟

- والله يا عثمان الهم فوقى وتحتى. . .

- ولم كل هذا؟؟

- تصور أن الدول العربية كلها تمقت الإنجليز من كل قلبها، ومع هذا فهم يحاربون جنبًا لجنب معهم. . . حياة كلها ذل ونفاق وخيانة لضمائرها. . .

- وماذا نعمل يا شيخ حافظ؟

- لو كان فى كل بلد عربى خمسة مثل رشيد عالى الكيلانى بطل العراق، وعزيز المصرى، لما استطاع الإنجليز أن يسوقونا كالأغنام إلى ميدان الحرب، ويستغلوا أرضنا ومطاراتنا، بل وينهبوا أقواتنا على مثل تلك الصورة البشعة المخزية . . .

- وماذا كان مصير رشيد عالى الكيلانى؟

- يا حبيبى ليست العبرة بالمعايير الظاهرية للنصر و الهزيمة. المهم أن فى العراق رجالاً أحرارًا آمنوا بالاستقلال وبالتحرر، وقذفوا بكلمة الحق دون خوف . . . وما دام الأمر كذلك فهذا بداية الخير . . . سيأتى يوم يقضى فيه على المفاسد والخيانات . . .

- والله يا شيخ حافظ إنى ليحز فى نفسى أن يقضى عزيز المصرى أيامه معتقلاً ورشيد عالى يحيا مشردًا من بلد إلى بلد، بينما الملوك والزعماء الذين يدعون أنهم مع الحلفاء ومع العالم الحر تنحنى لهم الجباه، وتدق لهم الطبول!!

- أمر مؤسف حقًا.

- هؤلاء مكانهم فى المقدمة؛ لأنهم خير من يؤتمون على مصائر الشعوب.

وهمّ الشيخ حافظ بالكلام، لكن زوجته «خضرة» ظهرت

بوجهها الغاضب وعينيها اللتين تنبثان عن ثورة وتحفز، لكن الشيخ لم يكد يخاطبها وتخاطبه حتى بان الحزن فى ملامحه. . . وطأطأ رأسه فى حزن وأسى. . . ولم تكن عادة الشيخ حافظ. . . ترى ما الذى أصابه بهذا الاستسلام الطارئ فأخذ يستمع لكلام خضرة الذى يهوى على رأسه كالمطارق. . . لقد كانت تقول بعيدًا عن أصدقائه :

- ألست خزيان يا رجل. . ؟؟ ليس فى بيتك رغيف واحد، بل ولا حبة من القمح أو الأذرة. . . أظن أننا سنطعم الأولاد جرائد وخردوات. . طبعًا. . أم هتلر سيحضر لهم العشاء هذه الليلة. . ؟؟

وهز الشيخ حافظ رأسه، وحك ذقنه بظهر يده مرتبكًا، ولم يجد مناصًا من أن يقول :

- إن الله سيفرجها يا خضرة. . .

- البلد كلها ليس فيها حبوب للبيع. . . ابحث لك عن طريقة. . . أو اذهب إلى أى بلد قريب لعلك تجد كِيلة أو كِيلتين من الحبوب.

- إن شاء الله. . .

- الفضيحة. . . !! الفضيحة يا حافظ. . . الناس عيونهم دائمًا تبحلق فى بيوت الآخرين. . .

وغلبها الدمع فانحدر على وجهها، بينما غمغمت تقول:

- استرني سترك الله، ولا تشمت بى الأعادى. . .

- عيب يا خضرة. . لا تبكى. . حالاً سأحضر لك ما تطلبين.

واستجمع الشيخ حافظ شجاعته، وصرفها، مؤكدًا لها أنه سيحصل لها على كل ما تريد، وعاد إلى مجلسه والعرق البارد يبلل وجهه، وأطياف من الدموع الحائرة تتراقص فى محجريه. . عاد ليغرق فى صمته، ويسرح ببصره ذاهلاً، تاركًا أصدقاءه يتجاذبون أطراف الأحاديث. .

كانت حالته تصير إلى هذا المآل لو كان أبوه بقى على وفائه للخديوى وتنكر لضميره ومثله العليا؟ ولم يكد هذا الخاطر يطوف بذهنه حتى بادر يطرده سريعًا، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وحوقل وكبر واستغفر، ودندن ببعض أبيات من الزجل عن العزة والشرف وما إلى ذلك من معانٍ طيبة نبيلة. .

●●●

وكان اليوم التالى كسابقه مملوءاً بالمتاعب والأحداث. . خرجنا كالمعتاد فى عتمة الفجر قاصدين ميت غمر. لم تكن أيام العلاج تزيدنا إلا ضعفًا فوق ضعف، ووهنًا على وهن. و لا شك أن الإنهاك الذى يلازمنا فى سفرنا مع قلة الغذاء، بالإضافة إلى

المضاعفات التى تخلفها حقن «الطرطير المقيئ» زادت من هزالنا وشحوب وجوهنا، ولكن سلوانا الوحيدة هى أننا سنحصل على شهادة بخلونا من الطفيليات وبذلك تفتح المدرسة لنا أبوابها فى العام الجديد . . .

وبينما كنا نخترق «طريق المعاهدة» سمعنا أصوات فرقعة عالية، لقد كان من خلفنا جندى إنجليزى يقود «موتوسيكله» فى سرعة جنونية، كأنما كان يستعرض سطوته وقوته، ووجدتنى على حين غرة أقف على جانب الطريق و أتجه إليه فى تحد وجرأة لست أدرى كيف هبطت على، وصرخت فى وجهه وأنا ألوح بيدى: «ملعون أبوك يا جونى . . » ولست أدرى هل سمعنى أم لا، وهل فهم مقصدى أم لم يفهمه، لأنى لم تتح لى الفرصة كى أفكر فى ذلك، إذ رأيت الجندى يندفع نحونا دون اكتراث ويوشك أن يصطدم بنا، لكن سرعان ما انحرفت بعيدًا عن طريقه كى أنجو بنفسى فانزلقت رجلى ووقعت فى مجرى مائى صغير يحاذى طريق المعاهدة، فقهقه الجندى فى سعادة عارمة، وفاضت أسارير وجهه بالبشر، وهو يرانا بين هارب ومذعور، وساقط فى المجرى، ومرتبك قد تعثر فى خطاه فلا يقوم إلا ليقع، والهلع قد سيطر علينا جميعًا . . . واندفع هو فى طريقه بعد أن نعم بهذا المنظر المسلى، ولو أنه يشبه لحد كبير منظر الفئران الخائفة التى تعبث بها القطة قبل التهامها . . .

وأخذت أجاهد حتى خرجت من المجرى، بعد أن تلوث ثوبى بالطين وتشبع بالماء، ووقفت حائرًا لا أدرى ماذا أفعل، والشتائم والنقمات تنبعث من فمى متلاحقة على الرغم منى، كأنى بذلك أطفئ لهيب غيظى، وأخفف بعض الشىء من حقدى المضطرم بين أحنائى . . .

يا لهؤلاء الإنجليز من أقذار . . ! ! لم يكفهم أن ينتزعوا اللقمة من أفواه الجائعين ويستعبدونا، بل يتسلوا بمنظر البؤس و الشقاء، والذى يلون حياتنا التعسة. أجل . . . كان يومًا قاسيًا مؤلمًا . . . فعندما انحرافنا ناحية المستشفى، وتركنا طريق المعاهدة، رأينا مشهدًا يدمى القلوب، لقد جلس عمى «سالم» بائع الجميز تحت الشجرة العالية يبكى ويندب حظه قائلاً :

- يا روحى يا ولدى «يا سيد» . . يا ميت ناقص عمر . . يا سندى يا بنى تركتنى لمن يا «سيد»؟ . . أنا عجوز ومسكين ووحيد يا حبيبى . . . الله يجازيهم حرقوا قلبى عليك . . . آه يا مسكين يا ابن المسكين . . . كنت أتمنى أن أموت بدلاً منك يا سيد . . لكن الأمر أمر الله . . . وهكذا كان عمى سالم يتأوه ويتألم، وحواليه بعض معارفه الذين يحاولون تهدئته، وترضيته بقضاء الله وقدره، كان أحدهم يقول :

- ربنا كريم يا سالم، لا بد أنه سيعوضك خيرًا كثيرًا .

- يعوضنى؟؟ أنا عاجز النظر. مريض الجسم يا ناس. لا أرى ولا أقدر على العمل. . . يا طول عذابى بعدك يا ولدى؟؟ كنت يا سيد عينى وذراعى وأملى فى حياتى.

- الله يجازى من تسبب فى هذا.

ثم ينفجر عم سالم باكيًا، وتخرج كلماته موجعة محزنة تكاد تمزق نياط القلوب. . .

إذن فقد مات سيد ذلك الشاب الطيب، السمح المعاملة الذى كان يبيع لنا الجميز فى الصباح أمام المستشفى، وكنا جميعًا -نحن الزبائن- من ذوى الملاليم، ولكن «سيد» كان سعيدًا بتعاملنا معه، رحيب الصدر لمساوماتنا، وها نحن اليوم نراه قد ودع الحياة. . .

لقد كان الواقفون يروون كيف أن أحد السائقين الإنجليز كان يقود عربته وهو مخمور، وتمضى به العربة مترنحة ذات اليمين وذات الشمال وكأنها هى الأخرى قد فقدت توازنها من أثر الخمر، وكان ترنح العربة يزداد كلما تصادف وجود فتاة جميلة أو غير جميلة -فى الطريق، فلا يسع الإنجليزى «الخفيف الظل» إلا أن يظهر إعجابه وحسن ذوقه بهذا الأسلوب السمج من الغزل، وكانت النتيجة -أن اختلت عجلة القيادة واندفعت العربة ناحية اليسار، فسحقت «سيد» بن عمى سالم تحت عجلاتها، بينما تدحرجت سلة الجميز بعيدًا دون أن تصاب بسوء. . . وهكذا ودع

«سيد» الحياة، ودعها فى شرخ شبابه المكافح، وترك أباه الشيخ يهذى ويخلط فى كلامه، ويرسل عبارات التوجع والتفجع التى تذيب القلوب. . . ولست أدرى هل ابتسم سيد للموت الذى أنقذه من شقاء الحياة وهوانها، أم ترك الحياة وهو ناقم أسيف من أجل أبيه الحائر المسكين. . ؟؟ أسئلة لم أستطع الاهتداء إلى الجواب الشافى عليها حينذاك. . . !! وسكبنا بعض العبرات. . . ثم واصلنا سيرنا إلى المستشفى حيث التمورجى الضخم الجثة، وحيث الطبيب بسمته المتأنق، وحركاته المتأففة، وحيث أكداس الفلاحين فى أسمالهم ينتظرون الدرس، ومن بعده عملية الحقن كالمعتاد. . . وعند عودتنا من المستشفى قلت:

- ألا نجلس لنأكل؟

فتسابق الزملاء فى حل عقد مناديلهم واستخراج الأرغفة واللفت والفلفل، بينما لاحظت أن زميلى سعيد ابن الشيخ حافظ قد انتحى جانبًا، وجلس بعيدًا عنا فى صمت مكتئب، فصاح به أحدنا:

- تعال كل يا سعيد.

- شكرًا، ليس رغبة فى الأكل.

وهمس أحد الزملاء فى أذنى قائلاً:

- سعيد لم يحضر معه طعامه اليوم.

فاندفعت في غضب وحدة:

- وما شأنك أنت؟

- لأنى لم أره يحمل منديلاً اليوم، فماذا أزعجك إذن؟؟

- كن فى حالك، وكفى كلامًا فارغًا.

قلت هذا وأنا أهِمُّ واقفًا حاملاً طعامى معى، قاصدًا صوب سعيد...

لقد كنت أعلم، أن أباه فى ضائقة أشد وأقسى من الضائقة التى تأخذ بخناق أبى؛ لأننا كنا نملك حدًا أدنى من الحبوب يكفينا بقية العام، أما الشيخ فهو تاجر «خردوات» من يده لفمه كما يقولون، وقد تعذر عليه بالأمس الحصول على قوت أسرته.

- لِمَ لا تأتي كى تأكل معى يا سعيد؟

- لأنى شبعان... وأنا فى الحقيقة قد نسيت أن أحضر طعامًا معى اليوم.

- لا فرق بينى وبينك يا سعيد.

- طبعًا طبعًا يا سليمان.

- إذًا فهيا نأكل.

- أعتذر لأنى -كما قلت لك- لست جوعانًا.

- إذا لم تأكل معى فلن أمسّ لقمة واحدة.

- لا تلح على فى ذلك. . . أرجوك.

لقد كان أمر سعيد غريبًا حقًا، يستطيع أن يكبح جماح معدته لهذا الحد، ويسيطر على شهوة الطعام التى تحتدم فى أعصابه؟ «يا لك من عزيز مترفع يا سعيد، فهل ورثت هذا الإباء والترفع عن جدك الضابط الثائر أم أبيك بائع الخردوات؟ أو هو طبع فيك أثاره عنادك وكبرياؤك اللذان اشتهرت بهما بين أقرانك؟» ولم أكن أعرف آخر مرة أكل فيها سعيد؛ قد يكون منذ يوم أو أكثر أو أقل ومع هذا فقد أصررت أن نأكل معًا، وأصر سعيد على عدم الأكل، ولما رأى تشبثى واستمساكى بذلك وامتناعى عن الطعام، أكل لقيمات قليلة معى فى زهد وأدب، كان يبدو عليه أنه يغالب دموعًا توشك أن تنفرط من عينيه، لكنه استطاع أن يضغط على عاطفته، ويكبت مشاعره فنجح فى ذلك. . . «يا لك من كبير شريف يا سعيد؟! كبير على الأقل فى نظرى. . ».

ما إن وصلنا إلى «المحطة» حتى وجدنا أن القطار قد فاتنا، كان علينا أن نتسكع ساعتين على الأقل حتى يأتى القطار الذى يليه، وأثناء تجوالنا لمحت رجلاً يلعب بالورق، وحوله زمرة من الغلمان هواة القمار، بشعورهم الطويلة، وأرديتهم المغبرة، وسحنهم

الكالحة، ودفعنى حب الاستطلاع أن أندس بينهم، وأستمتع بمشاهدة هذا المنظر الفريد... كانوا يلعبون الثلاث الورقات، وكان أحدهم يضع القطعة ذات الخمسة قروش فوق إحدى الورقات، ثم تعود إليه صارت عشرة قروش كاملة.. «يا إلهى يا له من مكسب هين سريع ترى ماذا يحدث لو وضعت أنا قرشًا واحدًا..؟؟ حتمًا سيعود إلى قرشين، والقرشين تتحول إلى أربعة، والأربعة إلى ثمانية و... وبذلك وبذلك أستطيع أن أملأ جوفى بالطعام والفاكهة وأشرب العرقسوس، وأجلس فى القطار واضعًا رجلاً على رجل، والأهم من ذلك أنى سأحمل هدية من الحلوى إلى بسيمة التى سيشرق وجهها سعادة وبشرًا وستعلم مدى رجولتى وكرمى.. يا لها من لعبة مغرية..؟؟

لكن أمى كانت تقول لى إن لعب القمار حرام، وأنه يُخرب البيوت، وكانت تحذرنى من ذلك كثيرًا... لكن ماذا سيحدّث لو خالفتها مرة واحدة وجربت هذه اللعبة؟؟ أنها تجذبنى إليها جذبًا لا هوادة فيه ولا رفق...

وكانت صورة المكسب المتوقع تلح على عقلى، وتجعله شيئًا مؤكدًا، فلم يراودنى قط شبح الخسارة، لكن قلبى كان يدق عاليًا متواصلاً، وأنا أقدم رجلاً، وأؤخر أخرى... كانت أعصابى تصخب وتحترق والعرق يتفصد من جبينى، وضميرى يلهبنى

بسياط من اللوم والتقريع، إذ كيف أخالف أمر أمى و أقترف هذه الوزر الأكبر؟؟

وفى هذا اليوم بالذات كان معى قرش إضافى، قلت: فلأجرب حظى بقرش واحد، فإذا ما فقدته بقى لى الثانى، وتكون هذه الحادثة خاتمة المطاف . . . لكن كلا، لن أفقده مطلقًا . . هيا تشجع . . تشجع، قرش واحد فقط سوف يجلب لك الكثير . . يا لى من متمرد عاجز . . ؟؟ فيم التردد؟ وفيم النكوص؟؟ .

وأخذت أجيل بصرى فى الثلاث ورقات، وهى تتطاير بين يدى الرجل فى خفة وسرعة مدهشة، وكثيرًا ما خمنت وقدرت، فكان تقديرى فى الغالب مصيبًا لا يخطئ فى الورقة التى أختارها . . . و . . .

أخيرًا صممت على خوض التجربة، وليكن ما يكون، وتلفت يمنة ويسرة فتأكددت أن زملائى قد تفرقوا بعيدًا، ولم يبقَ أحد منهم بجانبى، فوجودها فرصة ثمينة من الواجب أن أغتنمها حتى لا يرانى أحد حينما أخسر نقودى . . . ومن يدرى؟؟ لعلى أعود إليهم وجيبى مكدس بالنقود . وتناهى إلى سمعى رنين القطع المعدنية المنتظرة، فدفعت يدى فى جيبى وأخرجت أحد القرشين، واستجمعت قوتى وقذفت به فوق إحدى الورقات الثلاث، وقلبى يدق دقات عالية، يخيل إلىّ أنها كانت توشك أن تصم أذنى . . يا

لها من لحظة رهيبة. قاسية... رغم أننى لن أفقد سوى قرش... قرش واحد.. ورفع الرجل الورقة التى وضعت قرشًا عليهما وهو يقول:

- قرش واحد فقط؟؟ أنت فقير جداً..

وأمسكت بأنفاسى فى انتظار النتيجة، وركزت كيانى وسمعى وبصرى فى يدى الرجل اللتين تقلبات الورقة، وهنا زاغت عيناى، وأوشكت أن أفقد وعيى حينما تبين لى خسارتى، وانتزع الرجل القرش ووضعه فى جيبه وكان لم يحدث شىء...

لكن كيف أترك هذا المكان دون أن أثأر لنفسى، وأسترد قرشى الضائع على الأقل؟؟ وهكذا الخسارة قد تدفع إلى التمادى فيها، وبعض الخطأ قد يدفع إلى الإدمان...

ومرت فترة لست أدرى أطالت أم قصرت، ووجدتنى على الرغم منى أترك يدى تعبث فى جيبى كى تخرج لى القرش الباقى...!! كانت مغامرة أو لم يعد يبقى معى سوى القرش، فهل معنى ذلك أننى سأخسره؛ وبالتالى أقطع المسافة من هنا إلى بلدنا سيرًا على الأقدام وهى تربو على الخمسة عشر كيلو مترًا؟؟ لم أكن أخضع للتفكير المنطقى السليم، ولم أعمد إلى استشارة عقلى فى هذا الوضع الحرج، كنت مدفوعًا بعاطفة قوية، وبالثأر الذى أشعله فى قلبى ذلك القرش الضائع، وبالسخرية المرة التى

لذعنى بها هذا الرجل صاحب الورق حينما قال لى: «أنت فقير جدًا».

كانت هناك قوة توهن من عزمى، وتبعث الشك فى نفسى، وتلعب بعواطفى... إذًا لا بد أن أقذف بهذا القرش الباقى وأريح أعصابى وليكن ما يكون..!! عجبًا.! أين القرش؟ وأخذت أبحث فى جيبى وأقلبه ظهرًا لبطن، وأبحث هنا وهناك، وأسأل هذا وأسأل ذاك..لكن دون جدوى..؟؟ أخذت أصيح وأتوعد وأتهم، ولكن الجميع كانوا لا يعبثون بى، ويضحكون منى ومن حزنى الشديد، ودموعى التى توشك أن تنفرط وحيرتى وارتباكى... واتجهت إلى أحدهم وكان يقف بجانبى:

- أنت أخذت بقرش من جيبى...

وأمسكت بطرف كمه فى إصرار، لكنه رمقنى بنظرة استخفاف وازدراء وقال:

- دع كمى وإلا كنست بك الشارع.

- لن أتركك... أنت الذى أخذته... سأنادى العسكرية.

ولم أكد أكمل جملتى حتى شعرت بيده المتسخة الملوثة بالشحم والغبار تهوى على وجهى فى عنف، وتلقى بى على الأرض بينما عاد هو إلى مراقبة لعب الورق، وكأن لم يحدث شىء...

لقد عقدت الدهشة لسانى، وأفقت إلى نفسى على أثر هذه الصفعة، وكأنما صحوت من حلم مخيف، وهممت بالوقوف، فشعرت بيد تربت على كتفى فى مودة... لقد كانت يد «سعيد حافظ»...

- الله... أأنت هنا يا سعيد؟

- ماذا جرى؟

- لا شىء...

- قل... أتخفى عنى سرًا؟

فأطرقت برأسى دون أن أجيب والأسى يملؤنى، والحسرة تعتصر قلبى، بينما ردد سعيد بصره بين حلقة القمار ومن فيها وبين وجهى المحتقن من أثر الصفعة وهتف قائلاً:

- يا نهار أسود.. هل لعبت القمار يا سليمان؟؟

ولم أجب إلا بدموعى صامتة تحدرت على وجنتى المحمرة، فاحترم سعيد قدسية هذه الدموع وبلاغتها وقال:

- حقك علىّ يا سليمان... لا تحزن... طبعًا القرش الباقى. راح.. لا تهتم، فى ستين داهية.

- بل القرشان، فلقد سرق أحدهم القرش الباقى.

- ليكن ذلك. . . هيا واترك هؤلاء الأوباش، فليس عندهم غير الخسران والسرقة والضياع وشتى أصناف المهازل. . .

لقد صدقت أمي: إنهم يسرقون الكحل من العين، يسرقونه بطرق كثيرة بالإضافة إلى الطريقة المباشرة. . . لن أعود إليها مطلقًا، حتى ولو كان اللعب لمجرد التسلية. . أبدًا. . أبدًا لن أعود إليها. . .

هذا ما حدث فعلاً، فقد عشت طول حياتى كلما وجدت حلقة من حلقات القمار عرضًا فى الطريق، تسللت يدى تلقائيًا لتتحسس جيبى وتطمئن على أن ما به من النقود لن يحاول أحد أن يسرقه، وأشعر بلمسات الحزن اللاذعة التى انتابنى فى تلك المرة المشئومة، وأحس بالرجفة التى كانت تهز كيانى كله، وتجعل نبضات قلبى مدوية متلاحقة. . وكان علىَّ فى هذا اليوم أن أبحث عن أحد زملائى من الفلاحين -وقد كان يأتى للعلاج راكبًا حماره- لعله يعطف على ويدعنى أركب معه ولو لمنتصف الطريق وأتحمل الباقى مشيًا على الأقدام. . . وهذا ما حدث فعلاً. . وعدت إلى منزلى ألهث من التعب. . . ولمحت بسيمة تجرى وتتواثب فى خفة العصفور الطليق، فانزويت فى مكان لا ترانى فيه حتى تمضى لحال سبيلها، لأنى لم أحضر لها ما طلبته منى، وكنت أحاول نسج قصة خيالية أرويها لأمى ولأبى عن سبب تأخيرى، وعدم ركوبى

القطار، بعد أن توسلت إلى سعيد ألا يفشي شيئًا مما حدث. . لعنة الله على شيطانى، لم يكفه أن يعذبنى هذا العذاب، فعمد إلى يستحثنى على اختلاق الأكاذيب حتى أنقذ نفسى من اللوم والتقريع ومن ضرب العصا أيضًا. . . ولم يشأ اليوم أن يمر هكذا بهذه النكبات -أعنى وقوعى فى المجرى ثم موت سيد بن بائع الجميز، وثالثة الأثافى حكاية القمار- بل أبلغتنى أمى وهى فى غاية الألم أن «بسيمة» ستسافر غدًا إلى الإسكندرية، وقد تغيب فى سفرها مدة ليس بالقصيرة.

- ماذا تقولين يا أمى؟

- ستسافر بسيمة.

- لكن هذا لا يمكن. . . ولم السفر؟

- أنت صغير ولا تفهم فى الحياة كثيراً.



الفصل الثالث

أجل، كنت لم أزل صغيراً، لكننى شعرت بأن قطعة من جسمى تنتزع انتزاعًا أو أن قلبى الصغير قد انخلع من مكانه . . . ربما كنت أتعلق بأذيال الطفولة، لكن «بسيمة» كانت كالدمية اللطيفة التى تتعلق بها روح الطفل فيظل يناجيها، ويداعبها، ويبكى بكاء مراً إذا اختطف أحد منه هذه الدمية .

وتسللت عقب غروب الشمس إلى حيث لقيت «بسيمة» الصغيرة بوجهها المستدير الدقيق الملامح، ونظراتها الحنون البريئة، وقالت لى وهى تشيح بوجهها عنى فى حركة نسوية فطرية متقنة :

- أنا لست ميسوطة منك يا سليمان .

- صحيح يا بسيمة؟؟

- طبعًا لأنك بخيل .

- ما ذنبى؟؟ غصب عنى . . . الظروف صعبة جدًا، وأنت عارفة .

فنسيت بسيمة تأثرها وغضبها على. ثم تاهت بنظراتها فى السماء وكأنها تحلم أحلامًا وردية يوشيها خيالها الساذج بكل جميل من الظلال والألوان، وقالت:

- أنا مسافرة إلى الإسكندرية يا سليمان.

- أصحيح هذا يا بسيمة..؟

- طبعًا، فأنا لا أكذب عليك.

وأصابنى غم شديد لأنى لم أكن أتصور أن تنأى بسيمة عنى لأى سبب كان، لأنى كنت أشعر بسعادة بالغة ونحن نلهو سويًا وأفقت من همومى على صوتها الرقيق الحالم وهى تقول:

- كنت أتمنى يا سليمان أن تكون معى... أمى تقول لى إنى سأرى البحر الواسع الكبير... البحر المالح... بحر بضفة واحدة...

ولم أكن بحاجة لكى أفهمها - كما تعلمت فى المدرسة - أن للبحر ضفة أخرى لكنها بعيدة جدًا بحيث لا تراها العين ولا يحدها البصر، فاستطردت قائلة:

- وأبى يقول إن فيه رجالاً ونساء عرايا يسبحون فيه طول النهار بلا خجل أو حياء...

قلت لها: لعلك تقصدين المصيف؟

لكن بسيمة لم تكن تدرك معنى لهذه الكلمة - المصيف - ولا تعيرها التفاتًا، لذلك ابتسمت ملء شدقيها والتمعت أسنانها في ضوء القمر، وهي تقول:

- وفي الإسكندرية حلوى كثيرة... وخبز طري.. ولحم وبرتقال... وفيها بيوت عالية.. عالية جداً مثل سرايات الملك.

- وأنت، أتعرفين سرايات الملك؟

- جدتي كانت تحدثني عنها طويلاً بالليل وهي تحكي عن جدي الضابط الذي كان يعادي السلطان، ولما أحبوا أن يمسكوا به هرب منهم.

وصحت على حين غرة:

- ولِمَ تذهبين للإسكندرية يا بسيمة؟

- كي أتفسح وآكل حلوى وفاكهة وحاجات كثيرة..

- أنا فاهم.. لكن من سيعطيك كل هذه الأشياء هناك؟

- عمي.

- عمك؟

- طبعًا، ألم أقل لك إن جدي كان ضابطًا كبيرًا وله أولاد غير أبي في مصر والإسكندرية، ولا يلبسون العمة والجلباب مثل أبي

لكن عندهم طرابيش وبدل . . . وأمى تقــول إنهم أغنى منا ، وعندهم قروش كثيرة . .

لم أكن فى حاجة لأن تخبرنى أمى - حين عدت فى المساء - بأن حالة الشيخ حافظ شيحا تنحدر من سيئ إلى أسوأ ، وأنه يحصل على لقمة العيش وكأنه ينحتها من الصخر الصلد ، لهذا أمعن فى التفكير ، وتخلى حينًا عن حديث الحرب وهتلر . . . لكن ماذا يعمل؟؟ لم يعد حاله خافياً على أحد ، إن ملابس أفراد الأسرة الممزقة لتفصح عن حاله ، وهموم سعيد ووجومه ينمان عما يختفى وراء جدران بيتهم من مأساة بطلها الغلاء وضيق ذات اليد ، والمعارك الكلامية التى لا يهدأ لها أبدًا الشيخ حافظ وخضرة زوجته لم تعد سرًا مستترًا ، والجرائد التى لم يكن يتخلف عن شرائها إلا نادرًا أصبحت شيئًا مستحيلاً بالنسبة للشيخ حافظ ، فكان عليه أن يريق ماء وجهه ويذهب إلى هذا وإلى ذاك من هواة قراءة الصحف ، ويتزلف ويتودد كى يقرأها ، ويطمئن على أخبار هتلر وهزيمة الإنجليز . .

لهذا قرر الشيخ حافظ أمرًا لا رجعة فيه . . .

صحيح أن هذا الأمر آلمه كثيرًا وحرمه لذة النوم ، ومنعه العيش ، أو قُلْ أدمى فؤاده ، وهزه هزًا عنيفًا ، فشعر أن الأقدار التى تناصبه العداء اليوم وتحاول أن تخلق من حياته جحيمًا لا يطاق . . لقد قرر

الشيخ حافظ أن يرسل ابنته بسيمة لتشتغل كخادمة فى الإسكندرية عند أحد أثرياء الحرب. ومما خفف وطأة آلامه، وأدخل إلى قلبه شيئًا من الهدوء، أن إحدى معارفة أكدت له أنها تشغل عند الأسرة نفسها، وأنها ستعتبر بسيمة كابنتها، وترعاها وتحميها من كل سوء، وستبيت معها، وهى التى ستسقيها وتطعمها، ولن تجعلها تشكو من شيء مطلقًا، فضلاً عن أن أجر بسيمة سيربو على جنيهين اثنين... إنه مبلغ كبير حقًا، يستطيع الشيخ حافظ أن يسدد به مطالب سعيد فى المدرسة. وأن يشترى بعض الحبوب. ومن يدرى؟ لعله يعود لشراء الجرائد من جديد...

إذن فالحياة قاسية. ورغم قسوتها لا بد أن نعيشها، ونوائم بيننا وبينها، ونصبر ونتحمل حتى تعود المياه إلى مجاريها وينصلح الحال.

كنت أحب بسيمة حبًا يتناسب مع عمرى وعمرها، وكانت تبدو فى نظرى كبيرة عالية القدر، رغم أن أباها هو الشيخ حافظ الخردواتى وأن أمها خضرة ذات الشهرة الذائعة الصيت فى العراك، ورغم أنى طالب بالسنة الرابعة الابتدائية، ويا لها من منزلة كبيرة فى قريتنا الصغيرة المنزوية، لكننى هبطت من سماء خيالى وأحلامى حينما صدمتنى تلك الكلمة البشعة فى نظرى، ألا وهى «خادمة»... أتصبح بسيمة خادمة تؤمر فتطيع، وقد تركل وتهان،

وتعيش على فتات الموائد، وعنجهية السادة وغطرسة أثرياء الحرب . . . ؟؟

يا إلهى . . . إن الحياة تكشف عن كثير من أوهامى كلما امتدت بى الأيام، يا لها من مسكينة ساذجة . . !! تساق كالذبيحة بينما تغنى وتبتسم وتتحدث عن عمها المزعوم الذى ستذهب إليه فى الإسكندرية . . فماذا تكون حالتها حينما تطأ رجلها أرض الإسكندرية لأول مرة، حيث الألوان والأضواء والصخب؟

وما موقفها حين تدخل بيت سيدها، وبدلاً من أن يداعبها ويربت على كتفها ينهرها ويصيح فى وجهها كى تحضر هذا الشىء أو ذاك؟ وما شعورها حينما ترى أولاد سيدها ينعمون بالملابس الزاهية الثمينة ويحظون بالدلال والرعاية والعطف، بينما هى تتلقف ما يقذفون به إليها من ثياب مستعملة وما يوجهونه إليها من تأنيب وازدراء؟؟ فهل ستبكى بسيمة وتقول لهم أرجعونى لأمى وأبى؟؟ وهل سيرقون لضراعتها ونحيبها ويحققون لها رغبتها؟ أم يلهبونها بالعصى والزجر والصفعات، فتستغيث بأخيها سعيد كما هى عادتها:

- الحقنى يا سعيد الأولاد يضربوننى .

فلا يغيثها سعيد ولا يلتفت إليها؟؟

مسكينة يا بسيمة . . . !!

قد يتاح لها البرتقال والحلوى وغير ذلك من الطعام، لكن سيكون ذلك كله مر المذاق عديم اللذة، وكأنه مخلوط بالسم. وستعلم بسيمة حينذاك أن هناك أشياء أهم من الأكل، وأعظم من الفواكه. ولن تنسى أبدًا حنان أمها ورقة أبيها، وعطف أخيها سعيد، وهو يدفع عنها الأولاد . . وقد تجد الفرصة أيضًا فترى البحر الكبير الواسع ذا الضفة الواحدة، لكنها آنذاك ستشعر بالوحشة القاتلة، والوحدة الأليمة، وستبدو أمام نفسها وكأنها قطرة حقيرة ضائعة فى مثل هذا البحر العريض. وقد ترمق هؤلاء الذين يسبحون على الشاطئ بعين حائرة، وتعجب منهم إذ كيف لا يسترون أجسادهم، ويختبئون بعيدًا عن أعين الناس كما يحدث فى القرية . . . قد يكون الزمن جزءًا من العلاج، وقد يسلس قياد بسيمة بعد مرور بضعة أيام بحكم العادة، وبالتالى ستخف عواطف أبيها وأمها رويدًا رويدًا فلا حيلة لهما فى الأمر، فاللقمة المغموسة فى العسل تتبعها لقمة أخرى بلا إدام، وقد لا يخلفها شىء على الإطلاق.

وسافرت بسيمة . . . !!

كانت فرحة منشرحة الصدر، لكن أمها كانت تبكى، وأبوها توارى عن الأنظار يعالج أحزانه فى خلوته، وسعيد كان ذاهلاً

شارد البال، أما أنا فقد شاءت الظروف أن ترانى أمى وأنا أبكى فسارعت تجفف لى دموعى وهى تقول:

- إن قلبك طيب مثل أمك تمامًا... كل شىء يهون يا بنى.. فلا تبكى.

لكنى لم أجد ما أجيب به، وبقيت طول اليوم سابحًا فى عالم حالك السواد، لا أكاد أفرغ من تهاويله وخيالاته وآلامه...

●●●

ولست أدرى ما العلاقة بين سفر بسيمة وإصابتى بالتهاب وحرقان فى الزور فى اليوم نفسه، إذ ارتفعت درجة حرارتى وأخذت تنتابنى نوبات شديدة من السعال، ولم يأت الليل حتى كنت أهذى من أثر الحمى. وجلست أمى بجانبى بالتعويذات والمأثورات المعروفة كيما تذهب عنى أثر الحسد الذى ظنت أنه هو سبب دائى، وكان أخواى الصغيران - ليلى ومحمود - يحومان حولى، ويتفحصان فى وجهى، بل كانت ليلى تقبل نحوى حاملة كسرة من الخبز، وهى تقول لى: «خذ وكل يا سليمان».

- فإذا ما عجزت عن الرد بكت أمى، وتناست ألمها الشديد الذى يسكن صدرها، وجلس أخواى الصغيران يبكيان مثلها، أما جدتى فقد جاءت وجست نبضى، وتحسست جسدى لتختبر

حرارتى شأن المجربة الواعية، والحكمة الشعبية تقول: «سل مجربًا ولا تسل طبيبًا»، لكن يبدو أن جدتى كانت مجربة وطبيبة فى الوقت نفسه، إذ سرعان ما شخصت الداء وقررت أن زورى قد سكنته «الديبة». . . الديبة؟ ما شأنها هى الأخرى بزورى وبالحمى التى ترعش كيانى كله؟؟ لم أسمع ولم أقرأ فى حياتى مطلقًا أن الذئاب تسكن الأزوار كما تزعم جدتى الآن، فهذا شىء لا أصدقه، حتى ولو رأيت الذئبة تعوى فى فمى، لكن جدتى أكدت هذا فى هدوء وثبات لا يدعان مجالاً للشك أو التردد، وكأنما كان قرارها وحيًا منزلاً، وإنجيلاً لا يقبل النقد أو التحويل. . . وكنت أفكر أن أقول لجدتى أن زورى أصغر من أن تسكنه عصفورة وليدة، فما بالك بالذئبة، ولكن الكلمات ماتت على شفتى حينما سمعتها تقول:

- بسيطة جدًا يا أم سليمان. . اسم النبى حارسه لا يحتاج إلا إلى جزار ابن جزار يخرج له الديبة من زوره. فانتفضت فى فراشى كمن لدغته عقرب وهتفت:

- جزار؟؟ هذا لا يمكن. . كفى تخريفًا. . الجزار لذبح البهائم فقط وليس لإجراء العمليات الجراحية. .

فابتسمت جدتى فى ثقتها المعهودة، ورمقتنى فى إشفاق، ولعلها كانت تضحك من كل قلبها لسذاجتى الصبيانية، وقالت:

- لا جراحة ولا أى شىء . . اطمئن . . مجرد تمرير السكين على رقبتك .

- يا نهار أسود . . مستحيل . . دعونى أموت ولا داعى لهذا المهزلة .

فمرت جدتى بكفها الباردة العجفاء على رأسى وبدنى، ثم قبلت جبينى الملتهب وهى تقول :

- لا تخف أبدًا . . لن تمسك السكين سوى بعض المس الخفيف الرقيق، وبذلك تخرج «الدية»، وتشفى تمامًا .

فانهمرت الدموع من عينى وأجهشت بالبكاء، ورأسى يكاد ينفلق من الصداع، وصحت :

- دعونى . . . دعونى . . . لا أريد أن أشفى .

ولن أنسى ما حييت ذلك الرجل الأشيب الذى أربى على الثمانين من عمره، الجزار ابن الجزار وهو يدخل علىَّ مستلاً سكينًا طويلة صدئة، ثم ينحنى على بسحنته المغضنة السمراء، وعينيه الغائرتين وأنفه الكبير، ويده المرتعشة التى كانت تقبض على السكين. ثم يقترب من عنقى ويحاول تمريرها عليه، ولكنى انتفضت محاولاً التمرد . . ولكن هيهات . . . فقد أمسكت عدة أيادى بى، فاستسلمت مرغمًا، لكن جدتى كانت عند وعدها، فقد

مرت السكين الصدئة مراً سريعًا رفيقًا، بينما كان الرجل يزمجر بصوت أجش كأنه ينبعث من كهف سحيق:

- اخرجى يا ديبة . . . أنا جزار ابن جزار أذبحك يا ديبة . . . اخرجى يا ديبة.

ولم يكد ينتهى من عمله - أعنى تطبيبه - حتى وثبت فزعًا من فراشى محاولاً أن أتنسم الهواء، أو أبلل فمى بقليل من الماء، فتبسمت جدتى ابتسامة المنتصرة وقالت:

- بالسلامة إن شاء الله . . . ألف صحة وعافية تسلم بدنك يا سليمان . .

لقد ظنت جدتى - عفا الله عنها - أننى قد شفيت من جراء هذا العمل، فلم أحاول أن أخبرها بأن جسدى ما زال يتقد بالحمى، وأن زورى ما زال يلتهب من شدة الألم، وأن السعال لا يبرح يهزنى بشدة . . . لم أحاول أن أخبرها بكل ذلك؛ لأنه ليس فى حاجة إلى تأكيد، لأنها لن تصدقنى أبدًا مهما زعمت، بل ستتهمنى بالتمارض والتخنث. فمجىء الجزار وإخراج الذئبة - وإن كنت لم أرَ ذئبة تخرج من زورى - كل ذلك دلالة واضحة على شفائى التام . . .

وتسلل النوم إلى أجفانى، فرحت فى سبات متقطع، إذ صحوت فى منتصف الليل لأرى أمى قد ارتمت نائمة بجوارى،

وعلامات الإنهاك والألم ما زالت تظهر فى تقلصات وجهها، وبصرت بليلى ومحمود وقد تكورا عند قدمى، وأنفاسهما الرتيبة تصل إلى سمعى فى غطيط ضعيف، وأما أبى فقد لمحته بطرف عينى وهو يجلس على الكرسى الخشبى اليتيم وقد أسند خده على راحته، وهو يهمس فى صوت يشبه النجوى ويقول: «يا رب سدد ديونى.. يا رب لا تذلنى لأحد... يا رب ارزقنا واشفِ مرضانا... افرجها يا رب يا كريم..»

مسكين أبى... إنه يفكر فى ديونه ليل نهار. وصدق من قال: إن الديون ذل بالنهار، وهم بالليل، وعلة فى القلب والشرايين والأحشاء... كان أبى يتعذب كثيرًا بسبب تلك الديون، فلا يحلو له مأكل، ولا يصفو له مشرب، لقد أتعبه التفكير، فكثر عدد الشعرات البيضاء فى رأسه الحليق، ولحيته المهملة، وشاربه، وازدادت التغضنات وضوحًا وعمقًا فى جبهته، حتى لفائف التبغ التى كان يصنعها بيديه قل عددها وأصبحت رفيعة جدًا بحيث إنه لا يكاد يجذب منها نفسين أو ثلاثة إلا ويجدها لفظت آخر أنفاسها...

والشاى الذى لم يكن ينساه بين لحظة وأخرى أصبح لا يناله إلا كل بضعة أيام، وهكذا علمنى أبى كيف أتألم وكيف يئن ضميرى تحت وطأة المسئولية منذ الصغر، وعلمنى أن تحت ستار الليل

كثيرين ممن لا يذوقون النوم إلا غراراً. بل وكثير من المرضى والجائعين والبائسين. . والحقيقة إنى كلما تذكرت قصة ديون أبى، وجدتها مقترنة بصوت عمى «فريد»، فما صلة عمى بهذه الديون؟

إن عمى الذى كان يعيش معنا فى تلك الأيام، إنسان عاطفى طيب القلب، لا يكترث كثيراً بمستقبل أيامه، بل يعيش ليومه، ويحظى وينعم بالسعة التى هو فيها دون النظر لأى اعتبار، وهو أزهرى فاشل ترك الأزهر إبان ثورة سنة ١٩١٩، فلقد رأى عشرات من إخوانه يسقطون صرعى الرصاص البريطانى؛ لأن الشعب كان ينادى بالحرية والاستقلال. .

وكان لعمى بالرغم من هذا فلسفة خاصة فى الحياة، إذ كان يعتقد أن واجب الطالب الأول هو العلم والتحصيل، وليس المظاهرات والتجمهر والهتافات الصاخبة، فيوم أن نكون أمة متعلمة واعية سنعرف كيف نسير، ونتجنب العثرات والزلل. وكنت أنا شديد التأثر بهذا الرأى، وساعدنى على ذلك ما جبلت عليه من وداعة، وميل للمسالمة والهدوء، على عكس سعيد حافظ كلية؛ لأنه كان ثائراً متمرداً مشاغباً طول حياته، سواء أكان ذلك فى الشارع أو فى المدرسة. . . وما أكثر ما كان عمى يسكب فى أذنى مواعظه، ويأخذ الحماس الشديد وهو يحذرنى من أوهام الحب حينما سأكون غريباً فى إحدى المدن لطلب العلم، ويحذرنى من

المغالاة في عواطفى ومن الإفراط أو التفريط ؛ لأن ذلك سيكون على حساب مستقبلى ونجاحى ، وهذا لا يليق بابن رجل فلاح يشقى ويكدح من أجل ولده . وكان عمى يتنهد فى شىء من الألم وهو يجذب نفسًا من لفافة تبغ بين أصبعيه ، ويقول :

- ابتعد يا سليمان بكل قوتك عن التدخين ولا تقع فى الخطأ الذى وقعت أنا فيه ، لقد كنت أشعر وأنا أضع اللفافة بين شفتى أنى صرت رجلاً حتى لكأن شارة الرجولة هى سحائب الدخان التى تتصاعد من فمى وفتحتى أنفى ، وكنت أشعر أن ذلك أدعى إلى إكبارى فى أعين الناس ، وخاصة تلك التى كنت أحبها ، وكم كان الفخر يملئونى وأنا أقدم لفافة لأحد أصدقائى . . . كانت عوامل نفسية غريبة تسيطر على عقلى يا سليمان وكنت مستسلمًا لها ، وكأن إرادتي صارت هباء ، وأخذت أنحدر قليلاً قليلاً بعاملين مهمين :

أولهما: أنى أعيش غريبًا بعيدًا عن القرية بلا رقابة أو عناية ، وثانيهما: فرقة من إخوان السوء ، حتى أصبحت لا أستطيع أن أفارق التدخين والأفيون والحشيش ، وهنا علمت بعد فوات الأوان أن الرجولة الحقة هى ألا تستعبدك عادة مهما قويت ، وألا تستذلك نزوة أو شهوة مهما احتدمت ، بل كن إنسانًا فى حدود الإنسانية الطبيعية السليمة لا فى غمار الشذوذ والانحراف . . .

ثم يبدو الحزن على وجه عمي ويقول:

- قم يا سليمان وقل لوالدتك إني أريد فنجان قهوة. ثم يتحسس جيبه، ويخرج ورقة صغيرة مفضضة ويحاول فتحها بعناية بالغة، ويستخرج منها شيئًا بني اللون ليلوكه في فمه، وأعتقد أن هذا الشيء ما هو إلا قطعة من الأفيون. . .

لم يكن مع عمي نقود لينفق على التدخين والأفيون فكان يلجأ إلى أبي ليقترض منه، أبي كان محدود الطاقة، فقير الموارد، فعمد عمي آخر الأمر إلى بيع بضعة قراريط من أرضه - وكان يملك فدانًا ونصف - وارتبك والدي أشد الارتباك. . .

فالعار كل العار في أن ينزل غريب على أرضنا أو يشتريها، وأبي يظن أن الأرض قطعة منا، وجزء من شرفنا وكرامتنا، أو حرم مقدس لا يصح أن يطأه غريب، بل إن الموت أهون من ذلك عند أبي، فماذا يقول أهل القرية حينما يشطر حقلنا إلى شطرين، ويشاركنا فيه دخيل على الأسرة؟ إنهم يسمون ذلك عقوقًا وإهمالاً وفضيحة. . .

لقد وقع أبي في حيرة قاتلة، فعمي «فريد» يريد مالاً وأبي ليس معه جنيه واحد، وعمي لا بد أن يحصل على المال، لذلك عول على عرض بعض الأرض للبيع، وقرر أبي شراء الأرض حفظًا لكرامة الأسرة، ووفاء لتقاليدها للمحافظة على كل شبر من

أرضنا، وامتدت يد أبى إلى الناس كى تقترض منهم المال بالربا الفاحش، وكان مرسى أبو عفر أسرع هؤلاء جميعًا لمد أبى بما يشاء من مال . . ومرسى هذا تاجر كان يخزن بعض البضائع قبل الحرب وأثناءها، فما أن تأزمت الحالة، وانتشر الغلاء، وراجت السوق السوداء حتى أخرج مخزون بضائعه فارتفع من رجل فقير مغمور إلى تاجر كبير يملك؛ ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه، وظلت الديون تلهب أبى بسياطها، ويتراءى له شبحها المخيف ليل نهار فلا يكاد يفرغ من تسديد شىء منها، حتى يأتى عمى - سامحه الله - ويعرض بضعة قراريط أخرى للبيع، فإذا لم يشترها أبى فستكون من نصيب عشرات غيره، فلا مناص إذًا من الاستدانة من جديد، ولا إفلات من مقاساة الآلام المختلفة . . .

وكان عمى رغم هذه الآلام التى يسببها لنا عطوفًا كريمًا ولا يحاول إنكار ما يقترفه فى حقنا، بل كان يبكى أحيانًا ويقول :

- ماذا أعمل؟؟ هذه إرادة الله . . ربنا يتوب علينا .

وكانت جدتى تأتى إليه وتقول :

- يا ولدى يا حبيبى ارحم أخاك . . . ارحم عبد الدايم صاحب العيال . . . وارجع لنفسك . . . غدًا تندم يا فريد حينما تروح السكرة وتأتى الفكرة .

فيطأطئ عمى رأسه فى غم شديد، ويبدو وكأنه غارق فى بحر لجى، عاصف الريح مضطرب الأمواج لا أمل له فى النجاة، ويهمس مهمومًا:

- أنا أشد منكم حزنًا وأسفًا.

فتقول جدتى: وكيف تعيش بعد أن تأتى على كل ما تملك من قراريط؟ لم يبقَ لك إلا القليل..

- سأخرج من هذه القرية ولن أعود إليها أبدًا..

سأبحث لنفسى عن عمل.. أى عمل مهما كان لونه ومركزه.

- وإذا لم تجد عملاً يا فريد..

- المهم أنى لن آتى إليكم مهما كان الأمر... سأموت شريدًا جائعًا ولن أريكم وجهى، فقد تسببت لكم فى متاعب كثيرة ويكفيكم هذا... إنى أستحق كل ما سيحدث.

ورغم كل هذا فقد كان عمى يعيش فى البيت كواحد منا، يأكل ويشرب وينام فى البيت مع تضاؤل ميراثه وحقوقه يومًا بعد يوم، وقد فعل عمى خيرًا بعدم موافقته على الزواج مع أنه تجاوز عامه الخامس والثلاثين، إشفاقًا على مستقبل أسرته الغامض الشائك..

●●●

الفصل الرابع

- السلام عليكم يا عبد الدايم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. تفضل ادخل يا «مرسى»..

ودخل «مرسى أبو عفر» المرابى المعروف، وقد رسم على ثغره ابتسامة مفتعلة صفراء، وأخذ يتهادى فى مشيته التى تنبى عن حذر، وتمعن ودهاء، يؤكد ذلك عودة القصير النحيف، ونظراته التى تعيث هنا وهناك، وتنحنحه التقليدى... وكان أبى كلما رأى مرسى ازداد وجهه شحوبًا وغمًا، واختلجت عضلات وجهه من الغضب المكبوت، وانتفض جسده كله من الغيظ الدفين، وبان فى عينيه الضيق والتبرم... كان مرسى كالحنظل الشديد المرارة، وكأن أبى مرغمًا على تجرعه...

- سلامات يا عبد الدايم.

فرد أبى فى إيجاز: الله يسلمك..

- الدفع وجب يا زين الرجال.

- أبدًا... باقى الشهر.

- حرام عليك يا عبد الدايم.. والله والله و الله مال ناس، ولا يخصنى فيه مليم...

ورمقه أبى بنظرات مشتعلة، ولكنه كظم غيظه وسكت، وأخذت تتردد فى ذهنه تلك الكلمة التى نطق بها مرسى: «حرام عليك يا عبد الدايم»... يا للسخرية والمهزلة! أحرام على أبى؟؟ أحلال على مرسى أن يمتص دماءنا، ويقرضنا بالربا الفاحش، ويطارد أبى من وقت لآخر حتى يكدر عليه عيشه، ويؤرق له نومه؟؟ وماذا أجرم أبى؟؟ ألأنه مستسلم كالضحية، وصابر رغم ما به، متحمل لمرسى وكلام مرسى...؟؟

ومن مرير السخرية أن مرسى يزعم أن المال ليس ماله ولكنه مال ناس!!! والأدهى من ذلك أنه يقسم بالله ثلاث مرات ليؤكد قسمه، أو على الأصح يؤكد كذبه... وبعد فترة صمت قال أبى:

- لا داعى لمثل هذا الكلام... سواء كان مالك أو مال ناس، فأنا لا أماطل أحدًا، وسأرده لك بالمليم الواحد، فالقطن ما زال متكدسًا كما ترى، والحرب شلت حركة التجارة، والإنجليز خربوا بيوتنا...

- اللهم خرب بيوتهم . . .

كان مرسى يلقى بهذه الجملة الأخيرة على سبيل المجاملة والمجاراة لا على سبيل العقيدة والإيمان بها، فهو يعلم أن الحرب كانت خيراً وبركة عليه، فقد هيأت له السوق السوداء، وعلمته أفضل وسائل الاحتكار، وعرفته كيف يصل إلى ذوى السلطان ممن يشرفون على توزيع التموين فى البلاد، فيرشيهم ويهاديهم ويبنى ثروة على الخداع والسحت، وعلى أشلاء الضحايا، فليس من المعقول أن يتمنى مرسى -صادقًا- خراب بيوت الإنجليز؛ لأن فى ذلك خرابًا لبيته، وانقطاعًا لمكاسبه وموارده.

وكثيراً ما حدثت نفسى قائلاً: «ماذا يحدث لو أن كل إنسان فى مصر رفض أن يمد يده للإنجليز أو يتعاون معهم على الإطلاق؟؟ أكانوا يقيمون القواعد العسكرية، ويطيب له المقام بيننا، ويتخذون منا حلفاء، ويجعلون من بلادنا سوقًا رائجة لتجاراتهم ومنتجاتهم؟؟ أكان من الميسور أن يجد المستغلون -أمثال مرسى- واللصوص الحماية والتشجيع فيثرون، ويتربعون على القمة؟؟» أسئلة تراودنى وأنا جالس مع والدى ومرسى، فأجد أن الإجابة عنها ممتلئة بالصعوبة والإشكالات . . .

- على كل حال يا عبد الدايم . . . إذا لم نستطع بيع القطن فأعتقد أن بيع الجاموسة قد يساعدك كثيراً.

فضغط أبى على أسنانه كمن يحاول أن يوقف تياراً عارماً من الغضب، وقال:

- أشكرك على نصيحتك.. لكن لى أن أتصرف كيف أشاء، وخصوصاً أن بيننا وبين الميعاد شهراً كاملاً كما قلت لك..

- هل تضايقت منى يا عبد الدايم..؟؟ أنا لا أقصد إيلامك والله العظيم..

- انتهينا... لا داعى للكلام فى هذا الموضوع.

وكان معنى ذلك أن وضع ختاماً للزيارة، فانصرف مرسى والابتسامة المصطنعة الصفراء ملتصقة على ثغره، والمكر والدهاء يطلان من محجريه... لم تكن هذه الزيارة الأولى من نوعها، بل إن مرسى لا يفتأ يتردد علينا من وقت لآخر كالشبح الممقوت، لتذكرنا طلعته البهية. بما تراكم علينا من ديون، وليتقلب أوقات الراحة التى نختلسها اختلاساً إلى نكد وحزن. كان هو يشعر بهذا فيما أعتقد، لكن لعله يجد من اللذة والسعادة ما لا يستطيع مقاومته، ولقد كرر على سمع والدى أكثر من مرة حكاية بيع الجاموسة، فقد كان من المعروف أنها تدر كمية كبيرة من اللبن، وكانت أمى تبيع الجبن والسمن، فتجد بذلك مصدراً طيباً للقروش القليلة التى لا غنى عنها. لكن يظهر أن مرسى قد مالت نفسه لحرماننا من هذه الجاموسة والاستمتاع بلبنها الكثير، ولم يكن

يكفيه ما نحن فيه من ديون، حتى لكأن الطمع والشراهة أصبحا من مستلزمات حياته الجديدة . .

كان الله فى عون أبى، فقد كظم غيظه، ولم يرفع فأسه ليحطم بها رأس هذا المرابى الطامع الذى لا تعرف الراحة إلى قلبه سبيلاً، ولا الذوق إلى حياته طريقًا . . . لكن لا بد أن يطأطئ أبى رأسه للعاصفة حتى تمر بسلام لعل الله يتداركه بعنايته .

وحان موعد افتتاح الدراسة، وكان على أبى أن يعد لى الملابس المدرسية المطلوبة، وكان الأمر أصعب من أن تحله نصف كيلة حبوب تبيعها أمى أو كمية من الجبن أو السمن نعرضهما فى سوق القرية؛ لأن ما بقى من الحبوب لا يكاد يكفى، ولأن شراء حلة جديدة ليس بالشىء الهين . . .

أخذ أقرانى فى القرية يذهبون إلى المدينة واحداً بعد آخر، ويعودون وفى يدهم الملابس الجديدة، فكنت أتحاشى النظر إليهم وأفلت منهم كلما سألونى: هل أشتريت ملابس أم لا؟ لكنى أصبحت بين نارين، فحالتنا المالية غير خافية علىّ، و فى الوقت نفسه ما ذنبى أنا حتى أحرم من الملابس وأتعرض للغمز والتجريح والألم النفسى بين زملائى؟ . .

وخيل إلىّ أن حزنى كان أشد من أى إنسان آخر . فالنار لا تحرق إلا القابض عليها، ولكنى كنت مخطئًا فى ظنى، فقد سمعت أمى تقول فى تأثر :

- يا عبد الدايم . . . سليمان يظهر متأثرًا . . . ألن تحضر له بدلة؟

- كيف أتصرف؟؟ قولى . . . أأبيع نفسى؟؟ أأخلق المال؟

- مسكين يا ولدى، إنه لا يتكلم، لكن يظهر على وجهه الألم الشديد.

- ربنا لا ينسى عبيده يا أم سليمان . . . ستفرج إن شاء الله.

وجاء اليوم الأول للدراسة، وقبعت أنا فى البت أبكى بشدة، وهل كان فى استطاعتى أن أفعل غير ذلك؟؟ . . كنت أشعر بالألم يمزق نياط قلبى والحزن يفرى كبدى بلا رحمة . . . فزملائى قد خرجوا أفواجًا فى طرب ومرح إلى المدرسة. كنت أقف فوق سطح منزلنا فى مكان حيث لا يرانى منه أحد، وأراقبهم وهم منطلقون خارج القرية فى الطريق الموصل إلى المدرسة كانت تقع فى قرية مجاورة لنا. وشعرت حينذاك بالحرمان، وبشىء من التمرد على حظى العاثر.

وقد كان لهذه الحادثة العابرة أثر كبير فى نفسى، فقد جعلتنى أقدر الوقت وأنتهز الفرص، وأغالى فى تقديرى لقيمة كل عمل مهما كان، فلن يخالجنى أدنى شك بعد ذلك فى أن أبذل غاية جهدى، فلو أتيحت لى ظروف طيبة اليوم فمن يدرى؟؟ لعلها تنقلب إلى النقيض فى اليوم التالى. ولا شك أن الشىء الذى ينال

بالعرق يأتى سهلاً ميسوراً، ولذلك تعلمت أن أقدر الأشياء، لا بما تعارف عليه الناس من ثمن لها، ولكن بما بذلت من طاقة فى سبيلها . . .

أما أبى فلم يكلمنى مطلقًا فى ذلك اليوم، بل ولم يأتِ من الغيط ليتناول طعام الغذاء، ولعله احترم عواطفى ودموعى ومشاعرى البائسة، فآثر ألا يرانى لأنه لم يكن في حاجة إلى مزيد من الألم لنفسه ولى أيضًا.

وفى المساء عاد عمى «فريد» . . .

عاد وفى يمينه شيء مكور لم أتبينه فى غبش الليل. ودخل، ثم فتحه أمام أعيننا، لقد كان سروالاً طويلاً من الصوف الممتاز، لكنه مستعمل، ويصلح لرجل كبير لا طفل صغير مثلى، لكن كانت خطة عمى فريد واضحة بلا غموض . . .

لقد أخذونى إلى أحد «الخياطين» فى القرية، وبقدرة قادر خلق الرجل من السروال الطويل سروالين قصيرين . . . ورغم أنه لم يكن على دراية بحياكة مثل هذا النوع من الملابس -لأنه يشتغل فى الجلاليب البلدى ومثيلاتها- إلا أنه أعمل فيه المقص، وبقليل من التحوير أخرج ما أراد أبى وعمى . . . ألم أقل إن عمى رجل طيب رغم ما هو متورط فيه من أفيون وحشيش وإفلاس مطرد . . ؟؟

لكن هل حل إشكال البدلة بما يتناسب مع الحقيقة؟؟ إن المدرسة تشترط زيًا معينًا . .

ثم أنا . . . !! إن هناك شعوراً قاسيًا يعتصر فؤادى، لأنى أعيش على الإحسانات والتسول . . وماذا يكون موقفى حينما أقابل ذلك الذى جاد على بسرواله حتى أستخرج منه سروالين؟؟ هل أمشى شامخ الأنف رافع الرأس كما هى عادتى؟؟ وهل أفخر بملابسى الجديدة شأن كل الطلبة؟ لا شك أن الخجل سيغمرنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى، وكلما نظر إلى أحد سيبدو لى أنه يحقق ويمعن النظر فى سروالى، وأنه يعرف حقيقته، وكلما تهامس اثنان لن يكون موضوع الهمس -فيما أحسب- إلا هذه السبة التى لا مفر منها.

سامحك الله يا عمى . . . !!! ألم تجد حلاً غير هذا؟؟ أكل ما فى الأمر أن تتصيد لى سروالاً، لتسد حاجتى بهذه الطريقة التى أفضل العرى عليها؟؟ ألا تعلم أن لى قلبًا وإحساسًا، ونفسًا تتألم . . . تتألم بشدة وتبالغ فى ذلك؟؟ لكن الحمد لله . . . هذا كل ما نستطيعه. لتوافق المدرسة أو لا توافق على هذا الزى، وليسخر زملائى أو لا يسخروا، ولتتمرد نفسى الأبية أو تخضع، فلا بد أن أذهب إلى المدرسة، وأواصل دروسى وأبنى مستقبلى الذى يريده لى أبى، وينفق من أجله ما يستطيع من جهد.

ومرت الأيام عندنا -نحن معشر القرويين- مزيجًا من الكفاح والصبر والأمل، وكان حديث الحرب في كل مكان، ولا كلام للناس إلا عن الغلاء الفاحش والقطن الذى بارت تجارته، والمهاجرين الذين يفرون لواذًا عن المدن التى أقضت مضاجعها الغارات، والشيخ حافظ شيحا عاد إلى سابق عهده من اهتمام بالسياسة وبأخبار هتلر وغزواته الموفقة، سمعته وهو يدردش مع أحد أصدقائه وكان يقول:

- لست أدرى من أجل أى شىء نحارب؟؟ هل نحن نكره الألمان حقًا بحيث يدفعنا الكره والحقد لشن الحرب عليهم؟؟ إن كان كذلك فالإنجليز أجدر بكل مقت وكره.

- ويزعم زعماؤنا أننا ندافع عن العالم الحر، ونقف فى وجه النازية والديكتاتورية الألمانية... إن بناء الديموقراطية فى خطر ويجب أن نحميه..

فيثور الشيخ حافظ ويضرب كفًا على كف ويقول:

- أحوال تجنن.... أين هذا العالم الحر؟؟ هل فى مصر حرية حتى ندافع عنها؟ إن الإنجليز هم كل شىء فى البلد، وهل العراق التى أرادت انتهاج سياسة حرة فأعلن تشرشل عليها الحرب -هل هى الأخرى تستمتع بالحرية؟؟ والجزائر، وسوريا، ولبنان، وإيران؛ كل هذه الدول، هل تنعم بالحرية؟

ويرد صديق آخر فيقول :

- صدقت يا شيخ حافظ ، نحن لا نحارب من أجل أى شىء ، لا نعرف لنا غاية .

- بل ندفع ضريبة الذل والاستعباد . .

ويبلع الشيخ حافظ ريقه ، ويجفف عرقه ، ويتلفت يمنة ويسرة مخافة أن تكون «خضرة» آتية إليه فتنغص عليه مجلسه ، ثم يقول :

- وأين هى الديموقراطية . . ؟ يا حبيبى البلد كلها إقطاع ، وتجار ، وسادة وعبيد . . !!! مفهوم ؟؟

ثم يضحك فى سخرية مرة ويستطرد :

- «أحب الحسين ولكنما لسانى عليه وقلبى معه» فيرد آ خر قائلاً :

- أتقصد أن المصريين يحبون هتلر ؟

طبعًا . . إذا جاء رجل ليخلصنى مما أنا فيه من بؤس ، هل أكرهه؟ ستكون حماقة منى . .. وعلى كل حال لم يعد خافيًا على أحد أمر تلك المظاهرات التى قامت فى القاهرة تهتف لهتلر تستنجد به . . .

- آه يا شيخ حافظ وألف آه . . ما زال هناك بعض الأغبياء الذين يؤمنون بوعود الإنجليز ومحالفتهم ، لكأن ثمن المحالفة أن نكون أذنابًا وبقرة حلوبًا لهم ، وسياجًا لإمبراطوريتهم التى لا تغرب عنها الشمس . . .

- أتعرف يا صاحبى متى يعرف الناس عدوهم من صديقهم؟

- متى؟؟

- حين يفتحون تاريخهم ويقرأون ويعرفون من جنى على وحدتهم، ومن حطم كتلتهم العربية، وجعلها دويلات صغيرة مبعثرة، من السهل التهامها، ولا تقوى -مفردة- على صد عدوان.

- لعنة الله على الإنجليز. . لقد رمونا بكل داء وبيل فى شتى مرافق حياتنا. .

وهز الشيخ حافظ رأسه فى أسف عميق، وبان فى عينيه شبح دمعة حائرة، وهو يقول:

- شرفنا. . وأعراضنا التى أصبحت مغمزاً لكل غامز، وعرضة للقيل والقال؟

فقال أحد السامعين:

- ماذا تعنى يا شيخ حافظ؟

- أقصد نساءنا اللاتى يبعن ويشترين لدى جنود الإمبراطورية التى تدافع عن الحريات. . . كم من خادمات وراقصات داعرات خلبهن الإغراء ودفعهن العوز فوقعن فريسة سهلة للفجور. .

وهكذا تتغلغل مفاسد الإنجليز فى صميم خصوصياتنا وأخلاقنا وتقاليدنا العريقة .

كنت أستمع إلى الشيخ حافظ بكل مشاعرى، وكان الغيظ يأكل قلبى أكلاً حينما يبسط الشيخ حافظ مؤامرات الإنجليز ومفاسدهم فى بساطة ويسر، وكنت أعجب من سر سكوتنا عنهم، وإيوائنا لهم، بل وتفاخرنا بصداقتهم، ولم أكن أدرك تمامًا الخطة الخبيثة التى يسيرون عليها لهدم معنوياتنا وقوميتنا وحريتنا وحماية الملك والإقطاع، لكن عندما سمعت عن جنايتهم على الأعراض، وعن قصص بائعات الهوى من الراقصات والخادمات، انتابتنى رجفة شديدة، وعلى الأثر وثبت إلى ذهنى صورة «بسيمة» . . . !!!

بسيمة التى أصبحت خادمة هى الأخرى، وتساءلت بينى وبين نفسى فى لهفة : أيكون مصيرها الانزلاق والزلل كما حدث لعشرات غيرها . . إنه خاطر حالك السواد يخيفنى جدًا، بل يملأ قلبى بالبشاعة والفظاعة . . إذن لا فرق بين البشر والذئاب، كلا النوعين حيوانات شرهة لا هَمَّ لها إلا العبث وقضاء المآرب واللذات . . . ويبدو أن المثل والقيم أوهام شاعر، وأساطير مخترع، لا وجود لها إلا فى دنيا الأحلام . . .

بسيمة . . البريئة . . الصغيرة . . الحلوة، أتصبح عرضة للضيعة؟؟ لشد ما يثيرنى ويؤلمنى هذه القسوة التى يضطرم بها قلب

الحياة . . . !!! ولم أستطع أن أواصل استماعى لأحاديث الشيخ حافظ وأصحابه، بعد هذه الخواطر التى عصفت بى، واجتاحت كيانى كله، تركت فى جسدى ما يشبه وخز الإبر، وفى روحى ما يشبه جمر النار. وتمنيت آنذاك أن تقذف الأقدار بأى إنجليزى بين يدى، كى أشفى غليلى فأمزقه إربًا إربًا، وأنثر لحمه وعظامه للكلاب . . . وما أعجب أحلام الطفولة التى تتخيل وتهول فى الخيال، وتبنى وتهدم، وتصول وتجول كما كان يفعل أبو زيد الهلالى، وسيف بن ذى يزن اليمانى . . .

لقد كانت الظروف تأبى أن نزاول ما يعتمل فى صدورنا، فنهرب من الواقع إلى دنيا الخيال كى نشطح فيها حسبما يحلو لنا؛ لأن ذلك يجلب لنا شيئًا من الراحة وقليلاً من الهدوء، وحينما يممت وجهى شطر منزلنا سمعت الشيخ حافظ يقول:

- الفاتحة يا جماعة أن يأخذ الله باليد، وينصر هتلر . . الفاتحة . . .

فتمتم الجميع قائلين: «الفاتحة على أولاد الحرام والظلمة . . .».

كنا عائدين من المدرسة فقلت لسعيد:

- ما بك يا سعيد؟ أراك سريع الغضب، شديد الثورة هذه الأيام؟

- إن طبعى هكذا .

- لكن لم تكن بهذه الصورة العنيفة!

- فعلاً. أنا تعبان . . . متضايق . . . لم أعد أحتمل كلمة من أحد.

- ولِمَ كل هذا؟

مصمص سعيد شفتيه، واكتسى وجهه بنقاب من الحزن، وحاول أن يتكلم، لكن لسانه تعثر، واحتبست الكلمات فى فمه وأوشك على البكاء، فقلت:

- تكلم يا سعيد، ألسنا أخوين لا فرق بيننا؟

فتشجع سعيد وكور قبضته مهددًا، وقال:

- حسن بن مرسى أبو عفر قال لى بعض الكلام الفارغ هذا الأسبوع.

- ماذا قال بالحرف الواحد؟؟

- كلام لا يقال ولا يصح أن أنطق به . .

- ألهذا الحد ياسعيد؟

- نعم، لقد طعنني فى الصميم . . لا بد أن أربيه مهما كان . . سأقتلع له عينيه وأجعله قعيدًا كفيفًا . . إنه إنسان قذر.

كانت ثورة سعيد من العنف بحيث أشفقت عليه من التمادى فيها، فقلت:

- لا بد أنه غيران منك لأنك أول الفصل، أما هو فراسب للمرة

الثالثة فى الابتدائية . . . يجب أن تدعه يأكل نفسه وينفجر من الغيظ .

- لقد صفعنى يا سليمان صفعة شديدة . . . لا بد من الانتقام منه .

- صفعك؟؟ كيف ذلك؟؟ أنه لا يجرؤ مطلقًا ، أنا أعرفه جبانًا رعديدًا لا يستطيع أن يرفع يده فى وجه أحد .

- لا أقصد أنه صفعنى بكفه . . لكنه فعل ما هو أقصى من ذلك فى نظرى ، لقد مادت بى الأرض ولم أعرف كيف أتصرف ساعتئذٍ .

- ماذا جرى؟؟

- قال لى : ما هذه النفخة الكذابة . . أنت أختك خدامة . . . !!!

فصحت فى دهشة : ماذا تقول؟؟

فقال سعيد فى أسف : هذا ما حدث . .

ولأول مرة أخالف طبيعتى الهادئة الوادعة ، ويفلت منى زمام نفسى ، فتموج رأسى وتفور بشتى الانفعالات والأفكار فأقول :

- لا بد من تأديبه فعلاً . . . بل سأقطع رقبته . . إنه نذل جبان مثل أبيه .

أما سعيد فقد سكت لفترة قصيرة - ويبدو أنه هو الآخر خالف طبيعته الثائرة - فقال فى نبرات حزينة مختلجة :

- لا يا سليمان . . لن نمد يدنا عليه، ودعه هذه المرة حتى لا يفتضح أمرنا . . ماذا لو ضربناه؟؟ سيعرف مَنْ لم يكن يعرف أن أختى خادمة ولن يغفر لى كونى أول الفصل . بل سيكثر عدد الشامتين والكائدين . . . سأقبل المذلة هذه المرة . . . وسأتركها تمر، ولعلى يومًا ما أستطيع أن أعطى حسن بن مرسى درسًا قاسيًا . . درسًا لا ينساه . .

كان كلام سعيد معقولاً، بل كان أكبر من سنه وفهمه، لكن يبدو أن الأحداث والملمات كانت تعمل عملها فتهبه الرأى الصائب والحكم السليم . فلم أملك إلا أن أطأطئ رأسى موافقًا، ثم أحاول أن أواسى «سعيد» وأخفف عنه بعض ما نزل به من إهانات، وأمسح ما علق بكرامته من أذى، وهيهات . .

وحاولت أن أغير دفة الحديث فقلت :

- يجب أن نجتهد هذا العام يا سعيد، ولا بد أن نحصل على درجات عالية حتى نضمن التعليم الثانوى بالمجان .

- التعليم الثانوى؟؟

- أجل . .

- إنك واسع الأحلام .

- ماذا؟؟ هل تحولت عن هدفك؟ ألم تقل أنك تريد أن تكون

ضابطًا مثل جدك الذى أراد أن يطرد الخديوى - هو وعرابى - ووقف فى وجه الإنجليز؟؟

- يظهر أن أبى ينوى اختصار الطريق بالنسبة لى، وربما لا أجد مناصًا من ذلك، بل تستطيع أن تقول إنى أميل إلى هذا. . .

- إنك تدهشنى بما تقول. .

- لن يستريح ضميرى ما دمت أرهق أبى وأثقل على أسرتنا بهذه الطريقة، فإذا نجحت فى الابتدائية هذا العام فسأذهب توًا إلى المحلة الكبرى، ويقول أبى إن حاملى الابتدائية يأخذون مرتبًا لا بأس به، قد يربو على عشرة جنيهات.

- لا تتكلم مثل هذا الكلام.

- وهل يعجبك أن تبقى أختى بسيمة خادمة؟؟

- وهكذا كان يتحدث سعيد وكأنه ليس أمامه أن يختار، بل عليه أن يدخل بابًا واحدًا فيه النجاة وفيه الخلاص لسمعته وسمعة أسرته وأخته، وإنى لأفكر فى سعيد - أول الفصل - الذى قد ترغمه الأقدار على قطع تعليمه، وأفكر فى حسن بن مرسى أبو عفر صاحب الرسوب المتوالى، فيدور رأسى من العجب فأقول: «لعل لله فى ذلك حكمًا تخفى علينا»، وأطوى قلبى على همومى وأمضى فى طريقى.

قلت لسعيد: لا تفكر فى ذلك الآن، علينا أولاً أن نجتهد كسابق حياتنا الدراسية، ونحاول تحقيق أقصى ما يمكن من النجاح. .

– نظرك فى محله سيكون لك ذلك إن شاء الله. ولست أدرى ما الذى جعلنى أتذكر فى مساء هذا اليوم «بسيمة» وأتذكر غضبها منى، ونفورها حينما لم أحضر لها الحلوى من ميت غمر، وأخذت أستعيد الصورة بكامل خطوطها وظلالها، وأنا أجد فى ذلك راحة عجيبة. والذكريات قد تكون مصدراً للراحة مثل الأحلام حينما نفر إليها هرباً من آلام الواقع ومآسيه. . لكنى قلت محاولاً خداع نفسى:

«لا بد أنها الآن قد عافت الحلوى من كثرة أكلها فى الأسكندرية». وقبل أن آوى إلى فراشى، تهادى فى خاطرى سؤال: «متى تعود بسيمة؟؟ كم اشتقت إليها وإلى غضبها منى. . . !!».

●●●

الفصل الخامس

وكان لا بد لاستهتار عمى من نتيجة . . . نتيجة مؤلمة يدفع فيها الثمن غاليًا جدًا ، لقد جاء عمى إلى أبى وقال :

- أنت تعلم يا عبد الدايم أنه لم يبقَ لى غير ستة قراريط .

- نعم أعلم هذا .

- وأعتقد أن إيرادها لن يسد حاجة شخص متلاف مثلى .

- لا داعى لمثل هذا الكلام ، أنت أخى ولا فرق بيننا ، وسواء كان لك ستة قراريط أو أكثر أو أقل فهذا لا قيمة له عندى بالمرة ، سنظل نأكل ونشرب ونعيش معًا ، ونشترك فى تحمل السراء والضراء سويًا .

فهز عمى رأسه وقال :

- أنت إنسان نبيل طيب يا عبد الدايم ، لكنك صاحب عيال . ولا يمكن أن أحملك ما هو فوق طاقتك من نفقات ، يكفى جدًا أننى

كنت السبب فى ارتباكاتك المالية وتراكم هذه الديون عليك، لكن الحمد لله فإن عزائى الوحيد أن أرضنا أصبحت فى حوزتك ولم يستولِ عليها غريب.

- اسكت. . . أنا أخوك الأكبر فى مقام أبيك فلا تشك فى هذا.

- على أية حال انتظر حى أتم كلامى. . . إن كرامتى وخلقى يأبيان أن أعيش عالة عليك، عاطلاً خاملاً. . . صحيح أنا عبد ذليل للمخدرات لكن ما زال فىّ بقية من خير، وفضل من نخوة، يجب أن أتحرك وأبحث لى عن عمل، وأرجو أن تكمل عونك لى وتشترى منى هذه القراريط الستة، وتعطينى ثمنها دفعة واحدة؛ لأنى سآخذ هذا المبلغ وأذهب إلى القاهرة وأبحث لى عن عمل، أى عمل. . . فما رأيك فى ذلك؟؟

- هذه مغامرة وأنا مشفق عليك منها.

- لا بد أن أتحمل وأبدأ من جديد.

- يعز على ما ستقاسيه.

- سوف أذهب إلى «س. بك» نائب الدائرة، ولعله يساعدنى فى الحصول على وظيفة كتابية بسيطة، أو يستطيع تعيينى فى سلك التدريس ولو فى إحدى المدارس الأهلية، فأنا كما تعلم «راسب كفاءة» ولن يكون أمامى عقبة سوى عدم لياقتى الطبية، وربنا لن ينسانى. . .

وسار الكلام بين أبى وعمى «فريد» على هذه الوتيرة، والذى يفسح صدره ويستجيب لمنطق العاطفة والأخوة، ويلح على عمى فى البقاء بالقرية، وعمى يصر على ما اعتزمه لأن بقاءه هكذا نوع من التنطع والعار لا يليق بالرجال، رغم أنه كان يغالب أهواءه ويكبت رغباته، فقد كان يحب قريتنا، ويكره من كل قلبه أن يفارقها، لكن لم يكن له أن يختار. .

بقيت مسألة مهمة وهى: من أين يأتى أبى بالمال اللازم لشراء الستة قراريط؟؟ أيعود أبى إلى مرسى أبو عفر يسترضيه ويستعطفه ليقرضه مبلغًا جديدًا بالإضافة إلى المبلغ القديم؟؟ إن أبى لم يسدد ما عليه حتى الآن، ومرسى ما زال يوالينا بزياراته السمجة بمبرر وبلا مبرر، والضنك الذى نعيش فيه يتضخم ويزداد يومًا بعد يوم، وأبى قد أغرق الشيب سواد رأسه وأنهك من قواه، وعمى لا بد له أن يبحث عن مستقبله بعد أن أصبح فى حكم المفلس. . . هل يصم أبى أذنه هذه المرة ويترك عمى ليبيع هذه القراريط لأى إنسان، ولا داعى لهذا التمسك الشديد، ولا لهذه الفقرة التى تقول: «لن ينزل أرضنا غريب»؟؟؟

لكن أبى قد تحمل الكثير وقاسى ما قاسى، فلم لا يكمل الشوط، ويتحمل ما يستتبع ذلك من تكاليف. . . قالوا للقرد سيمسخونك فقال: هل سيجعلونى غزالاً؟؟ فلن يسوء وضع أبى

أكثر مما هو عليه، وكأن كثرة ما لاقاة أبى من آلام أكسبه شيئًا من المناعة والتمادى فى ما كان بصدده . . . لم يكن أبى فى حاجة لأن يذهب إلى «مرسى» لأن مرسى -كما أسلفت- زياراته لنا لا تفتر أبدًا . . جاء مرسى أكثر من ذى قبل، بل ولم يحاول أن يمتعض منه ويرد عليه فى اقتضاب كما كان يحدث . ولا أظن أن مرسى قد فاته معنى ذلك، فهو رجل خبير بمثل هذه الحالة .

قال مرسى :

- لقد فرغ صبرى يا عبد الدايم، والشهر الذى كان ميعادًا لسداد المبلغ أصبح شهرين، وأنت تعلم أنه لولا العشرة والجيرة وطول المعاملة لما ترددت فى رفع الأمر للمحكمة .

لقد نسى مرسى أو تناسى أنه لم يرحم أبى من عرض القضية على المحكمة، إلا بعد أن وقع له أبى على صك بمبلغ إضافى مقابل انتظاره شهرًا آخر، ورغم هذا الجشع والقسوة فهو يزعم أنه يراعى العشرة والجيرة ولم يعتد على حرمتها، لكن كان على أبى أن يغمض الطرف عن هذه الوقاحة لأنه بصدد صفقة جديدة . . صفقة دفعته إليها الظروف دفعًا مباغتًا، وبعد فترة قال مرسى :

- يعلم الله أنى لا أمتلك مليمًا واحدًا من هذه الأموال يا عبد الدايم . . . الناس يظنون أنى أحضر هذه الأموال من بحر أو

أزرعها فى الغيط . . . ألا يعلمون أنها أموال أيتام وأرامل ، وأنى مدين مثلكم تمامًا؟؟ ما أنا إلا وسيط . . .

كان مثل هذا الكلام -لما فيه من كذب لا داعى له- يضايق أبى أشد المضايقة ، ويثير أعصابه لدرجة كبيرة ، ويكاد يخرجه عن طوره لولا اعتصامه بالصبر . . .

واستطرد مرسى قائلاً : والناس يا عبد الدايم لا يستقر لسانهم في فمهم دقيقة واحدة . . . دائمًا أبدًا يزعمون أن معى ألوفًا مؤلفة من الجنيهات ، وأني سأشترى «عزبة» وعربات ركاب . . . وماكينة طحين . . . لست أدرى ما سر هذا وأنا لم تساعدنى الظروف كى أرى ليلة القدر ، كما أنى لم أعثر على كنز من الذهب .

كان أبى يتجرع هذا الكلام تجرعًا رغم أنفه ، وكان صامتًا لا يرد حتى ينتهى مرسى من كلامه المكرر المحفوظ الذى لا يتغير إلا قليلاً .

وقال أبى فجأة :

- اسمع يا مرسى ، أنا فى حاجة ماسة إلى مبلغ جديد .

- من أين يا عبد الدايم؟؟ أتظن أن يكون معى مال ثم آتى لأطاردك هذه المطاردة وألح عليك فى الطلب؟؟ إنه لعيب كبير .

- تصرف كيف شئت ، المهم عندى هو إحضار المبلغ ، وسأعطيك الربح الذى تريده ، مفهوم؟؟

- لكن أنت عالم بكل الأحوال.

- ومن أجل هذا أنا متأكد أنك تستطيع الحصوال على ما أريد.

- أصل الـ. . .

فقاطعه أبى قائلاً: لا أصل ولا فصل. . . هيا بنا. سأعطيك الجاموسة التى طلبتها مراراً، وتمنيت شراءها. فهل هذا يسرك؟؟

- ماذا تقول؟؟

- الجاموسة. . . الجاموسة. . !! سأبيعها لك. . ألا تصدق؟؟

- وسكت مرسى حتى يستجمع شوارد فكره ويحكم خطته، ثم قال:

- لا مانع عندى، لكن المبلغ القديم، ما الحل بالنسبة له؟

- سنضيفه على المبلغ الجديد بعد خصم ثمن الجاموسة.

- وتمحك مرسى قليلاً وحك ذقنه بكفه، ففهم أبى ما يعتمل فى مخه فبادره قائلاً:

- وسنضيف عليه نسبة جديدة من الربح. . . لا تخف. .

وهكذا تمت الصفقة الجديدة على هذا الوجه. . . ولن أحدثك كثيراً عن أبى حينما جاء مرسى أبو عفر وأخذ الجاموسة. . كان يبدو وكأنه فقد عزيزاً لديه، أو أن الجاموسة كانت أحد أفراد الأسرة

ثم اختطفت اختطافًا، وكانت ليلى -ومعها محمود- يتشبثان بها أيما تشبث، ويقفان بباب البيت ويمنعانها من الخروج بسذاجة وبراءة، أما جدتى فقد كانت تقول لى:

- يا سليمان يا ولدى، البهائم عندها وفاء كثير، وتعرف صاحبها ويعز عليها فراقه، أما رأيت جاموستنا وهى تزعق فى استغاثة وألم والدموع تنسكب من عينيها؟؟ . . .

ولما رأت جدتى التأثر البادى على وجهى قالت: لا تحمل هماً يا بنى . . المال والبهائم فى انتقال دائم، تروح اليوم وتأتى غداً، لا بد وأن ربنا سيفرجها ونشترى أخرى وأخرى، اذهب أنت وذاكر لك درسين . .

ثم ترفع عينيها إلى السماء وتمد كفيها فى ضراعة وتوسل وتقول:

- يا رب خذ بيد سليمان بن عبد الدايم ابن بطنى، واكتب له النجاح والوظائف العالية، بحق علمك بحالى . . ، أما أمى فلم تنطق بكلمة واحدة، وكان فى صمتها حزن بليغ، وأسف عميق؛ لأنها آثرت أن تختزن آلامها فلا تبوح بها لأحد، وهذا هو السبب فى أن آلام القلب التى كانت تعاودها من وقت لآخر قد اشتدت وطأتها فى هذه الآونة، فلم يعد يهنأ لها نوم، ولا يطيب لها مطعم، حتى ازداد شحوب وجهها، وتدهورت قواها، فإذا

ذهبت للصلاة أرى سجودها وقد طال. فأحسب أنه زيادة التبتل والضراعة، لكنه يطول لدرجة تبعث على الشك والريبة، فأذهب لأحركها فأوجدها فى إغماءة، وأجرى هنا وهناك لأحضر ماء فأبلل به وجهها، أو أبحث لها عن بصلة تشمها أو. . . أو. . . وكانت أمثال هذه الإغماءات تكاد تذهب عنى عقلى، فأعيش ساعات طويلة أقاسى الآلام والخوف من آثارها. . . كنت أخاف أن تروح أمى ضحية هذه الإغماءات فيسقط قلبى عن موضعه، لكن جدتى كانت تأتى فى مشيتها المتئدة، وتقبل نحو أمى قائلة :

- بسم الله الرحمن الرحيم. . . يا هادى يا رب. . . مدد يا سيدى عيسى العراقى. . . همتك يا قطب الرجال. . ثم تحاول تحريك أمى وتدليك أطرافها، وتتمتم ببعض التعاويذ، وبعد قليل تحاول أمى أن تفتح عينيها فى بطء شديد وتتساءل عما حدث، وتنتهد بعمق، بينما ترد إليها الروح من جديد وأشعر أن أمى قد مرت من الأزمة بسلام، فأحمد الله من كل قلبى، وأهرع إلى المسجد فأسجد الله شكرًا، وأطيل فى سجودى. . . ولا تمر هذه الحادثة فى كل مرة دون تعليق جدتى، إذ توجه اللوم إلى أمى قائلة : ارحمى نفسك يا أم سليمان. . . أنت مريضة وضعيفة، والراحة يا بنيتى لازمة لبدنك، والدنيا لم تبنَ فى يوم واحد. .

ثم تمط شفتيها قائلة :

لكن من يقرأ ومن يسمع . . . ؟؟ كلامى كله ذاهب مع الريح، وتقول فى لهجة التأكيد . . ثم إن حمل الهموم يقصر العمر . . اسمعى كلامى يا أم سليمان واعملى معروفًا . .

●●●

كان الناس فى ذلك الوقت يفرون من المدن ليتقوا شر الغارات وينجو بأرواحهم، وكثر عدد لابسى الملابس الأفرنجية فى أقاليم مصر، بينما أخذ عمى «فريد» يشد الرحال إلى القاهرة لا يعبأ بموت، ولا يهاب غارات، لقد كان طول حياته هكذا دائمًا يتسم بغير قليل من اللامبالاة ويعتبر أن أمر الحياة أو الموت موكول للأقدار، ويؤمن أعمق الإيمان بالمثل الذى يقول : ليس من المكتوب هروب . .

هل سرت فى طريق مجهول لا تعرف له معالم، ولا تتبين له غاية؟؟ هكذا كان شعور عمى «فريد» حينما عزم على مغادرة قريتنا، ففى جيبه بضع عشرات من الجنيهات هى كل ما يملكه، وأمامه دنيا القاهرة الواسعة الصاخبة، ويتعشم أن يجد له مكانًا - ولو ضيقًا- وسط هذا الزحام، ترى ماذا يكون مصيره ؟؟

هل سترحمه الأقدار فتتحقق له أمنيته، ويرتاح ضميره؟ أم سينفق ما معه من جنيهات محددة فى بحثه عن العمل، ثم يتلفت بعد ذلك فيجد نفسه فى الشارع بلا مال ولا سكن ولا طعام؟

لكم يزعجنى هذا الخاطر المخيف، ويعكر على صفوى، لا من أجل ما سيقاسيه عمى من متاعب فى سبيل لقمة العيش، لكن من أجل شىء آخر أعرفه تمام المعرفة، فهو لن يمد يده لأحد، وسيفضل الموت جوعًا وتشردًا على الذهاب إلى أحد معارف ليبيت عنده ليلة؛ أو يتناول عنده شربة ماء. .

لك الله يا عمى. . . فإنى أحبه رغم كل هذا لأنه طيب كريم لين الجانب معى. فأنا أعرف أن مدمنى المخدرات يحظون بقسط غير قليل من سرعة الغضب، وفحش الأخلاق، حتى إن صورتهم كانت مقترنة فى خيالى بالشوارب الكثة، والأسنان الصدئة، والعيون التى يتطاير منها الشرر، والعصى الغليظة والدم السائل. . .

ولن أستطيع نسيان اليوم الذى سافر فيه عمى إلى القاهرة. . .

فقد كنت جالسًا فى الفصل، أستمع إلى مدرس اللغة العربية وهو يشرح لنا موضوعًا إنشائيًا عنوانه: «صف النهضة الصناعية فى مصر»، وكان الأستاذ أثناء شرحه يحاول أن يوجه أنظارنا إلى نقطة مهمة حينما كان يقول: إن المستعمرين أفهمونا أن بلادنا أراض، زراعية فحسب، ولكن الحقيقة يا أبنائى أن مصر ذات استعداد ضخم لأن تكون مصر الصناعية أيضًا، فعندنا الحديد والبترول

وكثير من المعادن، ومصادر الكهرباء التي هى أساس النهضات الصناعية . . . فقاطعت الأستاذ قائلاً :

ولم لا تعمل الحكومة على النهوض بالصناعات إذن؟؟ فابتسم الأستاذ، ولعله وجد أن الإجابة الصريحة عن هذا السؤال قد تجر عليه ما هو غنى عنه من متاعب فقال :

- إن شاء الله سيأتى اليوم الذى يتحقق فيه ذلك . . والبركة فى همتكم يا شباب المستقبل . . .

وهممت بالكلام مرة أخرى، لكن «المشرف» قرع باب الفصل قرعات خفيفة وقال :

- سليمان عبد الدايم . .

- نعم . . .

- تعال كلم حضرة الناظر . . .

وذهبت إلى حضرة الناظر لأرى عمى فى الانتظار ومعه بعض أصدقائه الذين جاءوا لتوديعه عند المحطة . . . لقد أراد عمى «فريد» أن يرانى قبل أن يرحل إلى القاهرة .

-لا أحد يعلم يا سليمان هل سترانى بعد ذلك أم لا . هذا ما قاله حينما انتحى بى جانبًا، وأخذ يكرر على سمعى نصائحه والدمع يترقرق فى عينيه، واصل حديثه قائلاً : هذا العام ستنال

الشـهـادة الابتـدائيـة ، وفى العـام المقـبل إن شـاء الله سـتكـون فى الثانوى . . . ستصير رجلاً ، وأنت تعرف معنى الرجولة . . . أعنى أنك ستكون ذا مسئولية أكبر ، وأتعشم أن تكون أسعد حظًا منى ، وأقوم سبيلاً ، ولتهتم بدروسك أولاً وآخرًا ، ودع المظاهر الكاذبة ، وابتعد عن الشر ، ولى رجاء يا سليمان وهو أن توافينى بخطاباتك دائمًا .

وهمـمت أن أسـاله عن العنوان ، لكنى أدركت أن عـمى على باب الكريم ولا يعـرف له مستقـرًا حتى الآن ، فاختنق السؤال بين شفتى . وانحنى عمى وقبل رأسى فى حنان وعاطفة جياشة ، ولما صافحنى أراد ألا يتركنى وأنا مبهوت شاحب اللون . فقال مداعبًا :

- أما زالت أناملك تتسخ من أثر الحبر؟؟ لم تعد صغيرًا يا سليمان . على كل حال أنا أعلم السبب ، وبذلك سوف أرسل لك قريبًا قلم حبر نظيفًا جميلاً على شرط أن تكون من الناجحين ، ومن المتقدمين أيضًا .

وقبل أن يمضى لحال سبيله أسقط قطعة فضية من ذات الخمسة قروش فى جيبى ، ولم يجد كلامى أذنًا مصغية منه حينما هممت بردها . ومضى عمى ، ووقفت مبهوتًا لعدة لحظات ، وسمعت الناظر ينقر على المنضدة ويقول :

- سليمان عبد الدايم . . . إلى الفصل .

وما إن غادرت حجرة الناظر حتى فقدت السيطرة على أعصابي، فقد تدفقت دموعي دون أن أستطيع لها حبسًا، وصدر عني بالرغم مني نشيج مكبوت أخذ كياني ينتفض له انتفاضًا، فقصدت من فوري إلى دورة المياه، وكانت خالية نظرًا لأن الوقت وقت دراسة، وأطلقت لنفسي العنان، فانهمرت دموعي ما شاء لها أن تنهمر، وكنت أحس أن قلبي -وليس عيناي وحدهما- هو الآخر يكاد ينفطر، وكلما هممت بغسل وجهي بالماء وأوشكت أن أنتهي تذكرته وهو يقول: «لا أحد يعلم يا سليمان هل ستراني بعد ذلك أم لا»، فأعود إلى البكاء من جديد حتى أشفقت أن يكتشف أمري، فغسلت وجهي للمرة الأخيرة، واندفعت صوب السلم قاصدًا الفصل، وأثناء صعودي فلتت من عيني دمعة أخرى، لكني سارعت وجففتها بكفي لأني لم يكن معي منديل، واستأذنت ودخلت، وحاولت ألا أنظر إلى المدرس حتى لا يعلم ما بي، لكن عينه الفاحصة لم يغب عنها احتقان جفوني وانتفاخها، ومسحة الحزن التي بدت واضحة عليّ وضوحًا تامًا، فقال:

- ماذا بك يا سليمان؟؟

فوقفت احترامًا للمدرس وأنا أركز بصري فيما تحت قدمي، ويظهر أني كنت على وشك الانهيار مرة أخرى، لكن المدرس سارع وأمرني بالجلوس، ثم واصل شرح الدرس.

عدت إلى البيت فى آخر اليوم، والقطعة الفضية ذات الخمسة قروش التى أعطانيها عمى ما زالت تسكن جيبى، وكلما لمستها انتابتنى رجفة شديدة، وتذكرت عمى التعس الحظ، وأخذ ضميرى يلهبنى بسياطه المعهود، إذ كنت أحس أن عمى فى مسيس الحاجة لكل قرش فى جيبه، وخيل إلىَّ أنى قاسٍ وغد لا وفاء لى، والشعور بالإثم أخذ يلح على حتى فكرت فى أن أقذف بالقروش الخمسة فى إحدى الترع التى نمر عليها، لكن عز علىَّ ذلك. . . وما إن وصلت دارنا حتى وجدتها وكأنها فى مأتم، وجو الكآبة مخيم على أركانها، ووجدت جدتى لأول مرة، وقد غاض مرحها وثباتها وانهمرت دموعها، وأبى يجلس غارب النظرات، وأمى كعادتها تشكو من آلام قلبها، فقذفت بالقطعة الفضية فى حجر أمى ولم أنطق بكلمة. . .

وكان «سعيد حافظ» طوال الوقت يحاول تسليتى والترفيه عنى، وإن كنت قد فقدت عمى اليوم إلى وقت قد يطول، فهو قد فقد أخته بسيمة بالأمس، والمصائب يجمعن المصابين.

●●●

وفى اليوم التالى بينما كنت أنا وسعيد حافظ ننحدر ناحية المدرسة لمحنا رجلاً كبير السن يدفع أمامه «عربة يد» وعليها خليط من الكتب والمجلات والصحف القديمة، وروايات الجيب، وكان الرجل يدلل

على بضاعته ويذكر الأثمان الزهيدة لها، فدفعنا حب الاستطلاع لأن نلقى نظرة على ما عنده، ووقع فى يد سعيد كتيب صغير كتبه أحد المحامين عن حوادث دنشواى ومأساتها الدامية، وأبدى سعيد رغبة فى شراء هذا الكتيب، لكن المشكلة كانت فى الحصول على الثمن، فقال سعيد: «ليس معى غير ثلاثة مليمات». فقال الرجل: «سأقدم لك خدمة بإعطائك الكتاب مقابل نصف قرش».

ولمحت الحزن على وجه سعيد فبادرت قائلاً:

- من حسن الحظ أن معى مليمين، وبهذا نستطيع أن نشتريه.

فطرب سعيد لهذه الفكرة ونال الكتاب.

كان سعيد يميل دائمًا لقراءة هذا النوع من الكتب، وذلك راجع لتوجيه أبيه الذى لا يكل ولا يمل من النقاش فى السياسة، وراجع أيضًا إلى ماضى جده الضابط الذى قاسى الأمرين، ولاقى الأهوال فى هذا السبيل...

ولم يدخل فى حسبانى أن هذا الكتيب سيكون له قصة طريفة، تلقى ضوءاً على خواطر سعيد وأفكاره وعاطفته التى تلتهب فى حناياه...

دخل مدرس الصحة فهب الطلبة وقوفًا إلا سعيد، لكن المدرس لم يلحظ ذلك فمر الموضوع بسلام، وأثناء الدرس كان المدرس

يرسم صورة مبسطة لقلب الإنسان، ويوضح الرسم بالألوان حتى نستطيع تمييز الشرايين من الأوردة، وعقدت الدهشة لسان المدرس حينما سمع أنينًا خافتًا، فأخذ يتفحصنا ويجرى نظراته بين وجوهنا، فى حين أننا بدورنا تلفتنا هنا وهناك، فرأى المدرس «سعيد» وهو منزو في المقعد الخلفى، كمن يختبئ خلف القمطر، ورأسه قد قارب فخذيه، بينما أمسكت يداه بشيء غير ظاهر لنا، وخطا المدرس خطوات ناحية سعيد، وحاول أن يرى ما بيديه، لكنه سارع وأخفاه فى القمطر، ويظهر أن «سعيد» فاق إلى نفسه، وكف عن البكاء، فمد المدرس يده فى عصبية إلى داخل القمطر، فأمسك الكتيب نفسه الذى اشتريناه اليوم، والذى يحكى عن حوادث دنشواى... وتبسم المدرس... لقد تصفح الكتاب وفهم كل شيء...

لقد انهمك سعيد فى قراءة الكتاب وغاب عن كل ما حوله، وأخذ يستطرد فى قراءة القصة، ويعيش فيها بروحه وقلبه منذ أن ذهب الجنديان الإنجليزيان لصيد الحمام، ثم إحراق القمح الذى بذل الفلاح من أجله طول العام عافيته وقواه،... وحادثة قتل المرأة التى كانت عند القمح المتكوّم، وخروج أفواج الأهالى ثائرين محتجين، وموت أحد الجنديين من شدة الحرارة وإلحاح المطاردين فى طلبه، ثم يوم الانتقام... يوم الثأر الأحمر حينما نصبت المشانق فى عرض الطريق، وتدلى على أعوادها الأبرياء من أبناء دنشواى...

وزهران البطل الشهيد الذى كان مضرب الأمثال في شجاعته، وحوادث الجلد بالسياط، دون احترام لآدمية، أو توقير لإنسانية. . . وأخيرًا أولئك الذين قذفوا بهم داخل السجون ظلمًا وعدوانًا. . .

قرأ سعيد هذه التفاصيل، فألهبت مشاعره، وهزتها هزًا شديدًا، وجسّم له الوهم الدماء المراقة، والظهور التى مزقتها السياط، والحزن الشديد الذى هبط على القرية -قرية دنشواى البائسة- وبكاء الأطفال وصراخ النساء، فلم يتمالك سعيد نفسه فبكى، وتصاعدت منه الأنات التى سمعها مدرس الصحة، والتى قابلناها نحن بالدهشة والعجب؛ لأن ذلك لم يسبق له وجود فى فصلنا.

لم يعاقب المدرس «سعيد» من أجل انصرافه عن درس الصحة، بل إن المدرس نفسه ترك القلب والأوعية والشرايين ولم يكمل رسمها ولا شرحها، وأخذ يحدثنا باستفاضة عن يوم دنشواى، وعن تعسف الإنجليز، وصيحات مصطفى كامل، وتحرك الضمير العالمى لهذا الظلم الفادح، وسيطرت علينا -نحن الطلبة- الرهبة والخشوع فاستمعنا وكأن على رءوسنا الطير لتلك الحقبة من تاريخ بلادنا، لا لأننا سنمتحن فيها آخر العام. ولكن لما هو أسمى من ذلك وأكبر. . .

وصلصل الجرس معلنًا انتهاء درس الصحة، أو بمعنى أصح درس التاريخ الوطنى، ولم يخرج المدرس من الفصل إلا بعد أن أثنى على وطنية سعيد، وشجعه على قراءة أمثال هذه الكتب حتى يلم إلمامًا كافيًا الصراع العنيف بين شعبنا وبين الاستعمار.

وفى أثناء العودة إلى البيت قلت:

- لقد أخجلتنى يا سعيد... أتبكى هكذا وتدع الطلبة يتغامزون عليك؟

- حدث هذا بالرغم منى يا سليمان.. لم أستطع أن أمنع نفسى من البكاء.

- هل أحزنك أمر زهران لهذه الدرجة؟

- الإنجليز مجرمون... مجرمون جدًا يا سليمان.. ليس فى قلوبهم رحمة ولا يعرفون عدلاً.

- إن الله قد سلط عليهم من هو أقوى منهم.

- أتعنى هتلر؟

- نعم.

- لكن لن يقر قرارى إلا إذا ثأرت منهم بنفسى..

- هذا مجرد حماس... لقد كنت تخاف منهم فى ميت غمر ولا تجرؤ على النظر إليهم...

- لم أعد أخافهم منذ اليوم .

- هل انقلبت بين عشية وضحاها إلى عنترة بن شداد .

- لا تهزأ بى يا سليمان .

- آسف . . . هاتِ هذا الكتاب لأنى سأقرؤه مثلك .

- لا ، لن تأخذه .

- ولِمَ؟ لأنى دفعت فيه مليمين .

- ولو !! سأقره مرة أخرى . وبعد ذلك سأعطيه لك .

ودلف سعيد إلى بيته ، وحقيبته فى يمينه مكتظة بالكتب والكراسات ، أما كتاب «دنشواى» فقد أمسك به فى شماله ، قابضًا عليه بقوة كمن يخاف أن يختطفه أحد منه . . .

●●●



الفصل السادس

مر شهران على سفر عمى إلى القاهرة . . .

وفى صبيحة يوم جاء «الفرّاش» ثم قدم خطابًا إلى المدرس، وانصرف . . . وجالت عينا المدرس فى الفصل حتى وقعتا علىّ، ثم قدم الخطاب لى، وشعرت حينذاك بكثير من الزهو والسرور، فهذه أول مرة أتسلم فيها خطابًا باسمى . . . إذًا فقد أصبحت ذا أهمية بحيث تصلنى خطابات خاصة، وأحسست أن زملائى الطلبة يحسدوننى على هذه المنزلة . .

ولم يكن من المستطاع أن أفتح الخطاب وأقرأه أثناء الدرس، لذلك دسسته فى جيبى وأنا أنتظر انتهاء الحصة بفارغ الصبر، وكأنى جالس على الجمر . . . والحقيقة أنى كنت فى عالم آخر بعيد كل البعد عن الدرس، أضع يدى من آن لآخر فى جيبى كى أتحسس الخطاب، وأنتشى ملمسه الناعم الحبيب، وأخالس المدرس فأخرجه من جيبى بسرعة ثم أدقق النظر فى اسمى والفخر يملك

علىّ أقطار نفسى. «سليمان أفندى عبد الدايم» يا لها من سعادة كبيرة.. ولم يكن لدىّ أدنى شك فى أن هذا الخطاب من عمى. انتهت الحصة، ففضضت الغلاف وأخذت فى القراءة:

«ها أنا فى القاهرة منذ شهرين رأيت فيها الكثير. وتعلمت الكثير. ولا تعجب حينما أقول لك ذلك... فالإنسان يظل دائمًا فى حاجة إلى الكشف عن أسرار الحياة، وكلما تبدت لى عن وجه من وجوهها وحسبت أنى بلغت الغاية، كشفت لى عن وجه آخر أكثر غرابة، وأشد امتلاء بالحقائق والأسرار. الناس هنا يا سليمان فى سباق مجنون، وفى صراع فظيع، إنهم يشبهون إلى حد كبير وحوشًا فى غابة لا بشرًا ذوى حضارات ومدنيات... وحمى الحرب قد دفعتهم إلى الهذيان والانحراف والجشع، وكان أحرى بهم يا بنى أن يأخذوا العبرة من فظائع الوقائع. وألوان الموت والدماء...

وغول الغلاء يطل بوجهه الكالح المخيف فى كل مكان، تراه يبدو فى أسمال المشردين والعاطلين، وتبصره فى الأزقة والشوارع، ولا تخطئه فى المستشفيات والميادين العامة... الجميع فى ذعر من المستقبل، يشفقون على أنفسهم من الغد كل الإشفاق. والمصالح الشخصية هى المقياس أو المعيار الذى على أساسه تقوم المعاملات والعلاقات... ولا تعجب من ذلك يا بنى. فالحرب

التى اشتعلت فى العالم كله لم تقم إلا من أجل هذا . . . أعنى السباق على المطامع، والعمل على الاستعمار والاستغلال . .

قد يكون هذا الكلام غامضًا عليك بعض الغموض. وقد تحسب أن فى ذلك ضربًا من المبالغة؛ لأن ما ارتسم فى خيالك عن القاهرة وجمالها وآثارها وحكامها شىء غير ما أخبرك به الآن. ولكن صدقنى . . . فهذه هى الحقيقة :

احتكار . . . جشع . . مادية طاغية . . أنانية . . انحلال . والحرب والاستعمار هما أساس ذلك كله .

والإنجليز هنا فى كل مكان . . سكارى لا يكادون يستطيعون الوقوف على أقدامهم . . . لست أدرى هل يحدث ذلك هربًا من دنيا الواقع وآلام الحرب، أم إمعانًا فى الاستهتار وعدم الاكتراث . . . ؟؟

والإنجليز-رغم ما فى المدينة من جوع وبؤس-ينعمون بالغذاء الجيد والنزهات الطيبة والمال الوفير؛ لأن مصر-كما يظهر-بلد كريم جدًا . . . حتى مع الغاضبين . . .

لكن لماذا أستطرد هكذا فى حديثى لك عن الحرب والناس؟؟ . . هل أفعل ذلك لكى أحملك عبئًا بالإضافة إلى أعبائك . . . ؟؟ معذرة يا بنى، فأنا لم أكن أستعذب الكلام عن مثل هذه الموضوعات فيما مضى، لكنى وجدت نفسى مدفوعًا هذه

المرة؛ لأن ما أسجله لك هنا أصطدم به حيثما ذهبت فيثير فى نفسي الشيء الكثير، فلا مفر من أن أتخفف مما يثقل ذهنى بالحديث إليك فيه، لعلى أشعر بقليل من الراحة والعزاء . .

أما من ناحية موضوعى الخاص، فقد ذهبت إلى نائب دائرتنا (س. بك) فقابلنى بابتسامة حلوة، فتحت أمامى طريق الأمل، وبددت ما بنفسى من ظلام الشكوك والخوف، ووعدنى بمقابلته مرة ثانية . . .

وتكرر التأجيل . . وتكررت المقابلات دون أن أحصل على بغيتى أو أعثر على أى عمل أرتزق منه . . . ولقد همس أحد المتصلين به اتصالاً وثيقًا فى أذنى قائلاً :

- أليس معك ثلاثون جنيهًا . . . ؟

- كلا، ليس معى إلا ما يكفينى شهرين على الأكثر .

- ولا خمسة وعشرون . . ؟؟

- لقد أخبرت سيادة «البك» بحقيقة حالى . . . وهو يعلم ظروفى تمام العلم . . .

فهز الرجل كتفيه فى ازدراء وقال :

- يظهر أنك لا تريد أن تنجز أعمالك وتنهى شغلك . . على أى حال أنت حر . . وتركنى ومضى .

لقد استبعدت في بادئ الأمر أن يكون (س. بك) وأعوانه تجاراً على هذه الصورة.. لم أكن أظن أنه سيطلب مني رشوة جزاء ما يقدم لي من خدمة... لم يسألني عن مؤهلاتي، ولا عن مدى كفاءتي، لكنه أراد أن يطمئن أولاً على «المبلغ» الذي في جيبي...

لقد كنت ساذجًا حينما صدقت نائب الدائرة أثناء المعركة الانتخابية الماضية وهو يتحدث عن الشعب والشرف والحرية والوطنية و... إلخ. هذه المترادفات الطنانة المطاطة التي أصبحت تجارة رخيصة سمجة، وسلعًا مذوقة لا تقدم إلا للبسطاء والمخدوعين من أمثالنا...

وذهبت إلى «مفتش تموين» يمت بصلة لأحد معارفي-لكن للأسف وجدته مشغولاً عني بعقد صفقات مريبة، ولا يكاد يخلو دقيقة واحدة من أعماله، ومع ذلك فقد كان أحسن قليلاً من نائبنا «المحترم» ووعدني جاداً بالبحث عن عمل لي، وهأنذا أنتظر...

ولدي سليمان..

لم أكن أظن أن الحياة ستناصبني العداء على هذه الصورة، ولو علمت أني سألقى نصف ما لاقيت لما ترددت لحظة واحدة في أن أجبر نفسي على السير العاقل المنتظم وإلا لكان الموت أروح لي من هذه الحياة، أما ما مضى فلن يرجع ثانية، فلا مناص من أن أصبر، وأدعو الله أن يوفقني هذه المرة...

وأعرفك يا سليمان أنى لم أعد أتعاطى شيئًا على الإطلاق من الحشيش أو الأفيون، وقد تعجب من ذلك. . والحقيقة أنى أشد منك عجبًا؛ لأن هذه المخدرات داء عضال ليس من الميسور التخلى عنها بسهولة. . . لم يبقَ معى غير خمسة وعشرين جنيهًا، لن تبقى فى جيبى طويلاً، وليس من المعقول أن أنفقها على المخدرات وعلى الكماليات التافهة. . . حقًا يا سليمان إن الأحداث والمآسى تعلم الإنسان الشىء الكثير، وإنى لأذكرك بالالتفات إلى دروسك والاهتمام بها، مع تبليغ تحياتى إلى والدك ووالدتك وإخوتك والست والدتى حفظها الله. . . ».

«عمى»

●●●

ومرت مدة أخرى ليست بالقصيرة انقطع فيها عمى عن مراسلتنا، ولعله آثر ألا يزعجنا بأنبائه التى لا تسر، فحاول أن ينطوى على نفسه، وينكب على آلامه يجترها كئيبًا حزينًا فى غربته القاسية. . .

لكن مع هذا كانت تصلنا عنه أخبار مبتورة أو مشوهة فى فترات متباعدة، فقد جاء أحد زوار القاهرة وزعم أنه رأى عمى يحمل على رأسه لوحًا خشبيًا قد تراصت عليه بضع عشرات من الأرغفة، وآخر جاء وقال: إنه رأى عمى بعينى رأسه يحمل الأخشاب

اللازمة لعمليات البناء تحت إمارة أحد المقاولين، وكانت ثيابه متسخة ممزقة ولحيته مهملة منفرة. . وكانت هذه الأنباء تبعث الأسى العميق في نفسي وتترك جروحًا غائرة في قلبي. . . إنها صورة تعسة حقًا أن يحيا عمي هذه الحياة النكدة، وهو الذي يحفظ القرآن ويحفظ العلم، وكل ذنبه أنه أخطأ السير في أول حياته، وحرم اللياقة الطبية ولم يوفق إلى العثور على الوساطة التي تأخذ بيده إلى حياة الدعة والاستقرار التي ينشدها.

يا للمصيبة. . . !! أيشتغل عمي ببيع الخبز أو نقل مهمات البناء. . . ؟؟؟

صحيح أن هذا أشرف من التذلل وإراقة ماء الوجه على الأعتاب، لكن هذا كثير. . . كثير جداً. .

وكلما سمعت هذه الأنباء أويت إلى ركن قصي كما هي عادتي وتركت دموعي تنهمر على سجيتها، والدموع سلاح العاجزين، وهل لي أن أعمل غير ذلك؟؟ لو كان بيدي الأمر لفعلت الكثير. . .

أما جدتي التي ساءت صحتها، فقد كانت أجدر بالعطف والرثاء. . .

كانت تقول لأبي:

– يا عبد الدايم، ألا تسافر لمصر وتطمئن على أخيك؟

- أنا لا أعرف له أراضى يا أمى . . . وهو حتى الآن لم يخبرنا عن عنوانه.

- أخوك منك وأنت منه يا ولدى .

- عينى لك وله يا أمى وأنت تعلمين ذلك . . لقد ألححت عليه أن يبقى معنا ، ورزقى ورزقه على الله ، لكنه ركب رأسه .

- هل صحيح أنه يرتزق من بيع الخبز ، ويشتغل مع عمال الأجر اليومى؟

فلا يجيب والدى «بنعم» أو «لا» ، بينما تبكى جدتى وهى تقول :

- أخاف أن أموت يا عبد الدايم دون أن أرى «فريد» المسكين وأطمئن عليه . . .

- اتركى الأمر لله . . . أطال الله عمرك . . . لا تحملى همًا أبدًا . .

- قلبى يا ولدى مجروح من أجله .

- غدًا يصير موظفًا ، وكل شىء يا أمى متعب فى أوله ، والحرب هى سبب وقف الحال . .

- يا رب علمك بحالى يكفى عن سؤالى . . .

●●●

كانت أخبار الحرب قد تحولت تحولاً كبيراً، ورجحت كفة إنجلترا وحلفائها، وأخذت جيوش المحور تتراجع مخلفة وراءها أكداسًا من الخسائر فى الأرواح والذخائر، وكانت معركة «ستالينجراد» بين الروس وألمانيا، والتى جاهدت فيها الأولى جهاد المستميت حتى دحرت الثانية-كانت هذه المعركة ذات أثر فعال فى رجحان كفة الحرب. . .

أجل، لقد توالت الهزائم على هتلر، وتدفق العون الأمريكى على أوربا، فأنعش اقتصادياتها، وعالج مشاكل الجوع والبطالة لحد ما، وأخذت فرنسا-التى كانت هزيمتها سبة على مر الأجيال-تسترد أنفاسها وتتحرك من جديد لتمحو وصمتها، متخذة نقطة انطلاقها فى شمال إفريقيا، وكان الإنجليز يبذلون الوعود للأمم المستعبدة والمستعمرة، ويعاهدونها على إعطائها الحرية والاستقلال ثمنًا لما يضحى به أبناؤها ضد النازية، وتقديراً لما قدموه للإنجليز من عون فى الرجال والمواد الخام والمؤن.

ويبدو أن الشيخ «حافظ شيحا» قد ساءته هذه الأنباء، وأقلقت باله أشد القلق، فهو لم يكن يتصور أن هتلر سيهزم، وأن هذه الدول المتحالفة التى دمرت ومزقت شر ممزق ستقف على قدميها من جديد، وكان «الشيخ حافظ» يحاول انتحال الأسباب والمعاذير كى يعلل بها تراجع هتلر، ويحاول أن يعطيه صورة المكر والدهاء

والعبقرية العسكرية، لأن الحرب خدعة، لذلك كان الشيخ حافظ ينتهز انتصار الألمان فى إحدى الوقائع، واستردادهم لبعض الأماكن، فيملأ القرية دعاوات وإشاعات عن بداية الاكتساح الألمانى الجديد الذى لن يترك الإنجليز أو الأمريكان يعرفون لهم رأسًا من رجلين. . . لكن كثيرًا ما كان يخيب ظن الشيخ حافظ، إذ تواصل القوات المتحالفة تقدمها، بينما ينحسر ظل الألمان عن مناطق مهمة واسعة. . .

وجلس الشيخ حافظ فى أحد الأيام مع أصحابه، وكان يحاول أن يفلسف الأوضاع التى بلغتها الحرب، ويحاول كعادته دائمًا أن يضفى على هتلر ألوانًا من المديح والثناء الذى ينتزع الإعجاب والتوفير. قال الشيخ حافظ:

- صحيح أن هتلر قد تقهقر فى روسيا، لكن لا تنسوا أن الطبيعة هى التى أرغمته على ذلك، لقد كان فصل الشتاء قاسيًا جدًا على الجنود. . . كل شىء كان متجمدًا حتى زيت الدبابات والطائرات، وحتى الدم فى شرايين الجنود. .

- عجبًا، أمن الممكن أن يحدث هذا؟

- ولِمَ لا؟

فرد عليه آخر وقال:

- والروس؟؟ ألم يكونوا بدورهم يحاربون فى هذا الزمهرير؟

- لكن هذه بلادهم يا صديقى، وقد تعودوا على جوها . . أضف إلى ذلك أن بلاد الروس واسعة جدًا . . وبدلاً من أن يقيموا المتاريس من الحجر والحديد، كانوا يقيمونها من الأجساد البشرية . . . إن الأمة الروسية عدد الحصى والرمل . . كان الله فى عون هتلر . . إنهم لا يحاربون فى روسيا آدميين، بل يحاربون وحوشًا لا تهتم بالموت أو الحياة . .

- لكن أتعتقد أن يعود هتلر لغزو ستالينجراد؟

- ولم لا؟ أن هتلر رجل حديدى العزم، ولن يتراجع أو يتوانى عما يسميه «العالم الاستعمارى» إذ لا بد من القضاء عليه . .

- إنى أشك فى ذلك يا شيخ حافظ . .

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . لِمَ الشك؟ لقد ابتدأ الحلفاء فى التقدم بعد أن ابتلوا بالهزائم النكراء فى السنوات الماضية، وبعثت فرنسا من جديد بعد أن سحقت سحقًا، فهل تستكثر على ألمانيا العظيمة أن تفقد بعض المواقع؟؟ أنسيت أن هذه البقاع كانت ألمانيا قد احتلتها فى فترة صغيرة بعد أن اجتاحتها كالعاصفة؟؟

- أمريكا وروسيا قد تركتا أثرًا كبيرًا فى خط سير الحرب، وموارد

أمريكا كثيرة بينما ألمانيا أصبح واضحًا أنها تقاسي الأهوال في الحصول على المواد الأولية.

- يا ناس... يا عالم...!!! ألا تفكرون قليلاً بعقولكم؟.. كل هذه دعاية إنجليزية قذرة، وهتلر عنده ما يكفيه سنوات طويلة... ألم تسمعوا عن مخزن ١٣؟ إن هتلر رجل رحيم شفوق لا يريد أن يسحق أوروبا بل يمهلهم لعلهم يعودون إلى رشدهم، فإذا ما تمادوا وأصروا على حماقتهم فسيضع مخزن ١٣ النهاية المفجعة لهذه الحرب... إن هتلر يريد أن يحكم شعوبًا ودولاً بعد الحرب لا أنقاضًا وخرابات... أليس كذلك؟؟

فرد زميل آخر وقال:

- كلنا يتمنى انتصار هتلر يا شيخ حافظ فلا تثر، لكننا قلقون من جراء هذا التقهقر.

- حسنًا! هناك شيء آخر، فهل سمعتم عنه؟

- ما هو؟

- القنبلة الذرية.. هذه القنبلة لو قذفت على لندن لمحتها من الوجود محوًا، وما تركت إنسانًا أو حيوانًا أو نباتًا، فلو ضاقت السبل بهتلر لأطلقها وأراح نفسه، وأنهى الحرب...

- ولم لا يطلقها ويخلصنا؟

- لأنه رجل رحيم.

- وهل فى الحرب رحمة يا شيخ حافظ؟؟ إن المذابح لا تجف دماؤها مساء صباح، والمجازر البشرية فى كل مكان، فكيف تتحدث عن الرحمة؟

وضاق الشيخ حافظ ذرعًا بمناقشاتهم هذه المرة، والحقيقة أنهم كانوا يتمنون من صميم قلوبهم انتصار هتلر، لكنهم كانوا مشفقين من هذا الاندحار، ،كان حديثهم ينبئ عن قلق زائد، غير أن الشيخ حافظ لم يكن يريد لهم أن يحملوا أدنى شك فى انتصار هتلر، بل يجعلوا هذا النصر أمرًا مؤكدًا لا يحتمل ريبًا ولا شبهة رغم أنه فى قرارة نفسه كان يشعر بالتوجس نفسه والخوف على مصير هتلر، لذلك تنحنح وهز رأسه، شأن الحكيم العالم بمجريات الحوادث وقال:

- فستذكرون ما أقول لكم، وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد.

ولكن خضرة تقف دائمًا للشيخ حافظ بالمرصاد، وتقطع عليه لذته كلما حمى وطيس المناقشة السياسية، وصال فيه وجال، ويبدو أن الشيخ حافظ كان يظن أن خضرة لا تناصبه العداء إلا لأنها تكره هتلر، وما دامت تكرهه فلا بد أنها تحب أعداءه-أى الحلفاء- والحكمة الأمريكية تقول: «ومن ليس معنا فهو علينا». ولذلك كان

الشيخ حافظ ينظر لزوجته وكأنها متهمة بالخيانة العظمى لهتلر ولكفاحه العظيم، وما إن برزت خضرة على مجلس الشيخ حافظ حتى صاحت قائلة :

- ألف ألف مصيبة تأخذ هتلر ومن معه . . . قم يا رجل الزباين واقفين من ساعة . . . قم اعمل لك عمل تأكل منه لقمة عيش .

- كفى عن هذا الكلام الفارغ وإلا قمت وأعطيتك درسًا فى الأدب . للخلف در، وهيا إلى المنزل، ما شأنك أنت وهتلر؟ .

فوضعت خضرة يدها على خدها، وأمالت وجهها وهى تنظر نظرات ساخرة مغيظة وقالت :

- أليس هتلر هو الذى أسقط القنابل على السيد البدوى؟ ولولا سره الباتع وكراماته لكان المسجد والمقام العالى خرابة يعيش فيها اليوم . ومع ذلك تقول هتلر فى قلبه رحمة . . . هتلر يحب الإسلام . . . هتلر رجل والرجال قليل؟؟ قم يا شيخ وبع منديلين . . .

فقهقه الجالسون وعلا تصفيقهم وضجيجهم لكلام خضرة المفحم، وقال واحد منهم :

- يظهر يا شيخ حافظ أن زوجتك لا تقل عنك قوة حجة، وسلامة منطق، إن لم تفقك فى ذلك .

- لا تعجب من طول لسانها، إن آخر شيء يكف عن الحركة فى الرجل قلبه، وفى المرأة لسانها، أليس كذلك؟؟

- لا، بل إن ابن الأوزة عوام.

- أجل، ابنها وليس زوجها.

فتضاحكوا من جديد، بينما هم الشيخ حافظ بمغادرة المكان، ولم ينس أن يجمع أوراق الجريدة بعناية، ويطويها ويمسكها بيده، ثم يمشى فى الشارع ويطوح بها أمامًا وخلفًا قاصدًا منزله، حتى يقدم للزبائن ما يحتاجون إليه من بضائع.

●●●

قلت لأمى ونحن نتحدث أثناء الطعام عن الشيخ حافظ وعراكه مع زوجته:

- ألم يأتِ خبر عن «بسيمة»؟

- «الحوالة» الشهرية هى التى كانت الصلة الوحيدة بينها وبين أبيها، لكنها انقطعت هذا الشهر لسبب لا يعلمه أحد، وهذا هو السبب فى الخلاف الذى وقع أمس بين حافظ وزوجته.

- ولِمَ لا يستفسرون عنها بخطاب مستعجل؟

- أرسل أبوها خطابًا لكن لم يأتِ بنتيجة.

- ما معنى ذلك؟

- لا أحد يعلم، ومن أجل هذا فأمها المسكينة تبكى دائمًا، وجعلت حياة الشيخ حافظ نكدًا فى نكد.

- شىء يحير.

- على كل حال الشيخ حافظ يبدو أنه مستعد للسفر بنفسه إلى الإسكندرية، وفى نيته أن يحضر بسيمة إلى هنا.

وكان كلام أمى مفهومًا لدىَّ، فقد لاحظت أن حالة الشيخ حافظ آخذة فى الانتعاش، واتسع محيط تجارته لحد ما، فكثرت زبائنه ولم يعد يكثر من التغيب عن محل عمله، والظاهر أن فراقه لابنته قد آلمه، لدرجة أن عمد إلى زيادة البذل من مجهودة، ومضاعفة نشاطه، حتى يشترى راحة باله، ويحافظ على كرامة بيته برجوع ابنته إليه، وخصوصًا أن غيبة بسيمة قد تركت ظلاً كثيبًا فى نفس الأسرة كلها، وجعلتها تشعر بالضعة والهوان.

انعكس هذا الانتعاش المالى على صديقى سعيد حافظ فقد أصبح فى استطاعته أن يأتى للمدرسة كل يوم ومعه نصف قرش - خمسة مليمات كاملة يستطيع أن يشترى بها الترمس والخروب أو بعض الكتب التاريخية القديمة. لهذا اعتزم الشيخ حافظ أن يتوجه إلى حيث توجد ابنته ويعود بها سريعًا، لكنه آثر أن يرسل خطابًا

ثانيًا إلى تلك المرأة التى كانت هى الصلة بين الشيخ حافظ وثرى الحزب الذى تخدم بسيمة فى بيته، وأخبرها فيه أنه سيصل إليها قريبًا، لكن مما أدهش الشيخ حافظ أنها هى الأخرى لم تبعث إليه برد، وعلمت من أمى أن آخر خطاب من بسيمة كان مرفقًا به صورة لها، وهى تحمل طفلاً صغيرًا لزوجة مخدومها، وتبتسم له وهى تقدم له أصبع موز، لكن الشيخ حافظ رأى ألا تبيح زوجته رؤية هذة الصورة لأحد، وكأنها وثيقة للمذلة والعار يجب أن تدفن إلى آخر العمر فى قرار سحيق، ولكنى قررت أن أرى هذة الصورة بأية وسيلة، وأخذت أعمل فكرى وأقلب الأمر، لكنى تبينت أن أم بسيمة لن ترينيها، وليس من المعقول أن أطلبها أنا من سعيد ففى ذلك جرح لكرامته، وعدم لياقة وكياسة منى . . .

وكدت أيأس لولا أن عمة بسيمة -تلك العانس التى أشرت إليها سابقًا- طلبتنى فى أمر خاص، ولم يكن هذا الأمر الخاص بالشىء الذى يخفى على، فقد تعودت أن أحضر لها من القرية التى توجد فيها مدرستنا بعض المشتريات التى لا تتيسر فى قريتنا، كزجاجات العطر وأنواع الكحل الممتاز و . . . و . . . إلى مثل هذة الأشياء مما تحتاج إليه النساء؛ نظرًا لأن أخت الشيخ حافظ كانت حريصة دائمًا أن تبدو فى أحسن زينة وآنق منظر، لعل ذلك يسوق إليها ابن الحلال الذى ينتشلها إلى بيت الزوجية . . .

ولم تكن تأتمن «سعيد حافظ» على شراء مثل هذه الأشياء؛ لأن سعيد فى نظرها متلاف ومماطل، ولأنها كانت تشترى هذه الأشياء خفية حتى لا تعرفها خضرة، إذ كثيرًا ما كان ينشب بينهما العراك لأتفه الأسباب، قالت لى أخت الشيخ حافظ:

- اسمع يا سليمان... أنا محتاجة إلى علبة ورنيش أسمر لأن السوق بعد غد وسأذهب إليها، وأريد خيط حرير أخضر، وخرزًا بثلاثة قروش.

ووثبت إلى ذهنى فكرة أطلقها شيطانى، وأوعز إلى أن أحسن استغلال هذا الموضوع، فقلت لها:

- أنا لا أخرج من المدرسة إلا متأخرًا، والوقت ضيق جدًا فما العمل؟

- عجبًا، ليست هذه طبيعتك يا سليمان... لقد عهدتك مطيعًا لى دائمًا...

- ثم إن سعيد معى دائمًا لا يفارقنى لحظة واحدة.

- أنت تعرف كيف تتصرف. وأنا أفخر دائمًا بك وأقول إنك طيب الخلق مؤدب... أهكذا تخيب ظنى فيك...؟ إننى لا أئتمن غيرك...

- كلفى سعيد هذه المرة.

- ماذا تقول؟ أتريد من خضرة أن تقيم لنا معركة مثل معارك هتلر هنا فى البيت؟ . . . هذا سر بينى وبينك لا يعرفه أحد . . . اسأل والدتك، إن خضرة تغار منى دائمًا، وتتمنى أن أذهب فى داهية حتى تستريح منى.

ثم ربتت على كتفى تستعطفنى وقالت:

- وسأعطيك قرشًا . . . قرشًا كاملاً . . . مبسوط؟

- لا، لا أريد قرشًا.

- إذًا فما هى طلباتك؟

- أريد أن أرى صورة بسيمة التى وصلت من الإسكندرية فى خطاب.

- يا غالى يا سليمان والطلب رخيص . . . سأحضرها لك على عينى ورأسى.

- إن الشيخ حافظ قد أوصى بعدم الاطلاع عليها.

- أترك هذا لى، سأجعلك تراها، فماذا بقى؟

- بقى أننى سأحضر لك كل ما تحتاجين إليه . . .

كانت يدى ترتعش وأنا أمسك بالصورة، ولم يكن بالدار غيرى وأخت الشيخ حافظ . . . إن بسيمة تبدو كعهدى بها بريئة وادعة،

وتبتسم ابتسامتها الفطرية التى تفيض كالشعاع الهادى الجميل، ولم أستطع الإفلات من حزن مقبض أوحته إلىَّ رؤية الصورة رغم تلك الابتسامة. قد يكون مصدر هذا الحزن فى داخلى أنا، وليس فى الصورة، فكثيراً ما نرى نحن البشر الدنيا من خلال أنفسنا وإحساساتنا الخاصة، ولم تجد بسيمة شيئًا تمسكه فى يدها إلا أصبع الموز، إنها ما زالت تحب الفاكهة وتحلم بها، وإلا لماذا لم تمسك بزهرة مثلاً بدلاً من هذا؟ ولفت نظرى أن جلبابها أوسع من اللازم مما دفعنى أن أرجح أنه ليس لها، أو أنها نالته كإحسان من إحدى بنات الأسرة الصغيرات، ووضح أنها تحمل طفلاً ابن سنتين يفوقها نضارة وسمنة حتى لكأن عودها الرفيع الرقيق يكاد يهتز ويفقد توازنه، وأخذت أتأمل الصورة وأسبح فى جوها غير عابئ بما حولى، وذهبت أخت الشيخ حافظ لتقضى بعض حاجاتها وتركتنى فى حجرتها واقفًا أتامل الصورة، ورفعت عينى لأريحها من التأمل الطويل فوجدت «سعيد حافظ» أمامى بلحمه ودمه، فأخذتنى المفاجأة ووقعت الصورة من يدى، فاختطفها سعيد، ورمقنى بنظرات غاضبة منطلقة كالسهام وقال:

- اخرج من هنا بسرعة.

ووقفت متردداً برهة من الزمن، ثم تحركت خارجًا من البيت وأنا لا أقدر أن أرفع رأسى لأرى ما أمامى، حتى إنى اصطدمت بخضرة عند الباب وهى تدخل مسرعة وتقول:

- أنت ماشٍ سكران يا سليمان؟؟

وانتابني شعور موجع لا يعدو شعور اللص حينما يقبض عليه متلبسًا بجريمته، أو الذي يقترف خيانة لا مفر من الاعتراف بها، والتسليم بوزرها . . !! لكن كنت أعود لنفسي قائلاً: «وماذا جرى؟؟ أكل هذا لأني رأيت صورة بسيمة وهي تزوال عملها الرسمي كخادمة؟ وماذا في ذلك؟؟ إن الناس يعرفون كل شيء». وحينما تطن هذه الأسئلة في رأسي أجد أن الموضوع لا غبار عليه لكن شعوري العميق يهزأ بي ويسخر من منطقي المعقول ويضعني في موضوع اللص أو الخائن، وقد يكون ذلك راجعًا إلى أني لجأت إلى طريقة ملتوية لرؤية الصورة. . .

ودارت معركة-كعشرات المعارك-بين خضرة وأخت زوجها من أجل الصورة، ومن أجل البحث عن أشياء في حجرة خضرة وبدون إذنها، واتهمتها بالتلصص والخروج على حدود الأدب، لكن الظروف قد اقتضت أن تكون هذه المعركة مكتومة وفي أضيق نطاق-لا تتعدى جدران البيت-حتى لا يتردد اسم «بسيمة الخادمة» على أفواه أهل الحارة، كانت أخت الشيخ حافظ أسبق إلى أمي وإخبارها بما حدث، وأنا بدوري وفيت التزاماتي وأحضرت لها ما طلبته مني من ورنيش وخرز وخيط. . .

ولم يكن هناك من نتيجة متوقعة إلا مقاطعة سعيد حافظ لى ومخاصمته إياى، بحيث أصبح من المألوف أن يذهب كل منا إلى المدرسة ويعود منفرداً، فكان جزاؤنا -أنا وسعيد- صفعتين من الشيخ حافظ شيحا أرجعا إلينا رشدنا وصفاءنا، وعادت المياه إلى مجاريها . .

وحدث فى هذه الأيام أن المولود الذى ولدته أمى نزل ميتًا لسبب لا نعلمه . .

●●●

الفصل السابع

وأخيراً نجحنا فى امتحان الشهادة الابتدائية بتقدم، وكان سعيد حافظ أول المدرسة، وكانت فرحة كبرى غرق بيتنا أثناءها فى أكواب الشربات الحمراء، وتوالت وفود المهنئين من أطفال ونساء ورجال فى حارتنا، وكانت أمى فرحة سعيدة، لم ألاحظ عليها أثر معاناة من آلام القلب. . لقد نسيت آلامها، وشقاءها، ومسح نجاحى كل أثر للألم والعنت، أما سعيد فلم يحتفل بنجاحه مثلما احتفلت أنا لسببين : أولهما : غربة بسيمة، وثانيهما : غياب الشيخ حافظ الذى ذهب إلى الإسكندرية ليحضر ابنته، لذلك تأجل احتفال سعيد.

وبعد أيام عاد الشيخ حافظ من الإسكندرية، ولم تكن بسيمة معه.

وكان جبينه مقطبًا ساخطًا، ونظراته تائهة زائغة. .

هل ماتت بسيمة؟؟.

هل رفضت الحضور مع أبيها؟

وساد الوجوم أسرة «الشيخ حافظ» ووقفوا مشدوهين محزونين، وارتسمت علامات الاستفهام على شفاهم وعيونهم، وقصد الشيخ حافظ إلى حجرة داخلية وباقى أفراد الأسرة مندفعين وراءه، والخوف والدهشة يعقدان ألسنتهم، وجلس الشيخ، وتسللت الدموع الصامتة على خده، فطار الصواب والتأنى من رأس خضرة وصرخت بأعلى صوتها:

- يا حبيبتى يا بنتى . . . !!! ماذا جرى يا شيخ حافظ؟ .

واختلط النحيب بالبكاء، وكان صراخ، وكان ازدحام حتى اكتظت الدار بمن فيها من أهل الحارة.

وكلهم فى حيرة لا يدرى ماذا يفعل، هل يقدمون العزاء؟ هم لا يعرفون هل ماتت أم لا . . ولكنى شعرت بالطبع أن هناك مأساة تتعلق ببسيمة . .

لقد ذهب الشيخ حافظ وفى قلبه عاطفة وأمل، وما إن وصل إلى الإسكندرية حتى قصد إلى حيث تسكن المرأة التى تعهدت برعاية بسيمة والسهر على راحتها، وما إن قرع الباب حتى صاحت به امرأة عجوز على بضع خطوات من المنزل، كانت تبيع الحلوى الرخيصة للأطفال:

- تعال هنا يا أستاذ. . . على من تسأل؟؟

وأخبرها الشيخ حافظ عن بغيته، فقالت المرأة فى دهشة:

- تعيش أنت. . !! لقد راحت هدراً. . مسكينة!! كنا نجمع أعضاءها عضواً عضواً من الشارع.

- ماذا تقولين؟؟

- ماتت على أبشع صورة فى أثناء إحدى الغارات الألمانية.

فشحب وجه الشيخ حافظ وهتف قائلاً:

- وأين بسيمة. . ؟؟ بسيمة ابنتى. . !!.

- لا أعرفها ولا أعلم عنها شيئًا.

فقال فى انكسار ومسكنة:

- طفلة فى الثالثة عشرة من عمرها كانت تعمل خادمة فى إحدى البيوتات الكبيرة هنا.

فقالت المرأة فى ضيق: لا أعلم. . اذهب واسأل عنها هناك. .

وأخرج الشيخ حافظ العنوان فى لهفة، وانطلق هائمًا على وجهه، يبحث عن المكان الذى تعمل فيه «بسيمة»، لقد كان يمشى موزع النفس مرتعد الفرائض، لا يكاد يشعر بما حوله. . ينظر إلى

البيوت والناس والعربات والترام فلا يلم منها إلا بصور بها الخيال أمامه . . ولم يكن يعبأ ببائع الصحف وهو ينادى :

- انسحاب ألمانيا يا مصرى يا أهرام . . انتصار الحلفاء . .

كان الشيخ حافظ يقرأ أرقام البيوت، وكانت آثار الخراب والدمار تتجلى فى كل مكان، فكأنما انهارت المنازل ليبنوا بدلاً منها هذه المخابئ الكثيرة المنبثة هنا وهناك .

ووقف الشيخ حافظ فى مكان معين وقال : «هذا منزل رقم ٢١ وذاك رقم ٢٩ فأين إذًا رقم ٢٣ ، والمفروض أنه يقع بينهما .

وسأل الشيخ حافظ أحد المارة فحملق فيه مندهشًا، ولعله ظن بالشيخ حافظ شيئًا من الغباء وقال : «ألا ترى هذه الخرائب؟!» فقال الشيخ : «بلى» فرد الرجل قائلاً : «ابحث عن أرقام ٢٣، ٢٥، ٢٧ فيها، ألست فى الدنيا يا أستاذ؟ الغارات لم تبقِ شيئًا على حالة . . هذه البيوت الثلاثة طواها العدم، ومسحتها الغارات الألمانية مسحًا . . » .

- أحقًا ما تقول؟ .

فهز الرجل كتفيه ساخراً ومشى دون أن يجيب، بينما جرى الشيخ حافظ وراءه فى ضراعة وتوسل وقال :

- وأين بسيمة إذًا . . إنها كانت تعمل خادمة فى منزل ٢٣؟

فقال الرجل فى قسوة دون أن يبدو عليه شىء من التأثر :

- أما أن الله أراحها من شقاء الدنيا وهمها فاختارها لجواره فى إحدى الغارات، وأما أنها هاجرت من هنا إلى مكان آخر مع الأسرة، وأسرع فى مشيته تاركًا الشيخ حافظ وراءه حتى لا يلاحقه بكثرة الأسئلة التى لا طائل تحتها، وكانت مآسى الحرب وأهوالها قد بذرت فى النفوس أخلاطًا من القسوة والملل والعجلة . . ألم يكن يدرى هذا الرجل أنه بكلامه هذا يمزق فؤاد الشيخ حافظ وأحشاءه بخناجر حادة؟؟

وأخذ الشيخ حافظ يقطع هذه الخرائب جيئة وذهابًا بلا غاية أو هدف . . هل كان يبحث عن بسيمة وسط تلك الأنقاض؟؟ هل كان يتشمم رائحتها فى هذا الحصن المتراكم، أم كان يبكى الأطلال، ويناجيها شأن الأقدمين؟؟

ولم يزده سؤال الجيران إلا حيرة فوق حيرته . . أما تبليغ الأمر للشرطة فقد أضاف إلى أحزانه حزنًا جديدًا .

وهكذا عاد الشيخ إلى قريتنا بخفى حنين، عاد دون أن يعرف هل ماتت بسيمة فيها التراب على ذكراها الدامية، أم ما زالت حية ترزق فيواصل البحث عنها حتى ولو قضى عمره فى الأسفار!! كانت حيرته أقسى من كل شىء . . أقسى من الموت نفسه .

وفى غمرة يأسه لعن الدنيا والناس، ولعن المال الذى ألجأه إلى دفع ابنته للخدمة، ولعن الحروب ومشعليها، ولم يستثنِ فى هذه المرة هتلر ولا موسلينى . . ولم يفرق بين «محور» و «حلفاء» .

لقد تسببت الحرب فى فقره، كما تسببت الغارات فى ضياع ابنته أو موتها، وهذا هو مقياسه الجديد للحرب، فقد أصبح ينظر إليها من زاوية كارثته الخاصة .

وآثر الشيخ حافظ بعد هذه الأزمة أن يلزم داره، ويختفى عن أعين الناس لفترة طويلة، لم يعد يراه أحد وهو واقف أمام المسجد يوم الجمعة قبل الصلاة بساعتين مع محبى هتلر، يتكلمون فى السياسة، بل غالى فى ذلك وترك محل الخردوات لزوجته ولابنه سعيد يديران حركته، وكنت إذا ما دخلت البيت رأيته مطرقًا ساهمًا لا تفارق لفافة التبغ فمه، وبريق عينيه قد انطفأ منه الكثير، هذا بالإضافة إلى نحوله وتجهمه الدائم، وكلامه النادر . .

وهكذا اختفت مشاجرات خضرة، وقلت خلافاتها مع أخت زوجها، وفى الوقت بنفسه كانت حالته المالية فى تقدم مطرد، وأصبح دخول سعيد المدرسة الثانوية بالمجان معى أمرًا مؤكدًا .

ولكننا فى أحد الأيام فوجئنا بأمر غريب .

دخلت أمى وقالت لأبى : الشيخ حافظ شيحا يعرض داره للبيع .

فاهتم أبى بالأمر المفاجئ وقال: ماذا؟ الشيخ حافظ يبيع داره..؟

عجبًا..!! فقالت أمى: ومحل الخردوات أيضًا.

- هل وجد له دارًا أجمل، ومكانًا آخر أنسب لتجارته؟

- كلا، لا هذا ولا ذاك؟

- إذن فما السر فى ذلك؟

- سيغادر القرية كلية مع أسرته.

وفغر أبى فاه من الدهشة وقال: إلى أين؟؟ ما هذا الذى تزعمين؟

- يقولون إنه ذاهب إلى بلدة «القرشية» حيث أصل أسرته وأسرة والده الضابط المطارد.

- شىء غريب.. وتحول مفاجئ لم يكن يتصوره أحد.. أبعد هذه الإقامة الطويلة يتحول عن قريتنا..؟

وهمست أمى فى صوت خفيض:

- منذ أن فقد ابنته لم يحالفه التوفيق فى كثير من تصرفاته، لقد ترك أمور الأسرة لزوجته تتصرف كيف تشاء فى المحل والبيت.. إنه شىء محير يا عبد الدايم. هل أصيب بخلل فى عقله؟؟

فهز أبى رأسه فى إشفاق وقال :

- أبدًا، لكن يبدو أنه يرى فى البعد عن هنا، والانتقال من هذا المكان شيئًا من السلوى والنسيان، ولكن هيهات . . !!

- ولم كل هذا . . ؟؟ أمن أجل بسيمة؟؟ غدًا يرزقه الله بغيرها .

- كان الله فى عونه . . لكن، ألم تحاول زوجته أن تثنيه عن هذا العزم؟

إنه لا يقبل اعتراضًا ولا نقاشًا فى الموضوع على الإطلاق، بل قال لها : إذا لم تكف عن الحديث فى هذا الأمر، فسآخذ باقى أفراد الأسرة وأمضى بهم إلى القرشية وافعلى أنت ما تشائين . .

- وأخته؟؟ هل وافقت على الذهاب معه؟

- طعبًا، فمن أين تأكل إذا بقيت هنا . . ؟؟ ثم إنها قد تجد لها زوجًا هناك، فالأمل يظل حيًا دائمًا فى قلبها .

- مسكين حافظ . . كأنما ورث هذا الشقاء والتشرد عن أبيه .

- من عاشر القوم ثلاثين يومًا أصبح منهم، فغدًا يستقر به المقام هناك فى القرشية، ولعله ينسى . . ولا شك أن الله لن ينساه .

لقد حزنت لهذا الفراق المباغت حزنًا لم يشابهنى فيه أحد غير سعيد حافظ، لكن مما خفف وقع الألم عنى أننا اتفقنا على أن نقدم أوراقنا إلى مدرسة طنطا الثانوية الجديدة حتى نكون معًا . .

وما هى إلا أيام قلائل حتى سوّى الشيخ حافظ كل مشاكله، فباع البيت ومحل التجارة، ورتب مسألة انتقاله إلى «القرشية»، وفى فجر إحدى الليالى كان جمل أحد فلاحى القرية محملاً بكثير من المتاع، تتبعه قافلة الأسرة.

- أسرة الشيخ حافظ ميممون شطر مقرهم الجديد.. ولم يحاول سعيد أن يوقظنى فى هذه الساعة المبكرة كى يودعنى، ولعله أشفق مما سيكون فى هذا الموقف الصعب من آلام وعواطف ودموع، ولكنى علمت أن أبى وأمى كانا فى توديعهم، وأن أمى قبلت سعيد من رأسه، وقالت له: «مع السلامة»، بينما قال بصعوبة والدمع يغالبه:

- سلمى لى على سليمان.. وأرجو أن يزورنا قبل انتهاء العطلة.





الفصل الثامن

تطورت الأحداث العالمية تطوراً سريعًا . . . القوات المتحالفة تطبق على ألمانيا . . . سقوط كثير من المدن فى أيديهم . . . ثم . . . حصار شديد حول برلين . . . المدينة تتحول إلى أكوام من النيران . . . قوات الفوهور تدافع دفاع المستميت . . هتلر يناضل حتى الرمق الأخير . . . القوات الغربية والروسية تتسابق للاستيلاء على أكبر قدر من أراضى الأعداء . . انتحار هتلر بعد سقوط برلين .

قلت لسعيد ونحن خارجان من المدرسة الثانوية :

– لقد انهار مجد هتلر . . ووقعت ألمانيا فى قبضة الأعداء ، وبعد أن كانت «فوق الجميع» أصبحت فريسة تنهشها الذئاب ، وهوت من حالق لتقبل أحذية الغزاة ، وما أظن أباك إلا فى غاية الحزن والألم . .

– فعلاً يا سليمان . . . إنه يجلس ويناقش نفسه بصوت مرتفع

ويحتج ويثور، ويظل فى انتظار مخزن رقم ١٣ المزعوم، لكن يبدو أن هذا المخزن كان وهمًا.

- هل اعترف أبوك بهذه الحقيقة أخيرًا؟؟

- كلا، بل إنه يصر على أن المعركة لم تنته بعد.

- أية معركة بعد دخول الجيش الأحمر والقوات الغربية وقبضتهم على زمام الأمور؟؟ ألم يقرأ عن محاكمة مجرمى الحرب؟؟

- إنه لا يفوته شيء من هذه الأخبار، غير أنه قد قرأ فى إحدى الصحف خبرًا مؤداه أن هتلر ما زال حيًا، وأنه هرب إلى مكان مجهول استعدادًا للانقضاض مرة أخرى.. وأنه غير من شكله بعملية جراحية.. إلى آخر هذه الشائعات... وأبى يحاول بشتى الطرق الفرار من الحقيقة القائلة بأن هتلر قد هزم وقضى عليه...

- لنفرض أن هتلر ما زال حيًا، فماذا يعمل وليس معه جيش ولا شعب ولا قادة؟؟؟ إن علماء ألمانيا ومفكريها أصبحوا هم أيضًا ضمن الغنائم والأسلاب، وقد سيقوا إلى موسكو ولندن ووشنجتون.

- الحق أنه شيء يذهل العقل... أهكذا يصعد هتلر إلى أوج المجد ثم يهوى مرة واحدة إلى الحضيض؟؟ لقد كنت أتمنى مثل والدى أن تدور الدائرة على الإنجليز.

- دعنا من هذا، لقد انتصر الحلفاء وانتهى الأمر. . . المهم عندنا هو هذا السؤال: هل ستضيع أصوات الأمم الضعيفة فى خضم أغانى النصر وأهازيج السلام؟ وهل ستنطفئ أضواء الأمل بين أقواس النصر الحمراء والخضراء؟؟

- إن أبى لا يثق فى الإنجليز مطلقًا، ويؤكد أنهم ليسوا أهلاً للصداقة والصدق وتقدير إرادة الشعوب وحرياتها. .

- أتكون إذًا تلك المؤتمرات والتصريحات البراقة لمجرد التخدير والتغرير؟؟

- هذا ما أعتقده أو يعتقده أبى.

- إذًا سنظل أسرى لعنة الاستعمار الغربى حقبة أخرى.

- وسنبدأ من جديد ثورات ومظاهرات وإراقة دماء. .

- وستكون أنت مسرورًا بذلك لأنك تعتبر يوم الإضراب عيدًا.

- طريق الحرية طويل. . طويل جدًا وممتلئ بالشوك والآلام والتضحيات.

- وهل يبلغ به الطول حتى يمتد منذ عام ١٨٨٢ -يوم الاحتلال البريطانى- حتى الآن؟؟

- هو أطول من ذلك.

- إن الحملة الفرنسية لم تتجاوز حقبة قصيرة . .

- كان لها ظروفها وملابساتها . . وبالإضافة إلى ذلك فالاستعمار الإنجليزى أثقل ظلاً، وأدهى خطة . . .

ووصلنا إلى «القهوة التجارية» فى ميدان البلدية «بطنطا» حيث كانت تقف العربة التى تقل سيعدًا وزملاءه يوميًا من «القرشية» إلى «طنطا» وبالعكس . ولقد اختار الشيخ حافظ لابنه هذه الوسيلة بدلاً من أن يتركه ليعيش غريبًا وحيدًا فى طنطا، وكان الشيخ حافظ عنده من المبررات ما يؤيد وجهة نظره هذه؛ لقد كان فقدان بسيمة مدعاة لحرصة الزائد على سعيد، والعمل بكل الطرق والوسائل على إراحته والمحافظة عليه، وتهيئة كل ما يريده . . . لقد بلغ هذا الحب لدرجة المغالاة والهوس، فكثيراً ما كان الشيخ حافظ يأتى مع ابنه إلى طنطا لا لشىء إلا للاطمئنان عليه، والبقاء بجواره أكبر مدة ممكنة، بل كان ينتظره أحيانًا على باب المدرسة حتى إن الصلة بينه وبين بواب المدرسة -«عم فرج»- توثقت على مر الأيام، فكانا يتبادلان لفائف التبغ، والتحدث فى الخصوصيات والأسرار العائلية، وأكثر من مرة كان أبى يأتى لسائق العربة ويوصيه بأن يهتم بماكينة العربة وتجديد آلاتها وبالحرص الزائد فى أثناء القيادة . . .

أجل، لقد كانت مأساة بسيمة ناقوسًا دوى فى أذن الشيخ حافظ وترك جراحًا غائرة فى نفسه، فأصبح شديد الوله والحب

بوحيده سعيد، وكان سعيد نفسه يجد الشيء الكثير من الجرح والخجل إزاء تصرفات أبيه . . . لكن ماذا يفعل؟ لهذا لم أعجب حينما قال لي سعيد وهو يهم بركوب العربة أمام القهوة :

- إن أبي سيحضر إلى طنطا معي في الغد لشراء بعض البضائع، وطبعًا غدًا الخميس والدراسة نصف يوم، فهل ستكون معنا؟؟

- إن شاء الله . . . مع السلامة .

- الله يسلمك .

وانطلقت العربة به نحو «القرشية» كالمعتاد . . .

أما أنا فقد آثرت أن أعيش في طنطا؛ لأن المسافة بينهما وبين قريتنا بعيدة، ولأن المواصلات صعبة ومتأخرة في الوقت نفسه . . .

وقت لاقيت في حياة القرية ألوانًا كثيرة من المتاعب . . . وجدت نفسي لأول مرة حرًا أتصرف كيف أشاء، وفي جيبي المصروف الشهري أنفقه على أي وجه أريد، واللعب أو الاجتهاد أمرهما متروك لي وحدي، لكنني ضقت ذرعًا بهذه الحرية وأبغضتها بغضًا لا مزيد عليه، كنت أريد أن أتخلص منها بأي شكل، لقد شعرت بهذه الحرية وكأنها شبح مخيف أمامي، وسهام تغرس في جسدي، فهل كان هذا لأني لم أكن كفؤًا بعد لأتحمل

هذه التبعة الملقاة على عاتقى؟؟ وهل ما أذكره فى هذه الفترة لمحات باهتة خاطفة لكنها ذات دلالات غير خافية . . .

أذكر أننى ذهبت مرة إلى دار الخيالة لمشاهدة قصة «طاقية الإخفاء» . . . ودخلت والأضواء مطفأة والناس ساكتون لا أكاد أتبين أشباحهم، وكان مرشدى أحد العمال المشرفين على نظام الدار، ويظهر أنه كان جافًا غليظًا، ولهذا السبب وضعوه فى أحط درجات الدار، ورغم أنه كان يشعل بعض عيدان الثقاب لينير لى الطريق إلا أننى كنت أصطدم بهذا أو بذاك، ولا أكاد أخلص من مقعد إلا ليصدمنى مقعد آخر، وفى النهاية لم أجد مكانًا فدفعنى الرجل إلى ركن قصى وقال لى: «قف هنا . . . سترى الشاشة من هنا؛ لأن كل الأماكن مشغولة».

لم يسبق لى دخول دار الخيالة من قبل، لهذا اعتبرت نفسى حسن الحظ نظرًا لأنى أقف بجانب الشاشة تقريبًا . .

وكانت الصور المتحركة والأصوات المسجلة، وصيحات بعض المهرجين من آن لآخر، جعلتنى لا أكاد أفهم شيئًا من الرواية لاختلاطها، ورويدًا رويدًا استطعت أن أتبين الجالسين، وتركت الشاشة لأصعد بصرى فى الجالسين فوق وتحت وأمام وخلف، وكنت أعجب أشد العجب من هؤلاء الناس الذين تبدو عليهم آثار النعمة والثراء، ومع ذلك فقد آثروا الجلوس فى الخلف عليه فكانت

منى التفاتة لأجد مكانًا شاغرًا، فآثرت الجلوس عليه لأن طول الوقوف قد أتعب ساقى، وما إن هممت بالجلوس حتى وكزنى شاب عن يمينى وعن شمالى، وقبل أن أنطق بكلمة وجدت نفسى ملقى حيث كنت من قبل، وبصورة مزرية جرحت كبريائى وسمعت أحدهم يقول:

- أصل الحكاية فوضى... !!! إنت فاكر إنه مكان من غير أصحاب؟؟

ولم أكن أعلم أن من حق أحد أن يحجز مكانًا لزميل له قد يأتى أو قد لا يأتى، وخصوصًا بين رواد الدرجة الثالثة، لكنى أبقيت بعد ذلك...

وخرجت من «الرواية» وأنا فى غاية النكد الحزن والدمع يكاد يطفر من عينى وكأنى قد ارتكبت وزرًا كبيرًا. هل كنت آسفًا من أجل الخمسة والعشرين مليمًا التى دفعتها؟؟ أم من أجل الوقت الذى أضعته فى المشاهدة ولم أذاكر فيه؟؟ أم من أجل المعاملة المزرية التى لقيتها من العامل الفظ والشابين اللذين قذفا بى بعيدًا...؟؟ أم من أجل وجودى فى دار الخيالة للمتعة والانبساط، بينما قد تكون أمى تشكو مر الشكوى فى ذلك الوقت من آلام قلبها، أو أبى يقضى ليله فى الغيط ليزرع أو يسقى، أو ليلى ومحمود ينامان وفى أيديهما كسرة الخبز ويحلمان بالحلوى والفواكه؟؟

لعل أسفى وتأنيب ضميرى كان من جراء هذه الأسباب مجتمعة . . . ورغم الألم الشديد الذى كنت أقاسيه لا ألبث حتى أجد فى نفسى حنينًا غامضًا وشوقًا جارفًا يرغمنى على معاودة الذهاب مرة ثانية لمشاهدة الروايات، فقد كنت أجد فى دنياها عالمًا مشوقًا يسلب لبى ويسيطر على خيالى. وكنت فى الوقت نفسه أتغلب بها على مشاعر الغربة، والترفيه عن النفس أمر مهم بعد المذاكرة، وكنت ألجأ إليها فى بعض الأحيان هربًا من زميلى الأزهرى الذى يسكن معى، فقد كان ينتحل الأسباب الواهية، والخلافات البسيطة، حتى يطلق لسانه وشتائمه العنان، فيعرقل بذلك مجهوداتى الدراسية، ويتسبب لى فى انحراف المزاج، وتسويد عشيتى المتواضعة . . .

وفى أثناء ذلك عرفت الكثير عن الطلبة الغرباء ذوى السلوك المنحرف وعلاقاتهم الشائنة ببائعات الهوى، وعن سهراتهم الصاخبة حيث الحشيش ومختلف ألوان الخلاعة، وكنت أحاول جاهدًا أن أبتعد عن هذه الأوساط الموبوءة، وكان الشعور بالإثم الموهوم الذى لازمنى ذا فائدة مهمة فى هذه الناحية فكان أقل انحراف أو خطأ بسيط يعرضنى للنكد وسياط الضمير القاسية . . . ولا مناص من الاعتراف بأنى كنت أشعر بشىء من الكبت لكنه كان أخف فى مقدور أبى أن يتحمل نفقات أخرى عامًا بسبب

الرسوب، لذلك كان مجرد التفكير فى عدم النجاح يملؤنى بالفزع والرهبة، فأنكب على الاستذكار ولا أترك الكتاب إلا إلى ملعب كرة القدم التى كنت أعشقها قبل أن أنضم إلى فريق المدرسة، أو إلى بعض روايات الشاشة.

وكثيراً ما فكرت فى سعيد والراحة التى ينعم فى ظلاها، فهو يبيت مع أسرته هانئًا ناعم البال، لا يتعرض لهذه الوساوس والآلام التى تشاطرنى حياتى، ولا يجد المشقة التى أجدها أنا فى إعداد طعامى الذى كثيراً ما كنت أتكاسل عنه وأكتفى «بالطعمية» أو الفول والطحينة والجبن..

لقد كان يحق لى أن أحسد سعيداً...

ولا أستطيع أن أنسى يوم أن كنت أذاكر فى مسجد السيد البدوى وفى غمرة الازدحام التى تلم بالمسجد من آن لآخر، تحسست جيبى فلم أجد حافظة نقودى...!!!

ولسوء الحظ كان هناك سوء تفاهم بينى وبين زميلى الأزهرى، لذا قضيت يومين كاملين آكل الخبز البلدى الجاف مغموسًا بالملح دون أن يسمح لى كبريائى بالاقتراض منه، وفى الوقت نفسه لم يحاول هو بدوره -رغم علمه بما حدث- أن يعطينى شيئًا من المال.

وكـان سـعيـد هو الـذى أنجـدنى من هذه الورطة. . لقـد تذكـرت التجربة القاسية التى مرت بعمى وقدرت ظروفه. .

●●●

بعـد انتـهـاء الدراسـة يوم الخـمـيس، كـان الشـيخ حـافظ فى انتظارنا، وكـان كـعـادته يتـجـاذب أطراف الحـديث مع «عم فـرج» البواب، فتعلقت بيمينه وسعيد بيساره، بينما هو يتنقل بنا من شارع «الخان» إلى شارع «البـورصة»، وينتهى من زيارة «البدوى» كيما تتجه لزيارة سيدى «عز الرجال»، وفى أثناء ذلك يشترى الشيخ حافظ مـا يلزم محله من البضـائع، ويبـدو أن حـركـة الإتجار فى القـرشية كـانت أوسع مدى من قـريتنا؛ لأن كـمية البضاعـة التى اشترها كانت أكبر مما مضى، والأوراق المالية الكثيرة أصبحت لافتة للأنظار فى حـافظة نقوده، وكـان الشـيخ حـافظ عطوفًا لدرجـة أنه أخـذنا إلى مطعم فـخم حـيث قـدم لنا وجـبة شـهـيـة من اللحم والخضار، ولم يكتف بذلك، بل قادنا إلى القهوة «التجارية» حيث جـاد علينا ببعض المشروبات الحلوة، ومع ذلك فـقـد قال الشـيخ حافظ:

- اسـمعوا يا أولاد. . . إن الجلوس فى المقاهى مفسـدة، ومضيعة للنقود والوقت، فلا تقربوها ما استطعتم. . .

وهززنا رءوسنا تأمـينًا على كـلامـه، ولم أكن فى حـاجـة إلى

نصيحته هذه لأن ما معى من النقود القليلة لا يكاد يكفينى، واستطرد الشيخ:

- وأيضًا ابتعدوا عن السياسة... فأنتم ما زلتم فى سن مبكرة لا تسمح بفهم مراميها، وإدراك أساليبها الملتوية، وسيكون لكم فى مستقبل الأيام ما ينتظركم من الأعمال الكثيرة.

ولست أدرى هل زهد الشيخ حافظ فى السياسة بعد هزيمة هتلر وانتحاره، أم أن طول الخبرة والتجربة جعله يحمل فكرة سيئة عن جدوى السياسة فى مصر وعن زعمائها الذين لا هم لهم غير الخطب والتهريج الرخيص.. وألقيت نظرة على الشيخ حافظ فرأيت الجريدة فى جيبه وقد ظهر جزء منها، ورد سعيد فى جرأة مستحبة:

- كيف لا نهتم بالسياسة ونحن شباب الغد، وأشبال الوطن؟

فضحك الشيخ حافظ، ولعله شعر بفيض من السعادة الداخلية التى انعكست على ابتسامته العريضة وقال:

- هذا الكلام من أثر الإنشاء والخطب التى يلقنونكم إياها فى المدارس، لكن إذا ما كبرتم وأدركتم الحقائق، صدمتكم أشياء محزنة.

- إن حب الوطن من الإيمان يا أبى.

- أنا لا أمانع فى حبك لوطنك، فهذا واجب مفروض. لكن الطيش والتهور هما ما أخاف عليكم منهما . . . تذكر المعاملة التي كان الشرطة يعاملونكم بها فيفرقون مظاهراتكم بصورة قاسية . . .

- أتقصد أنهم كانوا يغلظون علينا، ويطلقون الرصاص نحونا أحيانًا؟

- فتفرون كالخراف الصغيرة المذعورة . .

قالها الشيخ حافظ وهو يقهقه، لكن سعيدًا اعتدل فى مكانه وبانت عليه سمات الرزانة والجد، وقال:

- قد يعتدون علينا، فيصيبون البعض أو يقتلونهم . . لكن يكفينا فخرًا أننا نموت شهداء من أجل الحرية . . .

- لا يأخذنك الحماس هكذا يا سعيد . . . ولا تنسَ أن رجال الشرطة مصريون مثلك، وقد يكونون أشد وطنية منك، ولعل لهم أبناء بينكم، ولكن الواجب قد يحتم عليهم بعض التصرفات القاسية يا ولدى.

- كل ما أعرفه أنهم أدوات للظلم، وأعوان للحكام المستبدين.

- الوزير الأكبر يا بنى يقع على عاتق الاستعمار فهو الذى أفسد حياتنا وأثار الشك بيننا، وبذر بذور الفتنة بين طوائف الشعب؛

كل ذلك لكى ينقل الصراع الذى بيننا وبينه إلى عراك شخصى وشجار محلى.

ويبدو أن هذا الكلام لم يكن على هوى سعيد، فأخذ يعبث بكتاب فى يده ويتصفحه دون أن يقرأ أو يعى شيئًا فيه، بينما التفت الشيخ حافظ إلىّ وقال:

- وأنت يا سليمان... ما رأيك فى هذا الكلام؟

فلم أجد ما أجيب به، لكنى قلت من باب المجاملة:

- سنستمع لنصائحك ونعمل بها إن شاء الله.

- إنك أهدأ من سعيد، وألين جانبًا، وأعقل فى تصرفاتك..

ونظر إلىّ الشيخ حافظ نظرة فاحصة وقال:

- ماذا بك يا سليمان.. أتشكو من ألم ما؟

فتحاملت على نفسى محاولاً إخفاء ما أحسه من ألم وقلت:

- لقد شعرت بمغص خفيف منذ الحصة الثانية، وأهملته لعلة يكون شيئًا عابراً وينتهى، لكن يظهر أنه قد ازداد قليلاً.

والحقيقة أنى كنت فى هذا الوقت بالذات أشعر كأن مدية حادة تمزق فى جنبي اليمين، وكانت آثار الألم مرتسمة على محياى، مما دعانى للانطواء على نفسى وعدم الاشتراك فى الحديث الذى كان

يجرى بين سعيد وأبيه، ولقد حاولت مغالبة الآلام حتى يسافر سعيد وأبوه، إذ ليس من اللائق أن أتركهم وأمضى لمسكنى وهم فى حكم الضيوف، ولم يقم الشيخ حافظ قبل أن يحضر لى كوبًا من القرفة زاعمًا أنها ستقضى قضاء تامًا على كل ما أحس به من مغص.

وعند انصرافه همس فى أذنى قائلاً:

- اسمع يا سليمان . . . حافظوا على أنفسكم حتى لا تسببوا لأهليكم المتاعب والأحزان، وحتى يرضى الله عنكم ويكتب لكم النجاح . . . أخوك سعيد متحمس ومندفع ولا يقدر العواقب كثيراً، فكن بجانبه دائمًا وحاول تهدئته . . . إنه صديقك ويسمع كلامك ولا يرد لك رجاء . .

كان الشيخ حافظ يتكلم فى إشفاق ووجل، ويبدو أنه كان يستحضر آنذاك فى ذهنه صورة «بسيمة» المسكينة، ومأساتها التى تنفطر لها القلوب والتى لا تفتأ تطالعه بأشباحها ليل نهار حتى بانت تجاعيد الشيخوخة فى وجهه وجبهته، ولم يعد خافيًا أنه قد تغير خلال العامين المنصرمين تغيراً يضارع عشرات السنوات . . . لقد كانت تجربة بسيمة شاقة أليمة، وهو يحاول جاهداً الإفلات من وطأتها، لكنها تطارده وتلح فى مطاردته فيدفعه ذلك إلى المبالغة فى حبه لسعيد، وتحذيره تحذيراً متصلاً من كل خطر متوهم . . .

وعـدت إلى مـسكنى والمغص على مـا هو عليـه من الحـدة والتمادى . .

لم أستطع أن أتناول أكلاً ولا شرابًا، ولم أتمكن من النوم لما أقاسيه، وأخذت أتلوى وأتقلب فى فراشى، وأتأوه تأوهات مكتومة، أما زميلى الأزهرى، فقد كان يجلس فى مقعده يقرأ بصوت مرتفع يعلو على بعض الاستغاثات التى تفلت منى . . . ولما ازدادت شكايتى واستغاثتى، التفت إلىّ فى تثاقل وقال :

- هل أحضر لك شربة ملح إنجليزى؟

- إنها لا تنفع فى علاج المغص . وعاد الزميل-سامحه الله-إلى ما كان فيه من مذاكرة بصوت مرتفع وكأن هذا الإنسان الذى يصرخ-أنا- يوشك أن يلفظ أنفاسه فى وادٍ آخر، وليس معه فى حجرة واحدة . . .

لقد ثارت مشاعرى إزاء هذا الموقف الجاف من زميلى لمجرد بعض الخلافات الشخصية البسيطة، وشعرت بآلام الوحدة والغربة فى هذا الوقت بالذات أكثر من ذى قبل، ووجدت ميلاً جارفًا للبكاء . . .

ترى لو كنت بين أبى وأمى وجدتى فى هذا الوقت أكنت أحس ما أحس به من آلام نفسية فوق الآلام العضوية التى تكاد تدفعنى

لأن أقذف بنفسى من الشرفة؟ وبلغت أصوات استغاثتى مسامع الجيران، فتضايق زميلى وقال:

- ألا يكفى صراخًا؟؟ أتريد أن تفضحنا هنا؟؟ وغلى الدم فى عروقى وغامت عيناى بالدموع وأوشكت أن أمسك بإبريق المياه الفخارى الموضوع بجانبى فى النافذة وأقذفه به، لكنى تمالكت نفسى، وقلبى يضرع إلى الله أن يخفف ما بى من أوجاع . . .

يا للضيعة . . . !!! إذًا من الممكن أن أظل أتلوى هكذا حتى يقضى على . . .

وكان يسكن الحجرة المجاورة لنا عسكرى بوليس مع زوجته، وسارع الاثنان لزيارتى والاطمئنان على حالتى، قال الرجل:

- لا بد من عرضك على طبيب حالاً.

طبيب؟؟؟ من أين لى المبلغ الذى أدفعه للطبيب. إنها لم تحدث لى طول حياتى، بل إن أمى تشكو من آلام قلبها منذ سنوات ومع ذلك فلم نفكر فى إرسالها إلى الطبيب، ولعل الرجل أدرك ما أنا فيه من حيرة فقال:

- نستطيع أن نطلب لك عربة الإسعاف وننقلك إلى المستشفى الأميرى . . .

لكن زوجته بادرت قائلة:

- لا . . . المستشفيات المجانية كلها لا تخدم بذمة ولا إخلاص . إنى لأفضل الموت على الذهاب إليها . .

- لكنها موجودة لعلاج الناس والسهر على راحتهم .

- لست مجنونة حتى أفرط فى نفسى، وألقى بها بين أيديهم .

ثم التفتت إلىّ وقالت :

- اسمع يا سليمان، إذا كنت فى حاجة إلى نقود فنحن تحت تصرفك حتى تستدعى والدك . . . ما عليك إلا أن تأمر وسننقلك فوراً إلى أحد المستشفيات الخاصة لتوقيع الكشف عليك . .

كل ذلك وزميلى واقف ساكت فى بلادة وبرود عجيبين، لكن عندما وجد أن المسألة دخلت فى طور جدى ترك بروده وبلادته وسارع بالاتصال بوالدى «تليفونيًا»، وأحضر عربة لنقلى إلى الطبيب .

ثم حولنى الطبيب فوراً إلى المستشفى الأمريكانى لإجراء جراحة الزائدة الدودية .

●●●

أجريت العملية الجراحية بنجاح، وأفقت من أثر التخدير لأرى بجانبى أسرتنا كلها وهم يبكون . . أبى . . أمى . . ليلى ومحمود

الصغيران، حتى جدتي وجدتها تمرر يدها كالمعتاد فوق جبيني بحنان، ولعلها كانت ترقيني وتخاف عليّ من الحسد نظرًا لنجاح العملية . .

وعشت أسبوعين غارقًا في الزيارات، والدعوات والتمنيات الطيبة بالشفاء العاجل . . . وكان سعيد في غاية التأثر والاهتمام فلم يكن يمر يوم دون أن يزورني فيه .

وخرجت من المستشفى سليمًا معافى لأرى خطابًا من عمي ينتظرني في المدرسة .

كتب عمي يقول :

ولدي سليمان :

شاءت الأقدار أن أقاسي الأهوال في تلك الفترة الحرجة من حياتي، فلقد تقلبت بين مختلف الأعمال منذ أن أتيت إلى القاهرة، وأخذت أتنقل بين المخابز ومقاولي العمارات كعامل بسيط بأجر يومي لا يتعدى بضعة قروش، وكانت لقمتي مغبرة تمامًا مثل وجهي وملابسي وشعر رأسي من أثر التراب، فتعلمت المثابرة على العمل ساعات طويلة في حر الشمس اللافح، ولم أكن أجد من الاستقرار ما يضمن لي الحياة الهادئة المطمئنة، بل كنت معرضًا للطرد من وقت لآخر . . كان الطريق شاقًا، والبداية قاسية منفرة، لكني كنت أبني مستقبلي من جديد . . . أو بمعنى آخر كنت أبعثه

من العدم . . . ويبدو يا ولدى أن العمل الشاق قد أنسانى الترف والخلود للمتعة . . . فمن ناحية السهر لم أكن أجد فى نفسى القوة لكى أسهر ساعة أو ساعتين، بل كان الانهماك الذى أقاسيه يسلمنى لنوم عذب جميل، فتذكرت ماضى حينما كنت لا أقرب النوم إلا إذا أكلت هذا وشربت ذاك، وأظنك تدرى مغزى ما أقول . . .

إن رغيفًا واحدًا بداخله قليل من الفول والزيت والملح لكاف جدًا الآن أن يسد جوعى . . . واستحوذ الحصول على رزقى اليومى كل تفكيرى، واعترضتنى مشكلة الملابس والحذاء بعد أن أبلاهما العمل ومرور الأيام.

وجاء رمضان يا سليمان، فتذكرت أمواج الرحمة والروحانية التى كانت تغمر بلدنا الصغير كل عام . . وتذكرت الأطفال وهم يجرون فرحين عصر آخر يوم من شعبان وهم يرددون فى صوت منغم حبيب «الصيام بكره يا عباد الله . . .» والمسجد الكبير وهو مكتظ بالفلاحين، وأصوات الابتهالات والتكبير والتسبيح تشيع فيه جوًا عذبًا أخاذًا والأضواء الغازية قد تضاعفت فيه، والمسحراتى وهو يجوب أنحاء القرية بين تهليل الكبار والصغار، وتذكرتك أنت وقد كنت صغيرًا تخرج من البيت بعد أن تهب من نومك الذى ما زال متعلقًا بأجفانك، وتحاول أن تفتح عينيك ببطء، حتى ترى المسحراتى وطبلته فى ضوء لمبات الغاز ذات الشعاع الضئيل . . .

لقد حرمتنى المدينة بما فيها من ضوضاء وأضواء هذا الجمال الفطرى الساذج، وتلك الصور الحية البديعة التى عشت بين ظهرانيها طويلاً . . لذلك كنت آوى إلى أحد المساجد أقطع الوقت بالدعوات والصلوات مستمسكًا بالصبر، لكن أعصابى انهارت يوم العيد، انهارات لأنى شعرت يومذاك بأنى غريب فعلاً . . الناس فى تهنئات وعناق وتزاور . . أما أنا فكنت كالنبتة الشائكة وسط حديقة جميلة لا تكاد تقترب منها يد، أو يدنو منها زائر . .

صحيح أنى استطعت الحصول على ملابس وحذاء جديدين من جراء التضييق والتقتير الشديدين اللذين أخذت بهما نفسى أخذًا لا هوادة فيه ، لكن يبدو حقيقة أن العيد ليس لمن لبس الجديد وتعطر وترك العمل . . .

ومع ذلك فقد كنت أشعر ببعض الغبطة لأنى أعمل فأجد ما أقتات به ولا أمد كفًا لأحد كى أستجديه . . كان هناك شىء اسمه الكرامة يرافقنى أينما رحلت . . . وكان هذا الشىء–أو الرمز– يمدنى بطاقات هائلة من الصبر والسعادة والأمل، وقد تظن يا سليمان أن الكرامة بالنسبة لإنسان مثلى يعيش بين التراب والأحجار، ويزاول الأعمال المنحطة، قد تظنها شيئًا من الوهم والخداع، ولكن لا يا سليمان . . . إنى أوصيك بأن تستمسك بمثل هذا الرمز–أعنى الكرامة–فستجد منها عزاء أى عزاء، وعونًا على تحمل الشدائد أى عون . . .

وقد تعجب لمَ لا أبحث لنفسى عن عمل أحسن منزلة مستخدمًا فى ذلك علمى المَتواضع -كراسب كفاءة- ولكن أقول لك إن عدم اللياقة الطبية عقبة كأداء أمامى ولم أستطع التغلب عليها بالوسائل غير المشروعة؛ لأنى لم أكن أحمل من النقود غير ثمن القوت اليومى، ولأنى أيضًا لم أكن أستسيغ ذلك لأنى ناقم على مثل هذه الوسائل، بل حاقد عليها حقدًا شديدًا، فلا يصح إذًا أن أشارك فيها، وألغ فى إنائها القذر.

وفى هذا الشهر كتب الله لى بعض الهدوء والاستقرار إذ استطعت الحصول على عمل بسيط فى وزارة الدفاع الوطنى قسم المخازن، فعينت خفيرًا لبعض المهمات بأجر يومى يبلغ اثنى عشر قرشًا، وأقوم بحراسة نصف يوم، أسبوع مساء، وأسبوع نهارًا - وأعتقد أن هذا نهاية المطاف بالنسبة لى، والحمدلله على هذا، وكل ما آمله هو أن يرزقنى الله بزوجة صالحة، تتناسب مع سنى التى تزحف نحو الشيخوخة، لعلها تؤنس غربتى ووحدتى، فلن أستطيع يا سليمان أن أعيش مترهبًا أكثر من ذلك. . . وتستطيع منذ الآن أن تراسلنى على هذا العنوان: قلعة الكبش شارع الطولونى رقم «. . .» ودعواتى الصادقة لك بالتوفيق والنجاح. . .

●●●

الفصل التاسع

كانت العطلة الصيفية فى هذا العام جميلة . . لم تكن تستمد جمالها من استمتاعى بقضائها فى إحدى المدن الشاطئية ، فإن ذلك أمر محال بالنسبة لى ، بل كان سر جمالها ناتجًا عن نجاحى وسرورى بذلك ، فلقد تكلل جهودى -مثل سعيد حافظ- بالتوفيق ، ورغم المضايقات ورغم المرض الذى عانيت منه فى طنطا ، ورغم تفكيرى فى مشاكل أسرتنا التى لا تبرح ذهنى أبدًا ، وكأنها جزء من دروسى فى المدرسة .

وكنت أقرأ ذات يوم عن مشكلة الفراغ عند الشباب ، وكيف يتغلبون عليها فى بعض البلاد الأجنبية ، فيلجئون إلى العمل المفيد الشريف ، وأخذت أدقق النظر فى صور ببعض الشباب الجامعيين وهم يقومون بالخدمة بعض ساعات فى دور الحضانة أو فى المقاهى أو إلقاء بعض الدزوس الخصوصية . . . فكرت جديًا فى الأمر ، وذهبت إلى والدى وكانت أمى معه ، فقلت :

- أنا فى حاجة هذا العام إلى ملابس جديدة، وأعنى أن أودع عهد السراويل القصيرة وأبدأ عهد السراويل الصوفية الطويلة؛ لأنى صرت رجلاً . . . أليس كذلك يا أبى؟؟

- سيفرجها الله يا سليمان . . . لم يزل أمامنا ثلاثة شهور على افتتاح الدراسة . . .

- وهل عندك مانع من أن تفكر فى الموضوع الآن حتى آخذ منك عهدًا على ذلك؟

- فتدخلت أمى وقالت فى عصبية طارئة لما فاجأها داء القلب اللعين:

- دع الأمر لله ولا تحمل نفسك الهموم من الآن وسنهيئ لك كل ما تحتاجه.

وأكمل أبى حديثها كأنه يساعدها حتى تزول عنها نوبة الألم:

- طبعًا . . . سنجهز لك كل ما تحتاجه ولو جعنا وعرينا . . إن طلباتك مقدسة . .

- يا أبى اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا . . . وأنا أعلم أن الحالة المالية ليست على ما يرام، فلماذا لا نجد حلاً لهذا الموضوع منذ الآن؟؟

- ماذا تريد أن تقول؟؟

- ماذا لو التحقت بالمحلة الكبرى لأزاول أى عمل حتى تنقضى هذه الشهور الثلاثة الباقية على استئناف الدراسة؟

فرد فى دهشة :

- المحلة؟؟ لا . . لا . يا سليمان أبعدنا الله عنها . . فقلت من فورى :

- وهل حرام أن أستغل وقتى وأكسب بعض الجنيهات لأشترى بها كتبى وملابسى فأخفف عنكم بعض الضغط ، فضلاً عن أن نصف الديون ما زلنا فى حيرة من أمرنا ولا ندرى كيف نقوم بتسديدها ، ومرسى أبو عفر يلح علينا ويهدد برفع الأمر للقضاء . . .

فتململ أبى فى مكانه دون أن يجيب ، بينما صاحت به أمى وهى تغالب المرض والآلام .

- كيف تسكت على سماع هذا الكلام يا عبد الدايم؟ هل تترك ابنك للآلات والماكينات التى لا ترحم كى تصدمه واحدة منها فتقضى عليه ، أو ترجعه إلينا بعاهة مستديمة وتضيع كل تضحياتنا هدراً فنفجع فى أملنا؟؟

فسارعت بالرد قائلاً :

- يا أمى لا يغنى حذر ، ثم إن أولاد بلدنا الذين يشتغلون فى المحلة الكبرى ليس فيهم فرد واحد حدث له ما تتخوفين منه . .

- اسمع كلام أمك يا سليمان تنجح فى حياتك . . . اعمل معروفًا يا ولدى واترك هذه المسألة ، ولنا ولك رزق على الله .

وسكتت أمى قليلاً كى تسترد أنفاسها اللاهثة ، وقالت :

- هل نسيت حكاية بسيمة؟؟ كان الله فى عون أبيها وأمها .

وأخذت ألح طيلة أسبوع كامل على أمى لعلها تقبل ، لكن دون جدوى ، إذ كانت مأساة بسيمة هى الدليل الذى يلوحون به فى وجهى دائمًا . . وأدركت أن أبى يميل إلى الحصول على ما أشاء من ملابس لكنه لا يستسيغ الوسيلة التى أتوسل بها إلى ذلك . . .

ووجدتنى مدفوعًا لأن أقرر أمرًا . . .

إن أبى يمنعنى من الذهاب إلى المحلة حفظًا لكبريائه ، ومراعاة للتقاليد التى لا تبيح الذهاب إلى المحلة إلا لمن فقدوا مصدر الرزق . وأمى لا تريدنى أن أفعل ما أشاء لخوفها على حياتى . أما من ناحية والدى فأنا لا أسمح أن أنطوى تحت كبريائه المزعوم الذى لا يستند فى نظرى على أساس سليم . هل أذهب إلى المدرسة فى العام الجديد بملابسى الرثة التى لا تشرف؟؟ إنه من الجور أن أثقل ميزانية والدى الواهية وأرغمه على شراء ما يلزمنى . . أما من ناحية والدتى فإنها تكون مخلصة ومصممة على المحافظة على من خطر الآلات والماكينات ، فلها التقدير على ذلك ، وحياتى ملك لى ، وسأعيشها بحذر واهتمام ، فى الحدود التى تحقق لى أطماعى

المتواضعة فى هذه العطلة، لهذا عولت تعويلاً لا رجعة فيه على السفر إلى المحلة الكبرى . .

ولم يكن من الصعب أن أتحايل وأبحث عن بعض القروش القليلة التى توصلنى إلى هناك، وتقوم بأودى لفترة قصيرة. وقصدت من فورى إلى أحد معارفنا ممن يتسنمون مركزًا مرموقًا فى الشركة، فلم يدخر وسعًا فى إلحاقى بعمل مريح، ولم يدم هنائى فى العمل يومين أو ثلاثة على ما أذكره، إذ فوجئت بأبى يدخل علىّ، والغضب يطل من عينيه، ولم أصح من المفاجأة إلا على صفعة ترن على وجهى وأبى يقول :

- أهذا ما علموه لك في المدرسة عن طاعة الوالدين؟؟ إذا لم تكن المدرسة قد أتمت تربيتك فإنى سأتكفل بها بنفسى . . . تكلم . . . انطق . . . من أذن لك بالمجىء إلى هنا يا مغفل .

كا ن أبى فى ثورة عارمة لا أستطيع الوقوف فى سبيلها، وكان له منطقه الخاص الذى لا يمكن أن يتزحزح عنه ، بينما لى منطقى الذى اقتنعت به اقتناعًا كاملاً، لهذا آثرت السكوت حتى تخف ثورته، ويعود إلى حالته الطبيعة . وتلفت حواليه ليرى رداءة الحجرة التى أسكن فيها، ويرى أثاثها البالى القذر الذى يتسابق عليه البق والبراغيث، ثم نظر أخيرًا إلى زملائى الأربعة ولم يكونوا غريبين عنه لأنهم من فلاحى قريتنا، وقال فى حدة :

- صحيح . . . لم يكن ينفعك غير الغيط والجاموسة والحمار . . . إننا نشقى من أجلك، ونحاول أن نخلق منك إنسانًا موظفًا محترمًا، لكنك تصر إلا أن تقذف بنفسك في الأقذار .

واقترب منى وهو ما زال في ثورته، وجذبنى من ذراعى وهو يقول :

- هيا أمامى إلى البلد يا عديم الأدب . . .

●●●

أفهمت أبى بعد أن هدأت ثورته قليلاً عن قريبى الذى ساعدنى فى التحاقى بالعمل ، ورويت له ما حدث بالتفصيل وأخبرته عن الكشف الطبى والاستعدادات التى بذلت فيها مجهودًا كبيرًا، وأخذت أضرع إليه وأقبل يديه وأهون له الأمر بكل ما أوتيت من قوة حجة . . لكن دون جدوى .

وعندما ذهبنا إلى قريبى لكى يشكره على مجهوده، ويستأذنه فى أخذى، تحولت الأمور إلى صفى . . كان قريبى هذا واسع الأفق مدركًا لحقائق أمورنا، لم تغب عنه وجهة نظرى التى لا غبار عليها، فابتسم لوالدى وقال :

- وماذا فى ذلك يا عبد الدايم؟

- إنها فضيحة يا سيادة البك .

- أبدًا . . . إن كسب المال عن طريق حلال ، وبعرق الجبين ، ليس من فضيحة فى شىء .

- إن سليمان لم يزل صغيراً على ملاقاة مشاق العمل وتكاليفه .

- بل إنه رجل ذكى يفهم واجبه . .

- لكن . . .

فقاطعه قائلاً : أنا لا أستريح مطلقًا لحياة التسكع والفراغ التى دأب عليها تلامذتنا فى عطلتهم . . .

- لقد وجدته اليوم فى مسكن مثل حظيرة البهائم تمامًا . . فهل ترضى يا سيادة البك هذا الوضع وهذه الإقامة المزرية بين أوساط العمال الفاسدة؟

- الأمر بسيط . . . سأهيىء له مسكنًا طيبًا مع أسرة كريمة أعرفها ، وسيعيش سليمان معهم كأحد أبنائهم ، أما من ناحية العمل فابنك يعتبر موظفًا لأنه يحمل الشهادة الابتدائية ، ولهذا وكلت إليه عملاً كتابيًا يمت إلى دائرة أعمالى بصلة وثيقة ، فماذا بقى بعد ذلك؟

ويظهر أن عبارة «ابنك يعتبر موظفًا لأنه يحمل الشهادة الابتدائية» قد أثلجت صدر والدى ، وأذهبت عنه بعض ما يحسه من ضعة وإذلال إزاء عملى هذا ، فقال فى استسلام :

- البركة فيك يا سيادة «البك» أطال الله عمرك ونفعنا بك.

والتفت الرجل إلىّ وقال فى طيبة ومودة:

- اسمع يا سليمان، أنا هنا مثل أبيك تمامًا، فإذا شعرت بشىء من التكدير أو الضيق، سواء فى عملك أو فى مسكنك، فما عليك إلا الاتصال بى مباشرة، وسأحاول أن أيسر لك كل ما تريد إن شاء الله، لأنى أحب الطلبة النشطاء الواعين...

كانت هذه الشهور الثلاثة التى عشتها فى شركة المحلة الكبرى ذات أثر بالغ فى نفسى، جربت أثناءها حلاوة الكسب، وجمال التعب من أجل لقمة العيش، وعاملت موظفين يكبروننى سنًا ومنزلة، وتعرضت لكثير من المآزق التى كثيرًا ما ينصبها زملاء العمل، وخصوصًا لأمثالى من السذج الذين لم يمارسوا الحياة العملية ممارسة تضمن لهم النجاة من أحابيلهم..

لكن قريبى ذاك كان بمثابة الدرع الواقى، يحمينى من مكائدهم وألاعيبهم، وما أكثرها فى حياة الموظفين.

وخالطت عشرات العمال وآكلتهم وشاربتهم، ولمست عن كثب مشاكلهم المعقدة، ورأيت بعينى رأسى المعارك الفظيعة التى كانت تنشب بينهم عند «الكوبرى السفلى» بالذات، إذ يختبئ كمين من أبناء «المنوفية» فى انتظار أبناء «الغربية»، وتسل الخناجر والمدى من أجل أمر تافه...

لقد كانوا يتكدسون بالعشرات فى الأماكن الضيقة السيئة التهوية، ولعل ضيق هذه الأماكن قد انعكس على نفوسهم فجعلها هى الأخرى نافرة متمردة، أضف إلى ذلك ما هم فيه من جهل وإهمال صحى وسوء تغذية . .

قبل عودتى النهائية إلى قريتنا بما يقرب من أسبوعين، أخبرنى أحد زملائى أن والدى قد أرسل لى شيئًا من الطعام كالمعتاد، وبه دجاجتان، وهو فى حوزة العمل« . . . ». وهو أحد أصدقائى، لكن ما إن ذهبت إليه لأستلم ما بطرفه لى، حتى قابلنى بشراسة وسوء خلق لم أعهدهما فيه من قبل، ثم قذف فى وجهى بالأوانى الفارغة، وببضعة أرغفة، ولم يكن فى مقدورى إلا أن أنصرف دون أن أنطق بكلمة احتجاج واحدة.

وبعد بضع ساعات كنت أسير متنزهًا فى شارع رئيسى من شوارع المحلة، فرأيت صاحبنا غارقًا فى دمه، مستندًا على بعض المارة لوضعه فى عربه الإسعاف تمهيدًا لنقله إلى المستشفى . . . وخيل إلىّ أنذاك أن هذا نتيجة منطقية للجهل والحياة التعسة التى يحبونها.

●●●

عدت إلى قريتنا ومعى الملابس الجديدة لى ولكل أفراد الأسرة، ومعى بضعة جنيهات أيضًا . . . والغريب أن النتيجة جاءت على

عكس ما توقع والدى، لقد أصبحت موضوعًا للاحترام والتبجيل من كل من أعرف فى القرية . . .

وكان زملائى يحسدوننى على فكرتى الجميلة التى نجحت، وكثيرًا ما سمعت أم أحدهم، وهى تقول له :

- انظر إلىّ يا سليمان بن عبد الدايم . . . ألا تستحيى من خيبتك وبطالتك؟

- وتشاء الظروف ألا تكون فرحتى خالصة لا يكدرها مكدر فقد قدم مرسى أبو عفر شكوى ضد والدى لتأخره فى سداد الديون، وكان الموقف واضحًا لا غموض فيه، فإما أن يسدد أبى ما عليه، وإما أن يعرض نفسه للإجراءات القانونية التى لا ترحم . .

وذهب أبى هذه المرة إلى مرسى الذى أصبح أملك لزمام الموقف وأقدر على المساومة؛ لأن سيف القضاء مصلت على عنق أبى . . .

قال أبى :

- أنت تعلم يا مرسى أنى دفعت لك حتى الآن نصف ما علىّ، ولم يعد فى مقدورى أن أدفع لك أكثر من ذلك هذا العام . . .

- وما ذنبى يا عبد الدايم؟؟ كل إنسان أولى بحقه يا صاحبى . .

- أنا لا أعارض فى ذلك . . . كل ما أرجوه أن تنتظر فرصة أخرى على أساس أن أدفع لك ما تراه مناسبًا من الربح . .

- لا أستطيع يا عبد الدايم . . . إنها أموال ناس لا أمتلك منها شيئًا . . . لا تؤخذانى إنى مضطر إلى ذلك اضطرارًا . .

قال أبى متضايقًا :

- قلت لك ألف مرة لا يهمنى أكانت أموالك أم أموال ناس . . لكن يجب أن تفهم الوضع وتقدر الظروف . . . ألست إنسانًا؟؟

- سامحك الله يا عبد الدايم . . . هل هذا جزاء من أعانك فى الشدة؟

- أية إعانة يا مرسى . . ؟؟ لقد امتصصت دمى ، وكدرت عيشى ، وأخذت من الربى ما يوازى ربع ما اقترضه منك . . . أنت مستغل ليس لك قلب . . .

هل جئت هنا للشجار أم لدفع المبلغ؟ لن نصل إلى نتيجة بهذه الطريقة يا عبد الدايم . . .

وشعر أبى أنه تمادى فى غضبه ولم يعتصم بالكياسة والهدوء اللازمين فى مثل هذا الموقف ، بينما بقى مرسى ثابت الجأش ، ساكن العواطف ، فقال أبى مستدركًا :

- أستغفر الله العظيم . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . . لا تؤخذانى يا مرسى ، حقك علىّ . .

- خصل خير . . . لو عرفت الحقيقة لعذرتنى ألف مرة . .

- كن أنت فى مكانى يا مرسى، فكيف تتصرف. . ؟؟

- أنا مثلك يا عبد الدايم، وفى رقبتى عائلة كبيرة تريد أن تعيش، أتظن أنك وحدك الذى تأخذ الأزمات بخناقه. . ؟؟ علم الله أننى أشد منك حيرة وارتباكًا. .

وعلم الله أن مرسى كاذب فيما يزعم، فقد خرج من الحرب بأسلاب كثيرة، فمخازنه ما زالت مملوءة بالبضائع، وحافظته تكاد تنفجر مما بها من جنيهات، وأصبح يمتلك بضعة أفدنة من أجود الأرض، غير أن أبى لفت النظر عن مزاعم مرسى، وعن حركاته المسرحية، وجعل همه فى الوصول إلى حل يصرفه عن التمادى فى القضية التى وضعها بين يدى القضاء، لكن للأسف لم يصل معه إلى حل، وفى النهاية قال أبى:

- والآن. . ماذا ترى أن أفعل؟؟ قل كلمة واحدة. . أشر علىّ. . .

- قد لا يعجبك كلامى. .

- كيف؟ قل ما بدا لك، إنى سأشكرك من أعماق قلبى على نصحك.

- فتردد مرسى برهة، وتفرس فى وجه أبى ثم قال:

- لن تستطيع سداد ديونك إلا إذا سلكت طريقًا واحدًا. . .

- ما هو؟

- أعندك استعداد لأن تبيع لى نصف فدان من أرضك؟

واختلطت كل عضلة فى جسد أبى عند سماعه لهذا الكلام، وصور له شيطانه أن ينقض على مرسى ليفصل رأسه عن جسده، وصاح:

- آه يا مرسى يا وقح... !!! أهذه هى مشورتك؟؟ لولا خوفى من الفضيحة لعلمتك كيف تكون المشورة... أشكُ إلى المحكمة... اذهب إلى جهنم يا عديم الأصل... يا نذل..

كان من السهل أن يتركها أبى تمر ببساطة إذا كان الأمر ببيع جاموسة أو بقرة أو البيت الإضافى الذى تترك فيه بهائمنا وأدواتنا الزراعية، أما أن يبيع أبى الأرض بعد أن تحمل فى سبيل شرائها من عمى ما تحمل، وتعرض للضنك والعوز، فهذا ما لم يكن يخطر له حتى فى الأحلام. وكيف يترك أرض أبيه وجده لمرسى يدنسها بأقدامه؟؟ لقد كان مثل هذا الكلام لأبى يحمل فى طياته كثيراً من الاستفزاز والتحدى لمشاعره... إن أبى يستطيع أن يضحى بكل شىء إلا الأرض...

●●●

الفصل العاشر

وسافرت إلى طنطا . .

لم أحاول هذه المرة أن أغامر بالسكن مع أحد، إذ يكفينى ما تلقنته من دروس وعبر فى الماضى، وانتقلت معى جدتى كى تجهز لى طعامى، وتغسل لى ملابسى وتسهر على راحتى، وتستغيث بكل نبى وولى عندما أشعر بوعكة خفيفة، وكان من حسن حظى أنها لا تعرف فى طنطا الجزار ابن الجزار الذى يمكنه إخراج الذئبة من زورى . . . وأمكننى بجانبها أن أوفر لنفسى الهدوء والاستقرار اللازم، فكان استيعابى لدروسى أكثر، وترددى على مشاهدة الشاشة البيضاء أقل، لكن جدتى كانت تريد أن تجعل منى آلة لا تفتر عن العمل، إذ كانت تحاسبنى على كل صغيرة وكبيرة من شئونى، فكان استجوابى شيئًا لا بد منه عقب كل عيبة أو تأخر عن البيت، ولا بد من البحث عن وجوه الإنفاق التى أبعثر فيها نقودى كما تزعم، حتى لعبتى المفضلة-كرة القدم-كانت تعتبرها إهمالاً وضياعًا للوقت لا يليق إلا بالأطفال-قلت لها ذات مرة:

- يا جدتى العقل السليم فى الجسم السليم. والرياضة البدنية تقوى الجسم، وتنشط العقل . . .

- رياضة . . . ؟؟ يا سليمان دع هذا الكلام الفارغ . . إذا أكلت لقمة نظيفة كقطعة من اللحم مثلاً، أو طبق قشدة، فستجلب لك كل صحة وعافية .

- صحيح الأكل مهم، لكنه ليس كل شيء يا جدتى . . ؟؟

- اسمع كلامى واترك هذه الثرثرة . . . أتحاول أن تخدعنى وتقنعنى بأن الرقص، والتنطيط، والجرى تقوى الجسم؟؟ . . . يا ولدى إن شعرى قد شاب . . . إن هذه الأشياء تقصف الأجل، وتضحك الناس عليك . .

فضحكت وقلت لها : أنت أفكارك قديمة جداً يا جدتى . . أنت رجعية .

ثم وثبت من فوق الكنبة إلى حيث فرش حصير جدتى وأخذت فى مزاولة بعض التمرينات الرياضية . بينما أخذت هى تمصمص بشفتيها وتنعى حظ هذا الجيل المتمرد «المهووس» الذى يبعثر قواه وطاقته هدراً، ويبدو أنها ضاقت ذرعًا بى وبإصرارى على اللعب، فقالت وهى تزمع الخروج :

- ستظل هكذا نحيفًا كالسنارة، ولن تبدو عليك علامات الصحة والنمو، ما دمت راكبًا رأسك ولا تكف عن هذا العبث . .

حاولت إرضاءها فقلت :

- سأكف عن الرياضة يا جدتى . . . تعالى إذًا ولا تخرجى .

- لا ، سأتركك كى تقرأ لك كلمة تنفعك ، عند الامتحان يكرم المرء أو يهان يا سليمان . . .

- لن أذاكر الليلة .

فقالت فى دهشة : ولمه؟ اللهم اخز شيطانك . ماذا حدث؟ .

فقلت فى جدية واهتمام : اسمعى يا جدتى ، سأطلب منك طلبًا وأرجو ألا تحرمينى من تحقيقه . .

- قل يا حبيبى . . روحى لك . . .

- ألا تأتين معى لمشاهدة رواية جميلة؟؟

- السينما؟؟

- نعم ، إنها جميلة جدًا يا جدتى .

فقالت فى انبهار : ماذا جرى لعقلك يا سليمان . . يا قليل الحياء . . . أتريد أن تفضحنا . . ؟؟ أتريد أن تذهب لترى البنات العاريات والطبل والغناء والمزامير؟؟

- وماذا فى ذلك ، سنرفه عن أنفسنا قليلاً . . .

- إنها بداية الخيبة والخسران. . . حذار أن أسمع منك هذا الكلام مرة ثانية لا فى الهذر ولا فى الجد.

- أنا أتكلم بصدق يا جدتى.

- اسكت عمى فى عينك، قليل الأدب، فاجر.

- الله يسامحك يا جدتى. . أتشتمينى هكذا؟؟ لن آكل ولن أشرب، ولن أذاكر ولن أكلمك منذ الآن. .

وبعد قليل من الوقت جاءت جدتى وجلست بالقرب منى وقالت:

- لقد أعددت لك عشاء جميلاً الليلة يا سليمان. . . اللحم والأرز والبطاطس؟

وكانت جدتى تعلم مدى حبى الزائد للبطاطس، لكننى لم أجب حتى أوهمها بأنى ما زلت متأثرًا من كلامها، ولهذا ربتت على ظهرى ورأسى وهى تقول:

- يا رب لا تخيب له تعبًا، ولا تحرمه من أمله، سليمان ابن عبد الدايم، واكتب له طول العمر، والوظائف العالية يا رب. . .

●●●

عندما ذهبت إلى المدرسة فى اليوم التالى، وجدت الطلبة منهمكين فى المناقشات السياسية، وفى ركن قصير من فناء المدرسة

وقف بعض زملاء «التوجيهية» وقد احتدم الجدال بينهم، وقال أحدهم:

- كذبوا علينا وقالوا ستنالون استقلالكم بعد الحرب، وها هى الحال مثلما كانت عليه بل وأبأس من ذى قبل. .

فرد آخر:

- يا أستاذ، الإنجليز لم يظهروا لنا طول تاريخهم الطويل معنا إلا الكذب ونقض الوعود، ليست ألاعيبهم بالجديدة علينا!!

وقال ثالث:

- كان يجب أن نفهم منذ أن تولى «صدقى باشا» رغم أنف الجميع، ودون استفتاء الشعب استفتاء حقيقيًا، كان يجب أن نفهم أن هناك سياسة مملاة، وأمورًا مدبرة فى خفية عن الشعب، وفى غفلة منه. . .

- صدقت لقد أصبحنا بين نارين، ضياع القضية الوطنية فى الخارج، والظلم السياسى والاجتماعى فى الداخل، ولسنا ندرى ماذا نعمل. . . !!

- العمل هو ما أراده «صدقى» و «السراى»، مفاوضات ومحادثات ومباحثات، ثم مفاوضات ومحادثات ومباحثات من جديد، وهكذا تدور الدائرة على رءوسنا. .

- الشيء الذى يغيظنى هو أن «صدقى باشا» قد نصب نفسه وكيلاً للشعب، ومتحدثًا باسمه فى قضيته الكبرى، ولست أدرى من أعطاه هذه الثقة . . .

- الملك طبعًا . . لكن المهم عندنا هل تترك الأمور تجرى على هذا النمط المخزى؟؟

- لن يكون ذلك إلا على أشلائنا . . . لا تحالف مع الإنجليز بعد اليوم ولا معاهدات، وسيكون ارتباطنا بهم مدعاة لتأخرنا وضيعتنا . . فلن نترك صدقى يتمادى فى تصرفاته . . . ألا تقرءون كتب التاريخ؟ أنسيتم أن صدقى هذا هو الذى ألغى الدستور، وأذاق الشعب الويل والثبور، رغم أنه كان يسمى حزبه حزب الشعب، وجريدته جريدة الشعب؟؟ . . . لا . . . لن نسكت أبدًا . .

- إن صدقى معه من القوة ما يجعلنا نسكت رغم أنوفنا .

- إن الشعب كله فى ثورة عارمة ضده .

- الملك والإنجليز يحمونه . . .

- ليس هذا جديدًا علينا . . لن نجعلهم يشعرون بالراحة والاستقرار فى بلادنا، حتى يجدوا أنه لا مفر من التسليم . .

- وماذا ستعمل الهتافات والخطب الرنانة والسير فى شوارع طنطا؟

- إنها أصواتنا نطلقها فى وجوه الحاكمين، ولا بد أن تطرق أسماعهم أرادوا أم لم يريدوا. .

وعلى هذا النمط دار الجدال الصاخب، وكان كل منهم يحاول مقاطعة الآخر. ولم يكن هذا إلا صورة لما يحدث فى كل المجموعات المتناثرة فى الفناء، وما إن صلصل الجرس، حتى علا التصفيف والهتاف، وتسابق الطلبة إلى الشرفة التى يقف فيها عادة زعماء الإضراب. .

وصاح صائح: «اليوم حرام فيه العلم. . .

«الجلاء بالدماء. .

يسقط الاستعمار وأذنابه. . .

تسقط سياسة المفاوضات. . ».

وعلا الضجيج والصخب، واختلطت الصيحات بالتصفيق والضرب على الكتب والكراسات، وظهر أقوام قد ركبوا أقوامًا آخرين، وزعيم يخطب ويصرخ من أعماقه، حتى احتقن وجهه وصار مثل قطعة الكبد، والعرق يتصبب من جبينه، وشعره منتفش متناثر، يلوح بيده تارة ذات اليمين وتارة أخرى ذات الشمال، والكلمات الملتهبة تنتزع الهتاف من الخناجر، وتقابل بالحماس المشتعل. . . ثم ظهر الناظر بابتسامته التقليدية وعوده القصير،

فارتفعت حرارة المظاهرة وازداد الحماس والهتاف الداوى، ثم أخذت الأصوات تخف رويدًا رويدًا حتى تترك فرصة للناظر كى يتكلم. . . قال الناظر:

- أبنائى الطلبة. . . لست أقل منكم وطنية، ولا أقل بغضًا للإنجليز ولكن. . .

فصاح أحد الطلبة: «عاش الناظر، الرجل الوطنى». فردد الطلبة الهتاف، بينما رفع الناظر يده بالتحية وقال: «متشكر»، ثم استطرد: «لكن اعلموا يا أبنائى أن واجبكم الآن، وفى هذا المكان، هو العلم . . العلم أولاً». .

فرد أحد الطلبة هاتفًا: اليوم حرام فيه العلم.

فبان الضيق والغضب فى وجه الناظر، لكنه تمالك نفسه وقال: من الذى حرمَ العلم فى هذا اليوم؟ إن هذا زعم باطل، بل إنه لما يثلج صدر المستعمر أن نبقى فى ظلام الجهل، ونتبع كل ناعق، ونفتتح بالمظاهر والحركات الجوفاء التى لا مدلول لها غير جهلنا بقضيتنا وظروفنا السياسية. . واظبوا على العلم، وانهلوا منه ما استطعتم، وبهذا تستطيعون أن تطردوا الدخيل من أرضكم وتنالوا حريتكم أما التهريج والفوضى التى لا طائل تحتها فهى التمكين للمستعمر، ومعاونته على بلوغ مراميه. . .

فهتف زعيم الطلبة فى إصرار وحماس:

- بالدماء تحرر الأوطان . . . أرواحنا فداء مصر . . فقال الناظر منهيًا حديثه : ليس هذا من شأنكم أنتم .

بل هو من صميم عمل أولى الأمر ، فإذا ما جد الجد ، ولزم الأمر التضحيات فسيندبونكم لخوض المعارك ، وإنى لأكرر لكم النصح ، وأرجو أن تستجيبوا لقولى ، وتعودوا إلى فصولكم ، والسلام عليكم . .

كنت أرقب هذه المشاهد كلها عن كثب دون أن أدفع بنفسى فى غمارها ، وكانت نصائح عمى تبرز إلى ذهنى بوضوح ؛ لأنها كانت تنطبق انطباقًا كاملاً على ما قاله ناظر المدرسة ، لهذا فضلت أن أذهب من فورى ؟؟إلى الفصل ، مغالبًا شعورًا فطريًا يعتمل فى نفسى ، ويحرضنى على المشاركة فى التهريج ، ويحبب لى التسكع فى الشوارع ، والتخفف من مسئولية الدروس إلى حين ، لكنى كظمت هذا الشعور . وعادت الحرارة والاشتعال إلى جموع الطلبة من جديد ، وكانوا مصرين على الخروج إلى الشارع ، والتظاهر العلنى رغم كل شىء ، ودون التفكير فى أى عاقبة ، لأن الحماس يعمى ، والثورة تدفع الإنسان دفعًا إلى السير فى الطريق . ولفت نظرى أن «سعيد» من أوائل المتحمسين والثائرين ، بل كان يسخر من الطلبة الذين فضلوا الذهاب إلى الفصول ، بل ويتهمهم بالخيانة والجبن والطفولة ، وبدا أن الطلبة قد انشطروا شطرين : أولهما :

يفضل مواصلة الدراسة، وهم أقلية، وثانيهما: مصمم على التظاهر مهما كان الأمر، لكن موقف الفريق الأول أضعف من موقف الفريق الثانى الذى جن جنون أصحابه، وأخذوا يحطمون فى أثاث المدرسة. ولمحت سعيد حافظ يهز «الدرابزين» الخشبى فى غيظ وحقد ثم ينتزع اللافتات وينزع اللوحات المنبثة فى المدرسة هنا وهناك، فمشيت وراءه وحاولت الحديث معه، قلت له:

- هل جننت يا سعيد؟؟ ماذا يجدى هذا التحطيم والتكسير؟! لا شىء غير الخسائر..

فالتفت إلىّ ورشقنى بنظرات غاضبة، وضغط بأسنانه قائلاً:

- وما شأنك أنت؟؟ اذهب أنت إلى الدرس مع أمثالك من الأطفال واتركنا نفعل ما نشاء..

فعلمت أنه لا سبيل إلى التفاهم معه وهو فى ثورته، فابتعدت عنه قليلاً لأرقب ما يفعل من هذه التصرفات الرعناء...

ولقد حاول زميل آخر أن يثنيه عما يقترف، فرفع سعيد قطعة من الخشب وهوى بها على ظهرة، ولولا أن أفلت الزميل وجرى بعيدًا عنه لتركت فيه جرحًا كبيرًا...

وتطور الموقف تطورًا لم يكن فى الحسبان، لقد بيت المتظاهرون أمرًا، إذ قرروا الاعتداء على «الجبناء» الذين تسللوا إلى الفصول

ليواصلوا الدراسة، ولم أسلم من بعض اللكمات والصفعات فى هذا اليوم، وكان سعيد فى مقدمة المتحمسين المعتدين -لا علىّ أنا بالطبع- لكن على غيرى ممن لا تربطهم به صداقة ولا معرفة، وقرر الناظر تعطيل الدراسة فى هذا اليوم تفاديًا للأخطار، وفتح الأبواب على مصاريعها ودعانا للخروج، فتدفق سيل الطلبة، والهتافات تدوى بعنف، ولم نكد نبرح المدرسة ونسير فى الشارع مسافة قصيرة حتى ظهرت عربات الشرطة، ونزل منها الجنود بقبعاتهم المعدنية، وعصيهم الغليظة.

حاولوا التفاهم مع زعماء المظاهرة لكن دون جدوى، فقد ظن الطلبة أن هذا لم يحدث إلا لأن الموقف فى يدهم هم لا فى يد رجال الشرطة . . . وفى لحظات كنا نجرى فى كل اتجاه، والعصي تنهال علينا، واستطاعوا أن يقبضوا على بعض منا، ويحشروهم حشرًا فى عرباتهم لحجزهم فى الأقسام.

وكان سعيد حافظ ضمن من ساقوهم إلى «الحبس الاحتياطى».

كنت أجرى لاهث الأنفاس، متصببًا العرق نحو مسكنى . . . وأخذت أستعرض ما فات فى هذا اليوم العصيب. شيء واحد كان يحيرنى تمامًا، وهو أمر «سعيد»، لقد كان ثائرًا هدامًا يحطم بلا شفقة ولا رحمة، وكان يزاول ما يعمل وهو مؤمن به، متحمس له غاية التحمس، بل كان يفنى فيه فناء تامًا، حتى لكأن القمطر

واللافتات، والنوافذ التى كان يكسرها ليست من خشب، وكأنها جنود إنجليز. . .

هل كان سعيد وهو يقترف هذه الأعمال يثأر لجده أم ينتقم لأخته المفقودة بسيمة؟؟

هل كان يصب لعنته على الحرب أم على المآسى التى خاض أبوه غمارها؟

لقد كان سعيد حافظ تعبيرًا صارخًا عن بيئة مظلومة، وأوضاع مقلوبة، واستبعاد طويل الأمد، وكنت أظنه قطعة من أبيه الذى عاش طول حياته-وما زال-يجعل السياسة مادة حديثة، وسلوته فى دهره، وكنت أعتقد أنه امتداد لجده الضابط الثائر المطارد، ومعركة من معاركه الطويلة مع الإنجليز. .

والآن ما العمل؟؟ إنى لا أستطيع أن أعمل لسعيد شيئًا. . .

كل ما أقدر عليه أن أرسل له شيئًا من الطعام والمال يكفيه هذا اليوم، ثم أقصد من فورى إلى «القرشية»، كى أروى لوالده ما حدث بالتفصيل. . .

●●●

وصلت إلى بيت الشيخ حافظ فى «القرشية»، فنظر الرجل إلىّ مشدوهًا. . . لم يكن سعيد معى، لهذا طارت نفسه شعاعًا من الخوف والهلع. . !

- أين سعيد يا سليمان؟؟ هل حدث شيء . . ؟

قالها وهو يكاد يبكي من أثر الانفعال الشديد الذى ظهر جليًا على وجهه، فقلت له:

- اطمئن . . . لم يحدث ما يستوجب الانزعاج.

ومع هذا لم يدخل الاطمئنان إلى نفسه، فأنساه ذلك أن يدعونى للدخول، بل انتظر منى أن أكمل حديثى، وأفسر له الأمر حتى يهدأ خاطره، ومن يدرى؟ لعل مأساة بسيمة أخذت تراوده من جديد، وتوحى إليه بالأفكار السوداء، وتصور له نكد الطالع الذى يلازمه . . . هل كان قلب الشيخ حافظ دليله كما يقولون؟؟ أظن ذلك. فقد بادرنى بالسؤال الآتى:

- لقد سمعت أن فى طنطا مظاهرات اليوم فى المدارس والجامع الأحمدى، فهل أصيب سعيد بسوء؟

شرحت للشيخ حافظ ما حدث، وبدا عليه فى أول الأمر ظلال من الوجوم، لكن الشيء الذى أدهشنى حقيقة، أن الشيخ حافظ قد انشرح صدره بعد ذلك، إذ لم يخف عليّ شعور الفخر والفرح الذى غمره. لقد صار سعيد رجلاً وطنيًا فى نظر أبيه، ومن الفخر أن يقبض عليه، ويودع فى الحبس الاحتياطى من أجل قضية بلاده، ومن أجل ثورته ضد نظام الحكم الفاسد وأعوانه من الإنجليز . . . لقد حرمت الأقدار الشيخ حافظ الثأر من

الإنجليز . . . كما حرمت أباه ثمار النصر من قبل، فلعل ما فاته يمكن تحقيقه على يد ابنه سعيد . . . ، وهتلر الذى كان الأمل معقوداً عليه كى يؤدب هؤلاء الأوغاد جرفه التيار هو الآخر، ولم يدع وراءه غير الذكرى الباكية التى تتهافت على الأنقاض والخرائب المبثوثة فى شتى أنحاء ألمانيا . . .

قال الشيخ حافظ ونحن فى طريقنا فى اليوم نفسه إلى طنطا :

- الأمر بسيط . . . فإنى لى صلة ببعض الموظفين بالمديرية وهم يعرفون المدير معرفة وثيقة، وأعتقد أن سعيد سيطلق سراحه فى أقرب وقت .

- إن شاء الله . .

لقد حسبت أن الشيخ حافظ سوف يثنى على موقفى لأنى تجنبت هذه الأزمة ولم أشارك الطلبة فى مظاهراتهم وعنفهم، وخرجت من ذلك سالمًا. لكن يظهر أن موقفى هذا لم يلفت نظر الشيخ حافظ، ولم يحظ حتى بمجرد كلمة تقريظ واحدة منه، مما جعلنى أشك فى سلامة تصرفى، وأتذكر ذلك الوصف المقوت الذى وصمنا الطلبة به حينما قالوا «يسقط الجبناء»، وشعرت بالخجل يضرج وجنتى ويسيل عرقى، فأحس بالتضاؤل المشين . . . لكن كلام الناظر المنطقى السليم، ونصائح عمى المنقوشة على صفحة قلبى أمدتنى بالسلوى والعزاء، وأرجعت إلىّ ثقتى فى سلامة

تصرفاتى، وصحة سلوكى، وحينما استقر بنا المقام فى مسكنى المتواضع قلت للشيخ حافظ :

- لقد حاولت جاهداً أن أصرف سعيداً عن التحطيم والتكسير لكنه غضب منى .

فانطلقت جدتى تقول : كلكم شياطين سواء أنت أو هو .

ثم اتجهت إلى الشيخ حافظ وقالت :

- لازم تحسن تربية ابنك وتقسو عليه . . . إن هؤلاء الأولاد الملاعين لا يعرفون النفع من الضرر، فيورطون أهليهم فى المشاكل، ويجلبون لهم المصائب .

فابتسم الشيخ حافظ مظهراً شكره لإخلاصها فى نصيحتها وقال :

- لا شك أن الله سيصلح الأحوال . .

●●●

عدت إلى المدرسة فى اليوم الثانى، وصورة الأمس لا تفارق ذهنى، وآثار المعركة من أخشاب وأوراق وطوب ما زالت متناثرة هنا وهناك . قلت لأحد أصدقائى :

- أتعتقد أن الدراسة ستنتظم اليوم؟؟

فقال فى دهشة:

- دراسة؟؟ كيف هذا وزملاؤنا مودعون فى الأقسام؟

- وماذا نعمل لهم؟؟

- من باب الرفاء أن نطالب بعودتهم إلى المدرسة فوراً، فهم لم يسرقوا ولم يقتلوا حتى يعاملوا هذه المعاملة. .

- ألم يمتنعوا عن الدروس ويحطموا الأدوات، ويعتدوا على زملائهم بالضرب؟ فهل هذه وطنية وزمالة، أم عبث وجنون؟

- دعنا من هذه الأمور، فهى كثيراً ما تحدث، ولا تخلو منها مظاهرة من المظاهرات، المهم عندنا الآن هم أولئك الطلبة الأبرياء المحجوزون لدى الشرطة. .

- لا تقل أبرياء لأنهم متهوسون ومجانين، أيشوهون جلال اليوم ويقلبون المظاهرة إلى شجار بين أبناء المدرسة الواحدة؟؟ هل هذه تصرفات عاقلة؟؟

- لا تقسُ هكذا يا سليمان. . . إنهم إخوانك، وما ثاروا إلا من أجل حريتهم المسلوبة ، فإذا كان هناك شىء من التطرف أو الخطأ فيجب أن يغتفر لهم. .

- يا صديقى، لقد كانت دور الخيالة متكدسة بهم فى الأمس. .

- ومن أدراك؟

- لأنى شاهدتهم بعينى رأسى يتسابقون إلى الحفلات النهارية بعد تفريق المظاهرة!!

وقطع حديثنا حدوث ضجة واضحة من مكان المظاهرة الأمس..

- لا انتظام بدون الطلبة... أفرجوا عن الأحرار. الإضراب حتى تجاب مطالبنا... يسقط عهد الظلم والاستبعاد..

وردد مئات الطلبة الهتاف..

وفى اليوم نفسه صدر قرار بإغلاق المدرسة لمدة أسبوع، وكتبت قوائم بأسماء الطلبة بعد تقسيمهم إلى ثلاث فئات حسب خطورتهم، وكان اسم سعيد بالطبع فى قائمة الخطرين الذين لن يدخلوا المدرسة قبل أسبوعين على الأقل، أما أنا فنظراً لسلوكى الذى لا غبار عليه فقد كنت فى مقدمة الداخلين...

لقد فات سعيداً بعض الدروس، وضاعت منه بعض الفرص العلمية، ومع هذا فقد كان سعيد كبيراً فى عينى، وأدعى إلى الاحترام والتقدير عن ذى قبل، وكنت أسمعه وهو يردد نوادره وهو محبوس فى القسم، فأشعر بشىء من الغيرة لأن الله حرمنى مثل هذه الفرصة... وقلت لنفسى:

- ماذا؟؟ هل أريد أن أكون مشاغبًا هدامًا مثل سعيد؟؟ هل أعرّض نفسى لهذا الأسلوب الفوضوى للتعبير عن وطنيتى. . . ؟؟ ألم يكن الأجدر بى أن أقبل يدى ظهرًا لبطن لموقفى الذى وفر على وعلى أسرتى بعض المتاعب؟

ولا غرابة فى أن يراودنى مثل هذه المشاعر المختلطة المتضاربة، فشعور الثورة والنقمة على الأوضاع الفاسدة قد ملأ النفوس، بالإضافة إلى حيويتنا وشبابنا الباكر، ورغبتنا فى حياة أفضل. . . لكننا لم نكن نعلم الطريق الصحيح، لأن طول الاستعباد، وألاعيب السياسة فى الداخل والخارج، قد طمست المعالم، وبلبلت الأفكار، فاختلفنا وتباعدنا، وأن الذى حدث فى المدرسة وفى الشارع ما هو إلا ترجمة حية لهذه الفترة من تاريخنا. . .

●●●

الفصل الحادى عشر

هل صحيح أن الظلام والأرق يجسمان الأوهام، ويكبران الأحلام، فيحيا الإنسان فى جو من الأكاذيب والخدع ويتمادى فيه، فإذا ما صدمته الحقيقة شعر بالألم والخيبة وترك لدموعه العنان؟؟ وهل ما حدث فى تلك الليلة كان تطبيقًا لهذه النظرية . . . ؟؟ لقد نمت كعادتى فى كل ليلة، ونمت لكى أرى «بسيمة» على غير ميعاد . . . يا لها من رؤيا . . . كل شىء فى بسيمة كان قد تغير، لقد طال عودها واكتنز، وانتفخ صدرها، وامتلأ عنقها، . كانت تمشى بلا غاية أو هدف، ذاهلة عن كل ما حولها حتى أنا . . حاولت أن أجاذبها الحديث فلم تلتفت إلىَّ، كنت أكلمها من صميم قلبى وروحى، معبراً عن مكنون مشاعرى، لكنها لم تعرنى التفاتًا . قلت لنفسى : «ماذا جرى لها؟؟ هل نسيتنى لطول العهد أم أنها وهبت قلبها لغيرى؟؟» وشعرت لهذا السؤال الذى ترددت أصداؤه فى كيانى شعور الحسرة والهزيمة والإهانة لعواطفى، فانطلقت وراءها من جديد . . . كنت ألح . .

وأطارد. . . وأبكى. . . وكانت توشك أن تلتفت إلى -أو لعلى خيل إلى ذلك- لكنى صحوت من نومى. . . لم أتذكر شيئًا آخر من الرؤيا غير هذا. . كان هناك أشخاص وحوادث وأماكن، لكنها لم تعلق فى ذهنى لأنها كانت مشوهة غامضة.

تلفت بعد أن صحوت فرأيت الظلام مطبقًا، والسكون شاملاً، وأخذت أستعيد ما رأيت فى نومى، وأقارنه بماضى مع بسيمة ونحن أطفال أغرار ودُعاء، وغمرنى سيل جارف من الحنين والشوق إليها . . «ياعجبًا، أهكذا تستثيرنى ذكراها، فتلعب بى أضغاث الأحلام وتهاويل المنام؟؟ لقد انتهت بسيمة، وطويت صفحتها إلى الأبد، ومضى عليها ما يقرب من ثلاث سنوات. ففيم النزوع إليها والتمسك بهواها؟؟ يا لعقلى المسكين! ذلك الذى يتعلق بالمستحيل، ويجرى وراء السراب. . . !! إن شوارع طنطا وحاراتها ملأى بالعشرات ممن هن أجمل من بسيمة، وآنق منها بمراحل، أفلا يكون فيهن عزاء وسلوى حتى أنسى تلك الصورة التى اندثرت أو بهتت؟؟».

ولعب الظلام دوره مستعينًا بمراهقتى وحرمانى، فوجدتنى أعود لتذكرها ليلة سفرها إلى الإسكندرية، حينما كانت تحدثنى عن البحر الكبير ذى الضفة الواحدة، وعن النساء اللاتى يسبحن فيه عاريات بلا خجل أو حياء، وعن العمارات الكبيرة، والعربات

الكثيرة، والحلوى والفواكه المعروضة فى كل مكان ، ثم سارع شيطانى وقدم لى صورة أخرى . . . صورة لغارة عنيفة مدمرة من غارات تنسيق الألمان على الإسكندرية ، والناس يجرون فى كل اتجاه خوفًا من الموت وطمعًا فى الحياة، وبسيمة الصغيرة هى الأخرى حائرة مرتجفة بلا أم تحنو عليها ، ولا أب يأويها ، تتلمس الطريق إلى أحد المخابئ والدموع تتسابق عن عينيها ، ثم تفاجئها القنابل المتهاوية من السماء قبل أن تصل مأمنها ، ولعلها كانت تصرخ وتستنجد ، ولعلها تمسكت بأهداب أحد الهاربين ، وحاولت اللجوء إلى كنفه ، فدفعها بعيدًا عنه فى غلظة . . . ثم . . . ثم أصابتها شظية فصلت رأسها عن جسدها ، وقذفت بكفها الجميلة إلى مكان ، وقدمها الصغيرة الدقيقة إلى مكان آخر . . . ووصل خيالى إلى هذه الصورة البشعة ، فجرت دموعى فوق خدى دون أن أشعر ، وما إن أحسست بذلك حتى مددت يدى لأمسحها ، وصدرى يبعث ببعض التنهدات ، فسمعت جدتى تقول وهى واقفة عند رأسى محملقة فى وجهى :

- ألف سلامة تلبس بدنك يا حبيبى . . . أتبكى؟؟ قم يا سليمان . . . هل أنت مريض يا ولدى؟!

وارتعدت فرائضى من أثر المفاجأة ، وقمت من سريرى وأنا أقولها :

- لا شيء . . . أريد أن أشرب لأنى شديد العطش .

- ففيم بكاؤك إذًا؟؟

- لا أعرف ، لعلها رؤيا مفزعة . .

- خير إن شاء الله يا حبيبى . . البكاء فرج قريب . .

- كل خير إن شاء الله .

وبالطبع لم أنم بقية ليلتى تلك ، ولم تغادر صورة بسيمة خيالى مطلقًا ، أعنى بسيمة الجديدة بشابها الريان ، ووجها النضر ، وعينيها الذاهلتين الحالمتين . وحاولت أن أصرف عن نفسى صورة الغارات القاسية التى كانت تهز الإسكندرية هزًا ، وتترك عشرات الضحايا تحت الأنقاض وفى الشوارع . . .

وتضايقت من نفسى لاستطرادى فى عرض هذه الصورة المؤلمة فقلت :

- وبعد؟؟ أليس لهذه الأفكار الحالكة من نهاية؟ وأخيرًا وثبت من سريرى ، وغادرت الحجرة قاصدًا المياه ، وجدتنى ما زالت تطاردنى بأسئلتها القلقة عما بى ، وعن سبب الأرق الذى انتابنى ، لكنى أؤكد لها أنى بخير ، فتبادر من باب الاحتياط إلىّ ، وتتمتم بتعاوذيها المعهودة ، وتستعيذ بالله والأنبياء وتستنجد بهم ضد من «رأونى ولم يصلوا على الحبيب النبى» ، وتمرر يدها

العجفاء على جسدى ، وتتأسف أعمق الأسف لأنها لم تحتط لمثل هذه الظروف، وتحتفظ بمقدار من «الشبة والفاسوخة» وهما عماد كل علاج عندها، والعامل المضاد لهواة الحسد ذوى العيون الصفراء كما كانت تسميهم دائمًا . .

وفى الصباح تناولت إفطارى على عجل وبدون شهية، ومضيت إلى المدرسة، وكان جو اليوم وجو المدرسة أيضًا شاحبين كئيبين انعكاسًا لما انتابنى من قلق ووحشة فى ليلتى الماضية . . . لكن هذه الكآبة خفت حدتها قليلاً عند رؤيتى لسعيد . .

لقد ازداد حبى لسعيد حافظ، كانت هناك أوجه شبه بينه وبين أخته بسيمة . . . ضحكته . . . نظراته . . . غضبه . . . إخلاصه، والإيحاء الغامض الذى يشيع منه إلىّ إذا ظهر أو تكلم أو ذكر فى أية مناسبة . . .

لذلك لم أكن أفارقه ونحن فى المدرسة إلا أثناء الدرس؛ لأنه كان في فصل غير فصلى، حتى الدقائق الخمس التى بين كل درسين كنت أنتهزها وأسارع للقائه، وكنت أوصله كل يوم حتى سيارته، وأشعر أن شيئًا ما ينقصنى إذا ما فارقته . . . وكنت أشعر بالوحدة والضيق إذا ما تغيب يومًا عن المدرسة لعذر طارئ كمرض أو خلافه، وأحسست أننا أكثر من صديقين تجمعهما رابطة قديمة فى السكن، وعلاقة حديثة فى المدرسة . وكان شعوره ناحيتى يكاد

يشابهنى إن لم يزد، ورغم اختلافنا فى الوسائل السياسية، والاستجابة للمظاهرات، ورغم ما كان يحدث بيننا من تباين فى وجهات النظر، فقد كانت تلك الأخوة الوثيقة تجمعنا فى ظلها الوارف الواسع، وتغتفر لنا التوافه والصغائر من الأمور التى لا بد أن تشوب الصداقات . .

●●●

قبل انتهاء العام الدراسى، وصلتنى رسالة من عمى سررت لها كثيراً.

قال عمى فيها: « . . . إن الذى يعيش فى القاهرة يا سليمان، ويقضى أيامه فى العمل الشاق، يحس بأنه يفتقر إلى شئ ما، فالحياة المادية البحتة -رغم أن هناك ما قد يملأ فراغها- تبعث النفس الكثير من الملل والسأمة . . حقًا ستذهب إلى عملك. ثم تعود إلى مسكنك، وأنت فى مسيس الحاجة إلى الراحة، فتروح فى سبات عميق، وقد تزور زميلاً أو تجالس صديقًا أو تقرأ كتابًا، كل هذا لن يسد كل حاجاتك . . لهذا وجدتنى فى حاجة إلى من أجد عنده شيئًا من الزاد الروحى والهدوء النفسى . . . إلى إنسان أشعر أنه أشد التصاقًا بى، وأكثر اهتمامًا بأمرى ومشاكلى، وأعمق مشاركة لآمالى وأفكارى . . .

وفعلاً فكرت . . . وبحثت . . . ووجدت ما أريد . . فتزوجت . .

قد تعجب لأنى أصبحت رب أسرة وأنا أشرف على الأربعين من عمرى . . لقد أدركت حقيقة فراغ أيامى بعد فوات الأوان، لكن لا بأس من أن أسد هذا الفراغ رغم أنى فى سن الأربعين . . . .

وقد تظن أنى جلبت لنفسى أثقالاً فوق أثقالى، وأضفت إلى متاعبى شيئًا جديدًا؛ لأن مورد رزقى لا يكاد يفى بكل حاجاتى منفردًا فما بالك باثنين؟؟ لكن الله لم يتركنى وحدى فى خضم التبعات والآلام . . .

إن زوجتى أرملة تكاد تقرب منى سنًا، وهى تفهم أنها لم تأت للبذخ واللهو؛ لأن تجربتها وسنها وأصالة منبتها تحرسها من مثل هذه النزوات الطائشة . . . وعلى أى حال فهى لم تكلفنى كثيرًا . . . لقد جاءت إلىَّ بأثاثها وملابسها، ولم أكلف نفسى إلا بعض الهدايا البسيطة . . . وهى بجانب ذلك تستطيع أن تخيط الملابس، ولها بعض الزبائن الذين يتعاملون معها وإن كانوا قلة . . ولم أجد فى ذلك ما يشيننى أو يشينها، فليس الكسب عن طريق العمل الشريف مما يبعث على الغضاضة .

الآن لا أكاد أعود من عملى حتى أجد اللقمة الطيبة المتواضعة، واليد الحانية التى تمسح عن جبينى عرق النهار، أو مشقة الليل، وأجد جواربى مرتقة، وملابسى نظيفة، وفوق ذلك الراحة النفسية

التى تغمرنى بفيضها حين أجد من أبثه خواطرى، وأقطع فترات الفراغ والراحة فى مسامرته وألجأ إليه حين يدهمنى داهم، أو يلم بى شىء مزعج . . .

لقد كانت زيجتى هذه تجربة جميلة انشرح لها صدرى، وما أظننى إلا محظوظًا سعيدًا رغم حياة الكفاف، والذكريات الماضية التى قد تطوف بذاكرتى أحيانًا، لكنها لا تستطيع أن تستبد بى طويلاً لأن زوجتى تسلينى، ولا تتركنى لمثل هذه الأوهام والذكريات وقتًا طويلاً . .

وبهذه المناسبة يسرنى أن أخبرك بأن «منيرة» -وهذا اسمها- تحبك حبًا شديدًا، وتتوسل إلىّ ليل نهار أن أطلب منك إرسال إحدى صورك «الفوتوغرافية»، وما أظنك إلا مجيبًا طلبها، ولا عجب فى ذلك، فأنت كثيرًا ما تكون مادة الحديث بيننا، بل وأكثر من ذلك أنها قد اقترحت اقتراحًا جميلاً، فوافقت عليه من فورى، ولكنى لن أخبرك به الآن، وموعدنا بعد نجاحك هذا العام إن شاء الله . .

بقى شىء . . .

إن جدتك لا شك ستتأثر وقد تغضب منى وتبكى لأنى لم أستشرها فى مسألة زواجى أولاً، ولأنى لم أدعها إلى حفلة الزفاف ثانيًا، ولأنى تزوجت من «قاهرية» ثالثًا . . . لكن أرجو أن

تطمئنها يا سليمان، فإن اعتراضاتها الثلاثة ستذوب حينما نأتى - أنا ومنيرة- لزيارتكم فى العيد إن شاء الله.

وأخيراً أدعو لك بالتوفيق . . ولا تنسَ جانب الله فى حياتك، وابتعد عن المظاهرات واهتم بدروسك . . .

●●●

سارعت إلى جدتى وقلت لها:

- معى لك خبر جميل . . .

- خير إن شاء الله يا سليمان ما هو؟؟

- لا، لن أقول إلا بعد دفع الثمن . .

- عيناى لك.

- لن يخدعنى هذا الكلام، هذه هى كفى ممدودة إليك فضعى فيها مبلغًا محترمًا، وبهذا تسمعين النبأ السعيد . .

- وحياتك عندى، وحبى لك -وهو أعز قسم عندى- لأعطينك ما تريد . .

- اسمعى يا جدتى . . . لقد تزوج عمى من مصر.

- تزوج عمك؟؟

- لا تمزح يا سليمان . .

- أقسم بالله أن هذا حدث . . .

- ومن مصر؟؟

- أجل من مصر وإليك الخطاب.

- كيف تم ذلك دون أن نعلم؟؟ هل تزوج بلا طبل وزمر وكعك وعزائم..؟؟

- هذه مسائل غير مهمة.. لقد تزوج وانتهى الأمر.

- لا بد أنه كان مأتمًا ولم يكن عرسًا.. وبان التأثر على جدتى وقالت:

- سامحه الله... أيتزوج فريد دون أن أعلم؟

ثم غلبها البكاء وقالت:

- مسكين يا ولدى... غريب طول عمرك... لم تجد من يفرح ولا من يزغرد لك...

- ولم لا تفرحين له هنا يا جدتى؟؟ ألا يكون الفرح إلا هناك فى القاهرة؟

- لكن يا ولدى أنت صغير ولا تعرف الواجب والأصول التى درج عليها كرام الناس يا سليمان...

- على كل حال حقك علىّ بدلاً من عمى، ولتكونى مطمئنة فسيحضر إلى البلد بعد شهرين -فى العيد- وسنعقد الصلح بينكما، واعملى له ما شئت من كعك وعزائم.

- ألم يقل لك عن صفاتها وأحوالها كلمة واحدة؟

- لقد قال الكثير، فاسمها «منيرة» وهى أرملة و.. فقاطعتنى جدتى وقالت فى استنكار وأسف:

- أرملة؟؟ طبعًا، لأن عذارى مصر لا يحمن حول الفقير الكادح مثل عمك..

- يا جدتى ليست العبرة بالعذارى أو الأرامل، يكفى أن تكون زوجة طيبة مؤدبة، ومحبة لزوجها مطيعة لأوامره.

- اسكت يا سليمان... أنت لا تدرك الفرق لأنك -كما قلت لك- طفل صغير، تأكل من أى طعام يقدم لك... زواج العذارى متعة وسعادة..

لكنها استدركت قائلة: قم أنت لتذاكر دروسك...

- وأين الثمن الذى وعدتنى به عند سماعك الخبر؟؟

- غدًا سأجهز لك أكلة طيبة..

- لا دخل لى بالأكلات... إننى أريد نقودًا..

- لكى تذهب إلى الروايات الفارغة... طبعًا...

- أبدًا يا جدتى..

- إذًا، فلماذا تطلب النقود؟

- أليس هناك غير الروايات فى نظرك يستحق الإنفاق؟

ولم تجد محاولاتى أذنًا مصغية لدى جدتى كى أنتزع منها قرشين أو ثلاثة، بل تركتنى وأخذت تردد بعض الأغنيات الشعبية المتداولة فى الأفراح، بصوت خفيض ترعشه الشيخوخة، ويرويه الحب والحنان الأموى الفياض، لقد كانت تغنى لعمى «فريد»، لطالما ألحت عليه أن يتزوج من زمن بعيد، أيام أن كان يملك فدانًا ونصف من الأرض الطيبة، لكنه كان يتكاسل ويتهرب منها ولا يعبأ بإلحاحها وتوسلاتها المتكررة، وكانت أغنيات جدتى رغم قدمها وبساطتها وأدائها المضحك تثير فى نفسى الكثير من الحنين والعواطف، وربما لأن هذه الألحان خفقات من قلبها، وذوب مشاعرها، وترنيمة روحها. . . قلت لها فى خبث: - يا جدتى إن صوتك جميل. . . جميل جداً. .

- يا ولدى لا تسخر من شيبتى، ودعنى فى حالى. .

- أتشكين فى كلامى يا جدتى ؟؟ والله إن غناءك ليحرك نفسى. . .

فسرحت جدتى ببصرها تنظر إلى اللا شىء وهى تقول:

- رحم الله أيام زمان. . كان صوتى مثل الكروان. .

وكان العرس الذى لا أغنى فيه يعتبر سيئ الحظ، ناقص الأفراح. . . الله يرحم جدك. . كم تعب وشقى وتشفع إلى أبى حتى يتزوجنى. .

- هل كان جدى يحبك لهذه الدرجة؟

- وأكثر من ذلك . . كان يقف الساعات الطوال حتى يرانى حينما أخرج إلى الترعة لإحضار الماء، أما اليوم الذى لا أخرج فيه كان يحوم حول البيت، ويظل يلف ويدور حتى يرانى فيرجع من حيث أتى، وكأنه «أبو زيد الهلالى».

وظلت جدتى سابحة فى خيالاتها وذكريات ماضيها، ثم قالت حانقة:

- يا سليمان، الحب فى هذه الأيام ما هو إلا ميوعة وخلاعة وقلة دين. ولا أنسى «العلقة» التى تلقيتها من أبى حينما نما إلى سمعه أننى أثناء عودتى من الترعة تكلمت مع خطيبى -أى جدك الله يرحمه- أما اليوم فلا حياء ولا شرف، والناس قد تغيروا يا ولدى . . ويظهر أن الدنيا فى آخر أيامها، فالحديد أصبح يتكلم، ويطير فى الجو، ويمشى على قضبان، والصور تجرى وتتحرك، والنور يسرى فى الأسلاك، إن رأسى يدور، وأكاد لا أعى ما أمامى من هول ما أرى من العجائب . .

ولم أشأ أن أثير ثائرة جدتى، أو أقطع عليها أحلامها، أو أنتزعها من الجو الجميل الذى تسبح فيه، كانت تتكلم عن الماضى وأحداثه وتقارنه بالحاضر وعجائبه، فلا أملك إلا الاحترام والتوقير للجيل الماضى هو يتكلم . . . لقد كانت جدتى فى نظرى -

حينذاك . . تحفة فنية قديمة، وأثرًا خالدًا جميلاً، وأيقظتنى جدتى من تفكيرى فى أمرها حين قالت :

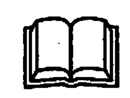
- ما كان أجمل أيام زمان ولياليها الفريدة ! ! ! كانت العروس تزف لدار خطيبها وهى فوق فرس جميل خفيف الحركة، يتراقص فى مشيته على أنغام الطبول والمزامير، وسط الزغاريد والموائد العامرة. أما الآن فإن العروس تذهب إلى بيت عريسها فى خمس دقائق فى عربة تنطلق كالصاروخ أو مشيًا على الأقدام كما حدث لزوجة عمك . . فقلت : هذا زمان السرعة يا جدتى.

فقلت فى ثورة :

- بل زمن الحروب والشيطنة والفساد والخيبة التى حطت على الناس جميعًا . .

- سامحك الله يا جدتى.





الفصل الثانى عشر

حينما عدت إلى منزلنا فى القرية فى آخر العام الدراسى بعد نجاحى، كان هناك فى انتظارى أشياء تؤلم النفس حقًا، لقد باع أبى كل ما عنده من أبقار ونعاج، حتى حمارنا لم أجده فى مكانه، أما أمى فلم تبق على الطيور؛ لهذا كان البيت فى صمت القبور، وأدوات الزراعة من:

طنبور ونورج وزحافات قد اختفت بدورها. والأدهى من ذلك والأمر، أن البيت الإضافى -حيث كانت توجد البهائم والأدوات الزراعية من قبل- هو الآخر لم يعد فى حوزتنا، لم يكن من الصعب أن أدرك مظاهر العوز والفقر تظهر بوجهها الكالح فى كل ركن من الأركان...

أما أبى فجلبابه الأزرق هو هو لم يتغير اللهم إلا فى لونه الذى حال وأصبح باهتًا، وبعض الرقعات التى أضحت جليلة واضحة، وليلى ومحمود وجدت أمى قد حجزتهما فى إحدى الحجرات

وأغلقت عليهما الباب، ولما تحريت عن الحقيقة علمت أنهما يرقدان هناك مجردين من الثياب تمامًا حتى تنتهى أمى من تنظيف الثوب الوحيد لكل منهما وغسله . . . والطلمبة التى كانت أمام البيت قد اجتثوها من أصولها وباعوها . . . قالت لى أمى :

- ألف ألف مبروك يا سليمان . . . إننى أدعو الله أن يكتب لك النجاح الدائم حى تنال الشهادة الكبيرة . . فقلت وأنا أشير بيدى إلى بيتنا الخاوى ساخرًا :

- الحمدلله على الفقر والنجاح . .

- وماذا نعمل يا ولدى . . ؟؟ ثم اتجهت ببصرها إلى السماء وقالت :

- اللهم انتقم منه . . . مرسى أبو عفر .

- ماذا حدث يا أمى؟

- هو السبب فى كل ما تراه . . . تسبب فى حرماننا من بهائمنا ومن سمنها ولبنها، وأرغمنا على بيع ما عندنا، لأنه لم يتنازل عن شكواه رغم رجائنا وتوسلاتنا . . . لقد كان يظن أن أباك سيبيع له قطعة الأرض مقابل الديون، لأن هواية مرسى المفضلة فى هذه الأيام أصبحت شراء الأراضى حتى يصير من ذوى الضياع الواسعة .

- وبعد ذلك؟

- لم نترك شيئًا فى البيت إلا وبعناه، لكن لم نستطع أن نستوفى سداد كل ما علينا من الديون، فلجأ أبوك إلى بعض الأخيار واقترض منهم مبلغًا ضئيلاً ثم قذف بالمبلغ فى وجه مرسى الملعون..

وابتسمت أمى ابتسامة مشرقة وقالت:

- ولا تظن أن هذا الدين الجديد شيء يهتم بأمره لأنه بسيط، وسنسدده قريبًا.

وتنهدت من الأعماق وهى تقول:

- الحمد لله... الديون يا ولدى عبء ثقيل جدًا...

حاول ألا تقع تحت سلطانها طول حياتك تعش سعيدًا..

وهنا تذكرت الدعاء المأثور عن محمد ﷺ: «اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». ورغم أن البيت قد أصبح مجردًا من كل شيء إلا الجدران والسقوف وبعض الأحطاب، فإنى كنت أشعر بأنه ملىء وغنى بالشيء الكثير. كانت الملابس ممزقة، لكننا كنا نشعر بالستر، وكان الطعام قليلاً وفقيرًا، لكن شعرنا بالشبع والرى... إن الخلاص من أعباء الديون شيء يبعث على السعادة والمتعة، ويشعر بالحرية التى لا يشوه جلالها قيود، واسترحنا إلى

الأبد من وجه مرسى واستذلاله لنا، واستنزافه لمواردنا بإضافة الأرباح المركبة بعضها إلى بعض، والعجيب أن أمى قد خفت عنها حدة الآلام القلبية لدرجة كبيرة. . .

وانفرجت أسارير أبى، وأصبح وجهه ضحوكًا باشًا يداعب ليلى، ويبتسم لمحمود، ويقبل على عمله فى الحقل أو المنزل بروح طيبة قوية، وشغف زائد. . . لقد خرج من المعركة ظافرًا على ما يبدو، لأنه لم يفقد قيراطًا واحدًا من أرض أبيه التى تركها إرثًا حلالاً، وأمانة فى عنقه لا يفرط فيها، ولا ينزل عنها لأحد. . . وبالنسبة لى كانت أسعد عطلة فى حياتى، وخاصة أن محصول القطن كان ينبى عن خير كثير، فأملنا فيه أن يمسح ذيول الشقاء، ويبدد هذا التقشف الإجبارى الشديد. .

سامح الله عمى والمخدرات والحرب والقطن الزهيد الثمن ومرسى أبو عفر، فقد كانوا معولاً لهدم أنسنا ورخائنا. .

قلت لأبى:

- إن العيد أوشك أن يحل، وعمى وزوجته «منيرة» من المنتظر أن يصلا إلينا فى هذه المناسبة المباركة، فلم لا تشترى لك جلبابًا جديدًا؟؟

قال وهو يبتسم:

- صحيح أنى مهلهل الثياب، لكننى أمشى بين الناس منتصب القامة مرفوع الهامة. . . أما الملابس الجديدة الخضراء أو الزرقاء فهى مما يستهوى الأغرار والسذج من الأطفال والرجال على السواء.

- لكن الملبس الحسن أمر محبوب يا والدى.

- حسنًا، أتوافق على أن تستدين من أجل شراء ثوب؟ وهل هذا من الأمور الحسنة المحبوبة أيها الذكى النبيه. . ؟؟

فلم أجد ما أجيب به فسكت وأطرقت برأيى، فبادرنى قائلاً:

- أظن أن ملابس العام الماضى ما زالت متماسكة ومناسبة، وتستطيع أن تذهب بها إلى المدرسة فى العام الجديد إن شآء الله.

فتمتمت: أجل. . . أجل إنها مناسبة جدًا. .

فربت على ظهرى قائلاً:

- بارك الله فيك. . إنى ليعجبنى منك أنك تقدر ظروفى، وتشعر بالتبعة الكبيرة الملقاة على عاتقى. . . إنى لأفخر برجولتك المبكرة أكثر من فخرى بنجاحك كل عام. . فأحسست بالخجل يغمرنى لهذا الإطراء من والدى الذى قلما كان يحدثنى بمثل هذه اللجة، فقال أبى مستطردًا:

- تأكد يا سليمان أن سر نجاحك هو رضاى عنك ودعواتى لك فى الليل والنهار.

فقلت فى تخابث وتضاحك :

- ومذاكرتى الطويلة المضنية . . . أليس لها هى الأخرى نصيب فى هذا؟؟

- صحيح أن المذاكرة من الأهمية بمكان، لكن توفيق الله لا يقل عنها أهمية . .

- وجدتى التى كانت تجلس لى بالمرصاد، تهدد وتتوعد وتنذر وتجرعنى المذاكرة تجريعًا، أليس لها هى الأخرى نصيب؟؟

وفى هذه اللحظة ظهرت جدتى بانحناءتها المزمنة، وخطواتها البطيئة المبعثرة وقالت :

- ومقام سيدى عيسى العراقى يا عبد الدايم، لولا وجودى معه لما خرج من هذا العام بما يساوى بصلة . . .

- طبعًا طبعًا يا أمى . . . أنت الخير والبركة . أنت كل شيء . . . أطال الله عمرك .

وقبل أن أنتقل من مكانى أصر أبى على أن أسطر خطابًا للشيخ حافظ شيحا، وأبعث إليه فيه بتحياته وتسليماته وتهنئاته بنجاح سعيد .

●●●

لم يأتِ عمى فى العيد حسبما توقعنا . . . والحقيقة أننا فرحنا جدًا لأن هذه الزيارة لَم تتم . . .

فقد كنا على غير استعداد للقاء زوجة عمى التى تزورنا لأول مرة، إذ ليس مما يشرف أن تأتى إلى بيتنا فتراه مجردًا من أل والإضافة، ولعل عمى أدرك هذا أو علمه بطريقة ما، وخاصة أننا لم نرسل إليه بخطاب واحد ندعوه إلى مثل هذه الزيارة، أو أن فى نيتنا إرجائها إلى وقت آخر حتى تتحسن الأحوال، فنستطيع أن نستقبلها بما هى أهل له من الكرم والضيافة التى هى من صميم تقاليدنا وواجباتنا . . . فلا شك أن عمى حدثها عن خيرات الريف ونعمه، وحدثها عن أرض أخيه الخصبة التى تجود بكل شهى وطيب . . . فكيف يكون موقفه حينما تأتى فلا تجد شيئًا مما أطال فيه وأطنب . . ؟؟

وبعد العيد بأيام، وصل خطاب من عمى يعتذر فيه بلباقة وحذق عن عدم تمكنه من الزيارة ويرجئها لوقت آخر وفى هذا الخطاب أخبرنى بالاقتراح الذى أشار إليه فى خطابه السابق والذى اقترحته زوجته، فقال: « . . . وإنه ليسرنى يا سليمان أن تحول أوراقك إلى إحدى مدارس القاهرة القريبة من السيدة زينب، وتنتقل إلينا فور انتهاء العطلة مباشرة . . وأعتقد أن والدك لن يضن علينا بتحقيق هذه الرغبة البسيطة، ولا شك أنك ستكون

مصدر سعادة لنا، وفى الوقت نفسه ستجد من يسهر عليك فى غربتك. وخصوصًا أن منيرة أمٌّ من الطراز الأول، رغم أن الأقدار قد حرمتها من إنجاب الأطفال.

وستجد فى القاهرة عالمًا جديدًا عليك... قد تزور الأهرام... ودار الآثار، والمبانى القديمة، وسيكون قربك منى مدعاة لطمأنينتى عليك، لعلى أستطيع أن أجنبك كثيرًا من العثرات التى أودت بمستقبلى فى سالف الأيام، أم أنك لست معى فى هذا القول وتؤمن بالرأى القائل: إن كل جيل يتعلم ويأخذ العبرة من خلال تجاربه الخاصة؟ وسواء أكنت مع هذا الرأى أم ذاك، فإنى أعتقد أن فى تحويلك إلى القاهرة فائدة... بل فوائد كثيرة...

«وسيكون فى انتظارك مفاجأة جميلة أعدتها لك زوجتى... ولماذا تجعلها مفاجأة؟؟ سأخبرك بها الآن وليكن بعد الحوادث ما يكون (!!!) لقد اشترت لك منيرة قطعة من الصوف لا بأس بها كهدية لك فى مقدمك العزيز، إذ لا بد أن تدخل المدرسة بثياب جديدة أسوة بباقى الطلبة كما تزعم هى... وإنى لأشعر بالسرور العميق نيابة عنك نحو عملها النبيل، لأنى أعلم أن منيرة كانت تجمع المليم على المليم، وتدخر جاهدة فى كل مناسبة حتى وفرت لك ثمن الحلة... كنت إذا عزمت على شراء رطلين من اللحم قالت:

- ولم كل هذا؟ يكفى رطل ونصف وتوفر الباقى من أجل سليمان، ثم تنشب معركة كلامية لطيفة محببة إلى قلبى ، وتنتهى بفوزها على أخيراً، لا لأنى ضعيف ومتسامح، بل لأنى أفضل تلك الهزيمة . .

لأنى لأحسدك على هذا الحب من جانبها يا سليمان، فأنت محظوظ لأن منيرة طيبة القلب مخلصة لحد كبير، فمن حظى برضاها كان موفقًا سعيداً . . ».

«عمك»

كانت هناك نقطة مهمة لم يحاول عمى «فريد» أن يكشف عنها فى خطابه . . لا شك إنه كان يحبنى ويريد أن أكون بجانبه . لكنه كان فى الوقت نفسه يود أن يكفر عن بعض ما سببه لأبى من متاعب، فأنا أعلم أن أجره اليومى لا يستطيع أن يسد كل حاجاته، فما بالك بى إذا انضممت إلى أسرته المتواضعة كفرد ثالث . . . ؟؟

صحيح أنى سأحمل معى بعض المال لمصروفاتى الخاصة، لكنها لن تقاس بما أنا فى حاجة إليه . . . ويظهر أن عمى استعذب التضحيات والكفاح، وأصبح التمادى فى التقشف -ما دام من أجلى- نوعًا من أنواع التقرب والعبادة . . قال أبى يوم وصول هذا الخطاب :

- يا ولدى لا يمكن . . ففى ذلك إرهاق لعمك لا مبرر له . .

- لكنى مشتاق فعلاً لإتمام دراساتى فى القاهرة . .

- ليكن ذلك، لكن لا يجب أن يكون هذا على حساب سعادة عمك . .

- إنك تهول فى الموضوع كثيراً، إنى سأذهب ومعى كل ما أحتاج إليه . .

- إنى أعلم أن عمك يجلك كثيراً، وسيحاول أن يدخل على قلبك السعادة، ويهيئ لك وسائل الترف والراحة، مما سيؤثر فى مجرى حياته . .

- لا، لن أقبل مثل هذه التضحيات التى لا ضرورة لها . . .

- هذا مجرد كلام تنطق به فحسب يا سليمان . . .

- إنى أعدك بتنفيذه . . .

- لا أصدق . .

- بل أقسم لك على ذلك .

ولم يكن أبى فى حاجة إلى كثير من الإلحاح كى يقبل هذا المشروع لأنه لن يكلفه كثيراً، ولم تكن هناك من عقبة سوى الإشفاق على عمى «فريد» من التكاليف والتبعات . .

ونمت ليلتى أحلم بالأهرام الثلاثة التى تشمخ فى تحدٍّ سافر نحو

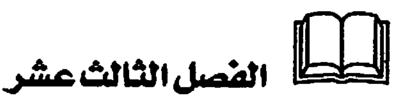
الأفق، وأحلم برؤية الأحياء القديمة والحديثة وأضرحة الأولياء والمآذن والقباب، والمسارح العديدة، ودور الخيالة المنبثة فى كل مكان، وقصور الملك وعرباته الحمراء، والأمراء والوزراء والباشاوات، ورجال الفكر والفن، وكل ما خطر على قلب بشر مثلى . . .

هل صحيح أن مصر أم الدنيا، وأن هذا الاسم على مسمى؟

هذا ما سنراه فى الغد القريب . . .

لكن شيئًا واحدًا كان يشوب لذتى الطارئة، وهو أنى سأفارق سعيد حافظ . . .

●●●



الفصل الثالث عشر

فى عام ١٩٤٨ نفذت المؤامرة العالمية للقضاء على فلسطين، فكان هذا بداية الانطلاق للشعوب العربية التى ضاقت ذرعًا بألاعيب الاستعمار . .

ثورات فى العراق . . ومصر . . . والأردن وسوريا . . والحجاز . . فى كل بلد يؤمن بالحرية والعدالة .

وكانت مدرسة «الخديوى إسماعيل الثانوية»

-وهى المدرسة التى حولت إليها أوراقى- شعلة من المظاهرات والاحتجاجات الصاخبة، لأننا كنا نريد دخول الجيوش العربية أرض فلسطين لتطهيرها من اليهود . . .

ولم نكن نعرف الكثير عن جيوش البلاد، كل ما أدخلوه فى روعنا أن الجيش قد نما عددًا وعدة، وأن صفقات الأسلحة تتدفق عليه من كل مكان، وأنه فى موقف يستطيع معه أن يمحو إسرائيل الوليدة من الوجود . .

فكان من العار ألا يدخل جيشنا أرض الميعاد ما دمنا نملك السلاح والكفاءات، ولا تنقصنا الروح المعنوية، إذ إننا ندافع عن حق العرب، ونستجيب لنداء الدين الذى يحرضنا على الجهاد فى سبيل الله . . .

أيام لا تنسى تلك التى تدفقت فيها أفواج المتطوعين، وكتائب الجيش المصرى، والشعوب العربية تتابع هذه الخطوات بخفقات قلوبها، وحار دعواتها. إن قضية فلسطين -وما زالت- قضية أمة، وليست قضية شعب صغير، وهذا ما فهمه الناس، وهذا ما أبعد عن قلوبنا كثيراً من الشكوك والأوهام التى كانت تلازم كل عمل رسمى آنذاك. . فلم يستطع أحد أن يحذر من اللصوص والمستغلين والخونة من أعوان الاستعمار، لأن الأمر ليس مجىء وزارة وضياع أخرى، بل القضاء على مؤامرة واسعة النطاق توشك أن تضع لنا سرطانًا خبيثًا فى جسد أمتنا العربية . . . .

عدت إلى عمى ذات مساء، فقلت له بعد أن فرغ من صلاته :

- كان اليوم رائعًا حقًا، وسيسجل بأحرف من نور فى تاريخنا القومى . .

- وأنهى عمى أدعية الصلاة والتفت إلىّ قائلاً :

- احكِ لنا ما حدث يا سيد سليمان .

- لست أدرى يا عمى ماذا أحكى . . . أأحدثك عن الهتافات المدوية أم الخطب النارية ، أم أصف لك ذلك الإصرار العنيد الذى ارتسم فى وجوه الجميع شيبًا وشبانًا وشعبًا وقادة؟؟

فضحك عمى فى وقار وقال :

- يظهر أن الحماس قد جرفك أنت الآخر ، فلم تعد سليمان الهادئ الذى يقابل تلك المظاهر المألوفة المتكررة برزانته المعهودة . . .

- يا عمى ليست كل المظاهر بالتى يقف الإنسان إزاءها هادئًا . . . إنها مسألة حياة أو موت ، وليس هناك توسط فى الأمر .

- لتقصص علينا ما حدث .

- كان مؤتمر «الكونتننتال» اليوم مؤتمرًا شعبيًا ضخمًا ، جمع شتى الهيئات المعنية بأمور السياسة العربية ، والحركات التحريرية ، وتعاهدوا على تخليص فلسطين مهما كان الثمن . .

وانتظرت من عمى أن يعلق على ما سمع لكنه هز رأسه وسكت ، فاستطردت :

- وكانت ألوف الطلبة قد احتشدت وأتت من شتى أنحاء البلاد ، وكلهم يطلب التطوع ، ويريد السلاح والتمرين على استعماله .

فارتسم الجد على وجه عمى وقال :

- خداع ودجل رخيص .

فقلت في دهشة : وكيف؟؟

قال : أنهم يستغلون عواطف الجماهير، ويسخروهم أبشع تسخير. . .

- إن كلامك يحيرني يا عمى . . أتفضل أن يسكتوا ويدعوا قرار التقسيم يمر بسلام ويخضعوا للأمر الواقع؟

- إن المؤامرة تدبر ضد فلسطين من زمن بعيد تحت سمع وبصر زعماء العرب، كانت فلسطين تموت عضواً عضواً حسب خطة خبيثة مرسومة، فقد أرادوا القضاء عليها بالتسمم البطىء . . . فماذا فعل زعماء العرب حينذاك؟

تصريحات . . . تهديدات وعدم اكتراث باليهود حتى بعد وعد بلفور المشهور . .

- لنفرض معك أن هذه أخطاء حدثت فعلاً، فهل نتداركها الآن أم نسكت على فلسطين فتضيع؟؟

- أنسيت يا سليمان أن الجيش الأردني قائده إنجليزى، وأن القوات البريطانية تعسكر هي الأخرى في أماكن كثيرة إستراتيجية؟؟ وهل نسيت القواعد الإنجليزية في العراق والقنال؟؟ وهذه القوات الإنجليزية المسيطرة، هي بنفسها التي سلمت مواقعها وأسلحتها في فلسطين لليهود، وهي بنفسها التي ثبتت

إسرائيل . . . وهى أيضًا المحركة لحكومتنا العربية «المتحمسة» فماذا بقى بعد ذلك؟؟

- ليكن سنرغمهم على التراجع بقوة مقاومتنا . .

- الإنجليز هم الذين أرادوا التقسيم، وهم يعرفون مدى استعداداتك، ويفهمون نوايا زعمائك الحاكمين لكثرة التعامل معهم . . فهل تظن سيتركوننا نفعل كما نشاء؟؟ فسكت عمى ليرى ما أقول، لكنى لذت بالصمت، فقال:

- هذا ما لا أظنه مطلقًا.

- شىء محير حقًا . .

- بقيت نقطة مهمة وما أظنها فاتتك . . .

- ماذا؟؟

- من أين يجىء السلاح لجيشنا وللجيوش العربية يا سليمان؟؟

- من إنجلترا طبعًا.

- وهل تعتقد أن إنجلترا ستعطينا ما نريد من السلاح؟

- ولم لا ما دمنا سنعطيها ثمنه؟؟

- إنجلترا ليست مجنونة لدرجة أنها تسلحك تسليحًا كاملاً، ففى ذلك كارثة عليها وعلى وضعها هنا، فلا بد أنك ستوجه هذا

السلاح يومًا إلى صدرها إذا ما رفضت الجلاء عن بلادنا، ولأنك ستضرب اليهود بهذا السلاح، وهم أصدقاء الإنجليز وعملاؤهم.

- فلنشترِ السلاح من أى دولة أخرى.

- يوم أن يحدث هذا فثق أنك قد أصبحت حرًا فعلاً..

- عجبًا، ما الذى يمنع الحكومة من ذلك؟

- لأن فى ذلك مقامرة ببقائها فى الحكم، وخطرًا على سيد البلاد ومولانا صاحب الجلالة يا سليمان.

وأخذت أفكر فيما يقوله عمى فبدا لى منطقيًا معقولاً، وسمعته يقول:

- فعلاً سيتحرك الجيش المصرى نحو فلسطين... هذا ما شهادته فى المعسكرات التى أقوم فيها، لكن النتيجة ماذا ستكون؟؟ سيذهبون بسلاح لا يصلح لأن يحمله خفراء القرى، فلا استعدادت تذكر، ولا قوة يعتمد عليها، إن الذهاب إلى فلسطين فى نظرى مغامرة انتحارية ليس إلا...

وتذكرت حينذاك أفواج الشباب وهم يشتعلون ثورة وحماسة، وتذكرت سعيد حافظ زعيم مدرسة طنطا الثانوية الجديدة وقد أتى من طنطا على رأس مدرسته فى المؤتمر:

«ما مصير هذه الطاقة القوية التى فى صدور الشباب حين تنكشف لهم هذه الحقائق المخزية التى يرويها عمى؟؟ وهل هم يؤمنون حقًا بأن الزعماء والملك والاستعمار جبهة واحدة ضد إرادة الشعب:

ثم صحت قائلاً:

- ما دام الأمر كذلك يا عمى فيجب أن نثور . . . نثور بكل قوة من أجل فلسطين، ومن أجل مصر والعراق و . . . فكلنا ضحايا، ونثور ضد الإنجليز وضد من ينتمون إليهم بيننا .

- هذه مسألة كبيرة . . . وطريق طويل . . . طريق وعر، وهيهات أن يتم بين يوم وليلة . .

- إذًا فستضيع فلسطين يا عمى، وسيحمل جيلنا هذه التبعة . . أو قل الخزى والعار أمام الأجيال المقبلة .

- من يدرى؟؟ لعل الأقدار ترسم طريقًا آخر، وعلى كل حال لا بد من هذا الحماس الشعبى، ولا بد من دخول الجيش أرض فلسطين، ولا بد من هذه الحركة وهذا الوعى رغم ما فيه من مخاطر، فهذه كلها تجارب، ومعارك لا بد من خوضها، وبغيرها لن يصفو معدننا من الكدر، وتنتقى صفوفنا من المستغلين .

●●●

ودخل الجيش فلسطين، وتواترت الأنباء، وصدرت البلاغات الحربية، وامتلأت أعمدة الصحف والمجلات بقصص البطولة وآيات الفداء، وأخذت أشك فى كلام عمى وتحليله للموقف. . . فكيف أعلل هذه الانتصارات الداوية؟؟ ولِمَ لا يقف الإنجليز فى طريقنا أو يضعوننا من الخلف؟؟

شىء واحد كان يؤلمنى ويغيظنى فى الوقت نفسه. . . لم تكن حالة القاهرة ومظاهرها تدل على أننا نخوض معركة جبارة، اللهم إلا أولئك المتجمهرين من أفراد الشعب الكادح وهم يتجمعون حول أجهزة الراديو وقت النشرات الإخبارية، فيستمعون إلى البلاغات الموجزة، وغالبًا تكون هذه البلاغات مشرفة طبقًا لما ترى القيادة، فيمضى المستمعون وهم شاكرون لله، حامدون هذا النصر. .

كانت المعركة تدور فى فلسطين، لكن القاهرة كانت هادئة وداعة جميلة. . مسارحها مضاءة، ودور اللهو والسمر مكتظة بالرواد، والحفلات الخيرية وسيدات المجتمع الراقى، ومآدب الأمراء والوزراء، أخبارها لا تخلو منها جريدة أو مجلة. .

ومع ذلك فقد كانت أخبار الحرب تقر عينى، وترضى الكثير من طموحى وكبريائى. . . قلت لعمى وفى صورتى رنة الفرح والنصر:

- ألا ترى هذا النصر المتلاحق؟؟ ماذا تقول فيه؟؟ هاهم الإنجليز لا يتكلمون ولا يحركون ساكنًا، بل ينظرون إلى كفاحنا المجيد نظرة المتوجس الخائف، ولا يسعهم إلا أن يحنوا رءوسهم لانتصاراتنا..

- وهل أنا أكره النصر لجيوشنا يا سليمان؟؟ سامحك الله..

- كلا يا عمى.. ما قصدت ذلك، وإنما أردت أن أقول لك أن الاستعمار كثيرًا ما يطأطئ رأسه أمام إرادة الشعوب.. فماذا يعمل الإنجليز الآن؟؟ إن الشعوب ثائرة متمردة، والجيش فى تقدم. ومتطوعى الدول العربية يعملون جنبًا لجنب مع الجيوش..

- أنت لا تعلم شيئًا يا سليمان عن القطارات المحملة بالمئات من القتلى والجرحى والتى تفد إلى القاهرة تحت ستار الظلام، وليست المسألة أمرًا هينًا سهلاً، ولقمة سائغة نبتلعها، ولكنها حرب... حرب.. ألست معى؟؟

- بلى لكن لا بد للحرب من ضحايا كثيرين، وهذا شيء لا يدعو إلى القلق واليأس، فلن تتحقق أطماعنا ونحن ننعم بالنوم العميق..

- على كل حال، القضية أمام هيئة الأمم، وأحاديث الهدنة يتردد صداها فى أنحاء العالم، ومن هذه الثغرة -أعنى الهدنة-

ستتسرب ألاعيب الاستعمار، ويقوم الإنجليز بدورهم على أكمل وجه . .

- كيف ذلك؟؟

- ستكون الهدنة -إن حدثت- فترة لتسليح إسرائيل ولم شعثها، وقد تكون فرصة أيضًا لبذر بذور الخلاف بين بعض الدول العربية، وهذا كثيراً ما يحدث منذ أن دهمنا الاستعمار.

- خذها صريحة يا عمى . . إن كلامك يؤسفنى ويملأ نفسى بالنقمة والحسرة الأليمة . . .

- خير لك أن تعرف الحقائق، وتفهم الموقف كما هو، من أن تخدعك الأباطيل وتسير مغمض العينين حتى تصدمك الحقيقة المرة فتنهار على إثرها.

- سنرفض الهدنة حتى لا يتحقق ما تخافه من الألاعيب . .

- لا بد أن تقبلها لأن ساستك سيقبلونها . .

- إن الشعب سيقف لهم بالمرصاد.

- أنت خيالى، أتظن أن الشعب هو الذى يحكم الآن ويوجه؟؟

- طبعًا، وإلا لما تحرك الجيش تحت الضغط الشعبى إلى فلسطين؟؟

- مهلاً يا سليمان فإن الشعب لا يحكم . . . ألا تعلم أن الحكومة

التى تراها اليوم تحكم رغم أنفى وأنفك، إذ لم تسندها أغلبية ولم يأت بها الشعب، وإنما الملك ورضاء الإنجليز هما سنادها؟؟ دع أسطورة الحكم للشعب، وإن كنت أنا شخصيًا أعتبر أحزاب الأقلية والأغلبية على السواء نسخة واحدة لا يختلفون إلا فى القليل، وما دام الإنجليز بين ظهرانينا . .

- يا عمى لا بد أن هناك شيئًا من الكرامة والحياء يمنعهم من قبول الهدنة هذه المرة، ثم أنهم فى وضع المنتصر، والمنتصر يكون عادة فى يد المصير .

- باسم السلام سيقبلون الهدنة . . وباسم الهدوء والاستقرار فى الشرق الأوسط سيضعون السلاح، ولن يمر وقت طويل حتى تصبح إسرائيل فى حكم الدولة المظلومة المعتدى عليها والتى تستغيث بالضمير العالمى، وسيصير العرب مجموعة من المتعصبين الغاضبين الذين يهددون الأمن والسلام، ولا يكترثون لقرارات المنظمات الدولية .

- مصيبة . . !!!

- بل مصيبة كبرى . .

●●●

الفصل الرابع عشر

كانت تلبس سترتها الحمراء الأنيقة حينما دخلت إلى منزلنا، ثم تلفتت يمنة ويسرة فلم تجد أحدًا غيرى، وهممت أن أدلف إلى حجرتي لكنها أشارت إلى وقالت:

- اسمع يا. . . أنت اسمك أ. . .أ. .

- اسمى سليمان.

- وأنا اسمى «ثريا». . . وفى أى مدرسة أنت؟

- مدرسة الخديوى إسماعيل الثانوية السنة الرابعة.

- أما أنا ففى السنية الثانوية ثانية فصل ثالث. .

- أهلاً وسهلاً. .

بدا لى أنها صريحة جريئة، وكانت صراحتها وجرأتها مصدرًا لقلقى وتفكيرى أيامًا طويلة، وكانت تجيب عن أسئلة لم ألقها إليها. .

هذه هى بدايتى مع «ثريا».

لقد كان منزلها مقابلاً لمنزلنا، وكثيراً ما رأيتها وأنا فى حجرتى المطلة على الشارع وهى تلوح ثم تختفى خلف نافذتها . . .

لم أحاول أن أعمل على إيجاد أى علاقة بينى وبينها، فها هو عمى الدليل الحى، والذى قاسى ما قاسى من جراء الحب وغرور الشباب وأوهام المخدرات.

وكانت صورة فتيات المدن مقترنة فى ذهنى بالتحلل والخلاعة والخيانة . .

كنت أقول لنفسى: «إنهن يمشين فى الشوارع، ويذهبن إلى المسارح ودور الخيالة، ويتراسلن ويتعزلن بصورة فاضحة، وهذا عندي هو الضياع والموت . .».

ورغم أنى كنت مسيطراً على نفسى تمام السيطرة، إلا أنى كنت كثيراً ما فكرت فيها وفى عينيها الخضراوين الضاحكتين دائماً، وفى ثيابها الخفيفة الرشيقة، وفى مشيتها وحديثها وحركاتها، وإنى أعترف أنى كنت أتسلل بنظراتى كى أراها خفية . . والمعروف أن الطريق إلى مدرستها ومدرستى واحد، لذلك كثيراً ما كنت أراها فى الطريق مصادفة وهى ذاهبة إلى المدرسة أو راجعة إلى البيت، فألقى عليها نظرة سريعة خاطفة كأنها غير متعمدة، ثم أنطلق فى طريقى حتى لكأنها لا تعنينى فى كثير أو قليل وبالرغم من ذلك

كنت-وأنا منطلق-أحس كأنى مشدود إليها بخيوط سحرية لا ترى، فأفكر وأفكر . .

وهكذا مرت شهور دون أن أتعدى هذه الدائرة التى رسمتها لنفسى، وكانت «ثريا» فى هذه الأثناء تتردد على مسكننا كى تستعين بخبرة زوجة عمى فى بعض أعمال الحياكة والتطريز التى تتطلبها أعمالها المدرسية. فإذا ما دخلت ثريا عندنا تركت أنا حجرة عمى، وتسللت إلى حجرتى كما كان يحدث دائمًا حينما يأتى ضيوف من السيدات . . لكن هذه المرة التى لقيتنى فيها ثريا ولم تكن زوجة عمى بالمنزل-هذا المرة ضاعفت تفكيرى فيها، وشغلت حيزًا أكبر من وقتى.

لقد سألت عن اسمى ومدرستى، وهى بالتاكيد كانت تعلم سلفًا بالإجابة عن سؤالها، كما كنت أنا بدورى أعلم عنها ما أخبرتنى به فإن دخولها وخروجها عندنا لم يكن لدرجة التجاهل التام من ناحيتى أو من ناحيتها. . . ويظهر أنها انتظرت الخطوة الأولى منى، فطال انتظارها، ولعلها سخطت على، ولعنت جبنى وغبائى وجمودى الزائد وهى التى لا تكاد تمشى خطوة واحد فى الشارع حتى تسمع صفيرًا ذا معنى، أو كلمة غزل رقيقة، أو نظرة متطفلة ولعلها قالت: يا له من فلاح متغطرس لا يحب غير الدروس والطعام والشراب!!!

في اليوم التالى دخلت زوجة عمى إلى حجرتى وقالت :

– خذ يا سليمان هذه الورقة . .

– ماذا فيها ؟ ؟

– مسألة حساب وأرجو أن تكتب الحل على ظهر الورقة . .

فقلت فى دهشة : مسألة حساب ؟ ؟ لمن هذه الورقة ؟ ؟

– أرسلتها ثريا ، لأنها خجلى من مقابلتك رغم أننى قلت لها يا ابنتى إن سليمان مثل أخيك تمامًا . . لكنها أصرت . . .

وضعت الورقة أمامى وأخذت أرمقها بعيون زائغة :

ترى ماذا تقصد ثريا بذلك ؟ ؟ أتخجل منى فعلاً وهى التى كلمتنى بالأمس فى صراحة وجرأة ؟ أتريد أن تختبر ذكائى ؟ ؟ إن هذه المسألة الحسابية سهلة جدًا لا تحتاج لأكثر من نظرة بسيطة من ثريا ، ولا يعقل أنها تجهل حلها . . . لا بأس من كتابة الحل على ظهر الورقة وإرسالها لها حسبما تريد لكى أنتهى من التفكير فى هذا الأمر . . .

وكنت أستعد لصلاة العشاء حينما سمعت زوجة عمى تقول :

– ادخلى يا بنتى . . أخوك سليمان ليس غريبًا عنك . . ادخلى يا ثريا . . وفتحت زوجة عمى الباب ، وقالت :

- ثريا لم تفهم الحل على ما يرام، فلو سمحت تشرح لها الحل مرة ثانية . .

ودخلت ثريا تتعثر فى حيائها وخجلها الذى لا يشبه فى قليل لا وكثير موقفها بالأمس وهى تستفسر عن اسمى وعن مدرستى . .

وأمسكت بالقلم والورقة، وأخذت أشرح المسألة بحماس وثريا تظهر اهتمامها بما أقول، وتقضم ظفر أصبعها الخنصر فى حركة لا إرادية كأنما تتشاغل بذلك عن خجلها . .

وتطورت المسألة بعد ذلك من مسألة حساب إلى سؤال فرنساوى إلى شرح قاعدة فى اللغة الإنجليزية أو حل تمرين هندسة . .

وأصبح جميلاً فى نظرى أن أرى ثريا تودعنى بابتسامة وهى خارجة من عندنا عقب كل زيارة عاجلة، بعد أن تستفسر منى عن شىء يتصل بدروسها، وغمرتنى السعادة عقب كل زيارة أيضًا لأنها كانت تلوح لى بيدها من النافذة، وأصبح من المعتاد أن أذهب إلى المدرسة وأنا على بعد خطوات منها، وقد تدفعنى شجاعتى إلى تصنع الإسراع حتى أمر بها وأحييها تحية الصباح وأمضى فى طريقى فرحًا طروبًا . .

لا بد أننى إنسان مهم . . إن ثريا الجميلة تبتسم لى وتتودد إلى، وأن ملامحها لتنطق بالسرور حين ترانى . . . لم تعد المسائل

الحسابية هى كل ما بيننا . . . أجل . . . لا بد أننى مهم فى نظرها، وأن هناك شيئًا فىّ يجذبها إلىّ . . قد يكون أولئك الذين يعترضون طريقها وهى ذاهبة إلى المدرسة ويسمعونها عبارات الثناء والإطراء، قد يكونون أفرع منى عودًا، وأقوى جسمًا، وأبهى منظرًا . . لكن ليس هذا كل شىء . . ثم تحسست أنفى فى شىء من الحسرة وقلت : صحيح إن الكمال لله وحده . . . يا حبذا لو كان أنفى أصغر من ذلك بقليل . . . وعيناى هما أيضا ضيقتان أكثر من اللازم . . لكن أستطيع أن أحجب هذا الضيق بلبس منظار أسود، وسيضفى على بالطبع شيئًا من الأناقة التى أفتقدها . . والحذاء . . لا لا . . إنه غير لامع، يجب ألا أتركه هكذا مغبرًا أجرب . . قد يكون هذا الإهمال فى بلدنا، أما فى القاهرة وفى شارع الطولونى حيث ثريا فهذا أمر لا يليق بى، ثم إن النظافة من الإيمان . . . وإلى متى أظل أحمل كتبى وكراساتى فى يدى؟؟ يجب أن يكون لى حقيبة أنيقة من الجلد مثل التى يحملها طلبة الجامعة لأنى لم أعد صغيرًا . . . ورباط العنق يجب تجديده والسروال يجب أن يكوى مرة كل أسبوع بدلاً من كل أسبوعين . .

وهكذا بدأ أسلوب حياتى يتغير شيئًا فشيئًا . . .

كنت فى شبه عزلة فى مدرسة الخديوى إسماعيل، نظرًا لأنى جديد على هذا الوسط، ولطبيعتى التى لازمتنى منذ الصغر وهى

الهدوء والانعزالية، أما الآن فقد اتصلت بفريق كرة القدم وانضممت إليه، فكثر معارفى. ولقد كان هؤلاء الأصدقاء يتكلمون عن مغامراتهم الغرامية، وعن صيغة الخطابات التى يكتبونها. وذات مرة وقعت فى حرج شديد.. كان لا بد أن أشاركهم فى حديثهم، وأقول شيئًا عن خصوصياتى حتى لا يظنوا أنى فلاح ساذج لا يعرف شيئًا عن القاهرة ولا حياتها المتحضرة، فاستجمعت قواى، وخفق قلبى، وارتعشت أناملى وأنا أقول لهم:

- لقد تبعتها اليوم وهى فى طريقها إلى المدرسة-وكنت قد رسمت خطة محبوكة لذلك طول الليل-ثم اندفعت اليها وقلت لها:

- صباح الخير... وفركت يدى مزهوًا بما قلت.

فقال «فخرى» زميلى:

- وبعد ذلك ماذا حدث؟؟

- لا شىء..

فقهقة الزملاء، وضحكوا طويلاً، وقال أحدهم ساخرًا:

- أنت شهم يا سليمان...

وقال آخر:

- يا دون جوان يا عجيب.

أما الأخير فقال:

- أنت طيب القلب جداً يا سليمان . . . أترسم خطة محبوكة، وتفكر طول الليل، وتندفع نحوها بشجاعة لكى تقول لها فقط: صباح الخير؟ لقد حسبتك قد طوقتها بذراعيك القويتين أيها البطل، وأشبعتها لثماً وتقبيلاً كما كان يفعل الفرسان.

فقلت في دهشة: لثماً وتقبيلاً؟؟ هل جننت؟؟ فعادوا جميعًا للقهقهة والسخرية، ومد «فخرى» كفه بحركة مسرحية، ومر بها على وجهى ثم على وجهه وهو يقول:

- اللهم اجعلنا من بركاتك يا شيخ سليمان يا عبد الدايم. . ثم واصل قوله: أنت درويش يا أبا داود.

فرد الزميل الثانى:

- يا سليمان الحب فن عميق وجميل فى الوقت نفسه، ولا يعترف بهذه الطرق العذرية وذلك الخيال الأجوف. . . فلا حب بلا تقبيل يا سيدنا الشيخ. . . أما الحب على طريقة «صباح الخير» المجردة فهذا عبث وضياع وقت. . أنت فى القرن العشرين. .

وشعرت بالعرق البارد يتصبب على جبينى، والحيرة تطبق على من كل سبيل، وكنت أسأل نفسى: هل الحب على هذه الصورة التى يزعمونها من مستلزمات القرن العشرين، وعلامة من علامات التحضر والمدنية؟ . .

●●●

كان والد ثريا موظفًا صغيرًا فى قسم تموين الخليفة قد علا رأسه الشيب، لا يحمل من المؤهلات غير الابتدائية وكانت أمها من أسرة رقيقة الحال مثل زوجها، ولم ينجب غير ثريا. . لهذا كانت ثريا مدللة لا يرد لها طلب، ولا تمنع عنها حاجة منذ طفولتها حتى الآن-أى السادسة عشر من عمرها. . .

وكان مسكننا من حجرتين واحدة لى والثانية لعمى وزوجته. . وفى حجرتى الخاصة قد تمدد سرير متواضع، وكرسى خشبى خلف منضدة غير متماسكة تمامًا، ودولاب صغير للملابس والكتب، وفى النافذة طبق معدنى وضعت فيه قلة من الفخار. . .

ورغم أن حى «قلعة الكبش» من أول الأحياء القديمة الشعبية، ومبانية من الحجر الجيرى الكبير الأحجام ورغم الضجة والضوضاء التى لا تخمد ليل نهار، والتى ضايقتنى كثيرًا بادئ ذى بدء، رغم كل هذا فقد شعرت بكثير من الراحة والاستقلال، وكنت أكتفى طوال العام بمراسلة والدى، ورفيق الشباب والطفولة سعيد حافظ. .

وفى تلك الليلة نفسها جلست أفكر فيما قاله فخرى وزملائى فى تعليقاتهم الساخرة على قصة حبى، وخيل إلىَّ أنى ضئيل تافه. . .

صحيح أنى أحسن الفهم لدروسى، مواظب على دراستى، دمث الأخلاق كما يقولون، لكن يظهر أن تمام الرجولة أن أحب.. أحب بالمعنى أو المفهوم الذى يريده فخرى...

ورميت الكتاب من يدى، وأخذت أردد النظر بين المنضدة العارية والسرير والدولاب المفتوح، ثم ضربت بيدى على المنضدة وقلت:

- الأمر بسيط... ماذا علىّ لو زعمت لفخرى وزملائه أننى قبلتها تسعًا وتسعين قبلة، وأننا تناجينا وتساقينا كئوس الهوى و... و... لكن هذا كذب صريح، قد أستطيع أن أخدعهم، غير أنى لن أستطيع خداع نفسى، بل سأزداد تضاؤلاً وتفاهة... ماذا أعمل؟؟ إنهم يحرجوننى ويعتقدون أنى ناقص الرجولة لا أعرف شيئًا عن الحب، ومغامراته، فلأخلص نفسى بأكذوبة... أكذوبة واحدة... وأضع حدًا لهذا الأمر..

وصمت قليلاً ثم استطردت!.. ما هذا الانقلاب الذى يشملنى؟؟ لم لا أسير على النهج الذى كنت أسير عليه فى طنطا. وأنأى بنفسى عن هذه الأجواء، أجواء الحب والمغامرات التى لن أجنى من ورائها إلا اختلاف الأكاذيب، وضياع الوقت، ووجع الرأس؟؟..

ثم برقت فى رأسى فكرة شيطانية . . .

- إنى شاب ولى عواطف وقلب وغرائز . وكبتها مدعاة للعقد النفسية والأمراض الخطيرة، كما قرأت فى المجلات . . فلم لا أتوسع فى علاقتى «مع ثريا» على أساس سليم لا ينافى الضمير، من يدرى لعلى أتزوجها، هذا خير من نكوصى على عقبى، وأشرف من اختلاف الأكاذيب، وأرضى لغرورى ومطامعى . . . لكن هذا حرام . . . والنساء شياطين، وكلمة «علاقات على أساس سليم» مطاطة جدًا، وقد تقودنى إلى الهاوية، أو تعرقل نشاطى الدراسى فأصبح مثل عمى الذى كان يحمل على ظهره مواد البناء، وعلى رأسه الخبز للبيع؟؟ لكن . . لكن أنا مبالغ فيما أزعم، فالحب لن يعطل دراستى أو يضيع من وقتى كثيرًا، فأنا أؤدى بذلك وظيفة طبيعية ولدت معى، وقام عليها الكون، واستقامت بها الحياة، وكم من رجل ناجح وراءه امرأة . . !!!

ودار رأسى من كثرة التفكير، وشعرت بصداع شديد، فانتصبت واقفًا وقلت :

- أستغفر الله العظيم . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . يظهر أنى نسيت أبى الكادح تحت حرارة الشمس الحارقة، ونسيت أمى المريضة، ونسيت بيتنا الذى فقد كل مقومات حياته الزراعية، حتى

الطنبور والبقرة والأفراخ . . أأتكلم عن الحب والغرام؟؟ لعنة الله على شيطاني . . وعلى خيبتي التي لم يضارعني فيها أحد .

ولم أستطع ليلتئذ أن أذاكر كلمة واحدة ؛ لأن طيف ثريا كان يتراقص بين سطور الكّتاب ، ويتهادى فى خيالى مرحًا جذابًا ، وسخريات فخرى ترن فى أذنى وتقلق بالى ، وتجرح كبريائى جرحًا عميقًا ، وتذكرت أن أحد الأعياد القومية بعد أيام ، فجرت أمام خيالى صور متلاحقة زاهية طالما حلمت بها . . . فتى وفتاة يسيران فى ظلال أشجار حديقة «الأورمان» أو يستمتعان بالعيد فى طرقات حديقة الأندلس ، أو يتنسمان هواء النيل عند الأصيل فوق كوبرى قصر النيل والناس ينظرون إليهما فى غبطة ممتزجة بالحسد ، فلماذا لا أكون أنا وثريا على هذه الصورة؟؟ ويا حبذا لو رآنى فخرى وزملاؤه فهم لا شك سيكنون لى أكبر قدر من الاحترام ، وسيعلمون من أنا ، وسيعلمون أنى لست درويشًا ساذجًا أو فلاحًا غبيًا جبانًا . .

وراقتنى الفكرة ، وبدت لى سهلة ممكنة ، فهى أقل خطورة مما يتحدث عنه فخرى من قبلات ومصائب كبرى ، وثريا لن تمانع فى ذلك لأنها ترتاح إلى إن لم تكن تحبنى ، ولا بد أنه يسرها الخروج فى هذا العيد لتستمتع به على صورة طيبة ، فلا يعقل أن أباها الشيخ أو أمها التى لا تغادر البيت إلا لمامًا ، لا يعقل أن يذهب أحد منهما معها إلى «الأورمان» أو حديقة الأندلس فى هذا اليوم . .

أجل فكرة جميلة!!! لكنى لم أجرب مثل هذا العمل فى حياتى قط، ولا شك أنى سأرتبك أمامها، وقطعًا سأتلعثم وأضطرب، وهى: أما أن تشفق على وتلتمس لى المعاذير، أو تفجع فىَّ، وتنهار آمالها بالنسبة لى...

مهما كان لا بد أن أجرب، والحياة تجارب، وسيكون عندى فرصة طيبة لإعداد الموضوعات التى ستتكلم فيها، والأماكن التى سنزورها، والمطعم الذى سنتناول فيه غداءنا الشهى، وربما تسنح الفرصة فنسجل لهذا الذكرى صورة شمسية جميلة تجمعنى وإياها، وتكون هذه الصورة بمثابة الوثيقة الكبرى، الوثيقة المهمة التى تجعلنى محبًا من الطراز الأول، ولن يستطيع فخرى وزملاؤه أن يسخروا بى، بل سأنظر إليهم نظرة فيها الزراية والشماتة بهم، وفيها النصر المؤزر لمجهوداتى المتصلة، ففى هذه المرة لن يكون الأمر مجرد خطة لكى أستجمع شجاعتى وأقول: «صباح الخير» لا بل سيكون الأمر أكبر وأخطر من ذلك... لا داعى للتأخير، فلأبدأ فى تسطير خطاب لها منذ الآن... أين الورقة والقلم؟؟ لا... إن القلم الرصاص لا ينفع، بل إن هذه الورقة من الكراس وهذا لا يصح، لا بد أن أكون سليم الذوق حسن الاختيار... ورقة خضراء معطرة، وقلم حبر أنيق، ثم أبدأ فى الكتابة، هذا هو الواجب...

والآن ماذا أكتب . . . ؟؟؟

وأخذت فى تقليب صفحات كتب الإنشاء والأدب العربى لعلى أجد شاعراً أو كاتباً كان فى موقف مثل موقفى، وهتفت قائلاً :

- جميل . . . إن قصيدة «ابن زيدون» فى «ولادة بنت المستكفى» رائعة حقًا . . . لكن معانيها قد تكون صعبة على «ثريا»، فلا بد إذًا من شرح الأبيات لها حتى تفهمها حق الفهم . .

وأخذت أقرأ القصيدة مراراً، لكنى تبينت أنها خليط من الشكوى والعتاب والاستعطاف وذكريات الماضى، وليست فيها كلمة واحدة عن الأورمان أو حديقة الأندلس أو اليوم الذى سأدعوها فيه . . إن حالة ابن زيدون لا تنطبق على حالتى، فلنجرب قصيدة شوقي وهى أحدث وأسهل من قصيدة ابن زيدون .

الله أكبر يا شوقى . . !!! إنك أمير الشعراء حقًا . . . نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء . . . أجل أجل . . لقد تبادلنا النظرات والابتسامات وأيضًا السلام وقليلاً من الكلام، ولم يبقِ إلا الموعد ثم اللقاء من بعده . . . لكأن شوقى كان يصور حالتى تصويراً صادقًا، ويرسم لى الطريق الذى دلتنى عليه الفطرة، وساقتنى إليه الأقدار، لكن هذه القصيدة أيضًا لم تشر إلى المناسبة التى سنلتقى فيها . . .

لا بأس من أن أكتب مقدمة الخطاب شعراً ثم أتبعه بقليل من النثر، وفى الإيجاز ما يغنى عن الإطناب.

لكن قبل هذا وذاك إعطاؤها الخطاب، وهذه مسألة عويصة فعلاً.. هل أعطيها إياه فى كتاب الحساب أو الإنجليزى مثلاً إذا ما أرسلت للاستفسار عن شيء؟؟ لكن قد لا تأتى ثريا فى هذه الايام القلائل المقبلة فتضيع الفرصة، وقد يقع الخطاب فى يد زوجة عمى منيرة أو فى يد والد ثريا فتحل الكارثة... أأعطيه لها يداً بيد؟؟ هذا لن يحدث مطلقًا لأنى لا أملك الشجاعة الكافية لذلك، فأنا ما زلت أهتز وأرتبك أمامها، رغم ترددها علينا، وهذه ناحية نقص تؤرقنى وتؤلمنى... أأسير أمامها فى الطريق وأتركه يسقط فتلتقطه وينتهى الأمر؟؟ كلا، فقد يرانا أحد فلا نجنى سوى الفضيحة.. إذاً ليس أمامى سوى وسيلة واحدة... وهى إرسال الخطاب عن طريق المدرسة.

●●●



الفصل الخامس عشر

كنت أقرأ فى خطاب وصلنى من سعيد حافظ، وكان سعيد يتحدث فيه عن أشواقه وعواطفه نحوى، ويصف المظاهرات التى يقودها فى المدرسة، وأخبرنى أنه عازم على التطوع فى صفوف المجاهدين فى فلسطين . .

دخل عمى وأنا أقرأ فى الخطاب فقال :

- خير إن شاء الله . . . ماذا عندك من أخبار؟

- إنه خطاب من سعيد حافظ . .

- أما زال زعيمًا فى المدرسة وقائد المظاهرات؟؟؟

- ليس هذا فحسب، بل إنه عازم على التطوع فى حرب فلسطين . .

فابتسم عمى ابتسامة شاحبة وقال :

- قل له يوفر على نفسه هذا المجهود .

- كيف؟ إنه يريد أن يجاهد في سبيل الله فلا مانع في نظرى من ذلك . .

- لقد قبلت حكومات الدول العربية الهدنة اليوم، وسيقف إطلاق النار خلال هذا الأسبوع، ومعنى ذلك انتهاء فلسطين.

- أصحيح ما تقول . . ؟؟

- طبعًا، أتستغرب ذلك؟؟

- لقد انتصر اليهود أخيرًا، بعد أن نقضوا الهدنة السابقة مرات ومرات . . .

- بل انتصرت السياسة البريطانية والأمريكية . .

- يا للعار . . . !!!

- وأى عار يا سليمان!! إنها سبع حكومات عربية مقابل دولة صغيرة.

- لشد ما آلمنى هذا الخبر وحطم آمالى . .

- ثق أننا-كشعوب-لسنا ضعفاء، وإنما نحن فى حاجة إلى قادة مخلصين يرسمون لنا الطريق السليم، ويؤمنون بحق الشعوب، ويعفون عما فى أيدى المستعمرين من إغراءات.

- إنها جريمة أيضًا يا عمى أن نلقى بقيادنا لمن يبيعون ويشترون فينا،

دون نظر إلى شـرف أو قـومـيـة عـريقـة يجب أن يصـونوها من العبث.

- هذه فترة كثيراً ما تمر بحياة الشعوب، فتخرج منها وقد تعلمت الكثـير ورأت وقـاست مـا لا يسـتـهـان به، لكن بعـد ذلك تأتى الحـرية... الحـرية التى نعض عليـهـا بالنواجـذ، ولا نفـرط فيها... وماذا تظن الاستعمار يفعل بنا..؟

- أليس له سياسة غير التحطيم والتمزيق والتمكين لنفسه؟

- هذه هى الحقيقة..

- لكن على أي أساس قبلوا الهدنة يا عمى؟؟

- على أسـاس الأسلحـة الفـاسـدة التى لا تقـدم فى المعـارك، بل تؤخر، وعلى أسـاس أوامر السراى التى تأبى إلا أن تكون قيادة الحـزب من القـاهرة لا من فـوق أرض فلسطين. وعلى أسـاس الفساد الذى عم كل الأنحاء.. هذا هو الأساس الحقيقى، لكنهم للأسف لا يعترفـون بذلك بل زعـموا أنهم قبلوا الهـدنة الأخيرة باسم السلام، وانصياعًا للقوانين الدولية..

صـدمنى الواقـع المر، وأخـذت أتسـاءل: أهكذا تذهب أرواح المخلصين من أبناء هذه الأمة بلا طائل؟؟ إن قادتنا قـتلة سفاكون، فـهـم سـبب هـذه المجـازر، وهـم الذين أجـرمـوا فى حق هؤلاء

الضحايا . . إما أن سياستهم كانت تنبنى على الدجل والشعوذة، وإما أنهم يحظون بجانب كبير من الغباء والبله!! كلتا الحالتين لا تشرف بل تثير الغيظ وتدفع إلى الألم المحض . .

صدقت يا عمى أن الوطنية كثيراً ما تشوه معانيها، وتستغل استغلالاً فاحشًا فتصبح تجارة رخيصة فى أقذر الأسواق، والسياسة لم تعد إلا مدلولاً على الكذب والرياء والاستبداد .

قلت لعمى: لم لا يتركون عرب فلسطين ومن معهم من المتطوعين يواصلون كفاحهم، ويمدونهم بالمال والسلاح الكافى؟؟ ستكون الهدنة حينئذ حبراً على ورق، وفى الوقت نفسه تكون الحكومات قد قامت-ظاهريًا-بالتزاماتها الدولية الجائرة . .

قال عمى :

- لن يجرؤ رئيس وزراء مصر ولا من هو أعلى منه على ذلك .

- لماذا؟؟

- لأن الأمر لن يخفى على الإنجليز، وبذلك يصبح مصير الوزارة فى كف القدر . .

●●●

زارنا والد ثريا، وأثلجت قلبى هذه الزيارة، فبادرت إلى الترحيب به، والاهتمام بمقدمه، وبالغت فى ذلك مبالغة واضحة،

وبعد دقائق قال الرجل لعمى: «أريدك على انفراد..» وبعد نصف ساعة خرج الرجل من عندنا وعلى وجهه شىء من القلق وعدم الارتياح، وجلست إلى مكتبى لأذاكر بعض الدروس، وخطر لى أن أفتح النافذة نظرًا للحر الخانق، فوقع بصرى على ثريا فى نافذتها، وما إن لمحتنى حتى أنزلت الستارة في غلظة، ولم يفتنى أن ألحظ فى عملها هذا شيئًا من الاحتقار والغيظ...

ولعبت بفكرى الهواجس-ترى ماذا حدث؟؟ وما العلاقة بين ما تفعله ثريا الآن وبين زيارة أبيها؟؟ إنى أحس كأن كارثة قد أوشكت أن تهوى على رأسى، لأنى سيئ الحظ، منكود الطالع فى كثير من أيام حياتى، وتلاشت من مخى صورة النزهة المرتقبة وحلت محلها خواطر سوداء، وقلق مضن متعب. ونمت ليلتى منزعجًا منحرف المزاج، تساورني شتى الأحاسيس، وفى الصباح بكرت بالذهاب إلى المدرسة، ووقفت فى «ميدان السيدة زينب» أترقب مجىء ثريا، فقد أجد عندى الشجاعة الكافية لتحيتها، لأن هذه الجفوة الجديدة التى بانت أماراتها بالأمس، بعثت الحزن فى نفسى، وكثيرًا ما يكون هذا الحزن مدعاة إلى اليأس، واليأس قد يكون سببًا من أسباب الشجاعة الطارئة،.. وطال انتظارى فى «ميدان السيدة» عبثًا، وشعرت بالصداع من كثرة ما تطلعت إلى الذاهبات إلى المدرسة السنية، ومن طول ما تفرست فى وجوههن، لكنها لم تأت.. وهذا يزيد من قلقى... وأخذت أفكر بجد واهتمام..

لكن هيهات . . !! لم يكن من السهل أن أجمع شتات نفسى ، فقلت : «إن كان قد حدث ما يغضبها فمعنى ذلك أننى قد حرمت من ذات الابتسامة العذبة ، والتحية الحلوة ، ولن أجد بعد الآن من أحل لها مسائل الحساب وأجيب لها عن أسئلة الإنجليزى والفرنساوى» . فخيل إلىّ أنى سأفتقد شيئًا مهمًا من مقومات حياتى ، ومصدرًا من مصادر سرورى وسعادتى . وشعرت بأنى فى حاجة لأن أضرع إلى الله عله يتداركنى برحمته ، فلم يفتنى أن أقرأ الفاتحة للسيدة زينب . . .

ومر على «فخرى» زميل الدراسة وأنا فى موقفى هذا فأقبل نحوى قائلاً :

- إلى متى تظل هكذا واقفًا «يا روميو السيدة»؟؟ لكن ، صباح الخير أولاً . . .

- صباح النور . . كيف حالك يا فخرى؟؟

- دعنا من حالى الآن . . نحن هنا . . !! أنت متكدر ، أليس كذلك؟؟ اسمع . . لقد فهمت أنها لم تأتِ اليوم ، وهذا ما يقلقك . . طبعًا طبعًا .

فرددت عليه بفتور :

- ماذا تقصد . . ؟؟ أنا لا أنتظر أحدًا . .

- أتخدعني؟؟ لا داعي للمواربة. لكن اسمع.. إذا كانت قد سببت لك بعض النكد، فهناك عشرات غيرها.. انظر إلى «السنية».. من الظلم أن تربط نفسك بواحدة تقسو عليك..

وفي هذه المرة لم أجد ميلاً لاختلاق المغامرات، وابتداع القصص الغرامية، بل كنت عازفًا تمام العزوف عن كل هذا، زاهدًا فيه أيما زهد، لقد كنت بالأمس أحسب أن في اختلاف الأكاذيب إرضاء لكبريائي، وسدًا لنقص فيَّ، لكني الآن أرى العكس تمامًا، بل أرى من الكبرياء والرجولة أن أسكت وأضم شفتي على ما يعتمل في قلبي الحائر الموزع... وفي طريقنا إلى المدرسة قال فخري:

- أتعلم أن هذا اليوم يستحق مظاهرة ضخمة تجوب الشوارع، وتقلب الترام، ونعطي فيها الشرطة «علقة محترمة»..؟؟

- لماذا؟؟

قلتها وأنا متشوق لمثل هذا العمل شوقًا جارفًا لأول مرة، فقد كنت أتمنى في هذا اليوم أن أغيب عن المدرسة وأعود إلى نفسي أجمع شتاتها، وأعيد إليها هدوءها. فقال فخري على الفور: ألا تعلم لماذا؟؟ لقد وقعت الحكومة الهدنة مع اليهود بصفة نهائية.. الهدنة التي نقضت عشرات المرات، وكما سمعنا أن هذا معناه ضياع فلسطين.

- وما قيمة العمل على قلب الترام وإحراق عرباته وقذف الشرطة بالطوب والأحجار؟؟

- وكيف نعبر عن شعورنا وسخطنا؟؟

- كن فى حالك يا فخرى . . اكتب خطاب غرام لإحداهن، أو اتبعها إلى أحد الشوارع الجانبية، ودع قضية فلسطين لأنك لا تفكر فيها إلا من زاوية تعطيل الدراسة والذهاب إلى روايات الشاشة وتدبير اللقاءات الغرامية . .

- صدقنى يا سليمان، فبالرغم من غرامياتى إلا أنى وطنى أكثر منك، وأقرأ الجريدة كل صباح لعلى أجد فيها ما يستحق التظاهر والإضراب عن العمل، وفى الوقت نفسه يهمنى جدًا حوادث الانتحار من أجل الحب، أو قصص الهرب مع الحبيب، وهذا يبين أنى أجمع بين الاثنين . .

ولم أكن راغبًا فى مجاراة فخرى فى مناقشاته، بل كنت أتشوق لفترة هدوء وصمت أريح فيها أعصابى وأفكارى المكدودة.

وكان قيام المظاهرات فى هذا اليوم أمرًا مستبعدًا، إذ إنه من المحتمل أن يطرب الجميع للسلام الذى سيسود، ولاختفاء شبح الحرب، لكن الشعب كثيرًا ما لا تنطلى عليه مثل هذه الدعاوات والمزاعم، فللشعب حاسة عجيبة يدرك بها خافية الأمر، ولا تفلح حينذاك الطنطنات والأبواق المأجورة التى تدوى فى كل مكان، ولم

يكن هناك دليل على صدق ما أقول غير المظاهرة الكبرى التى حدثت فى مدرستنا وفى غيرها فى شتى أنحاء البلاد . .

وعند عودتي من المدرسة حوالى العاشرة صباحًا-لمحت ثريا وهى تحمل فى ذراعها سلة مملوءة بالخضراوات متخذة سمتها ناحية شارع «الدحديرة»، ووجدت نفسى أندفع وراءها مسلوب الإرادة، وهتفت بها فى ارتجاف :

- ثريا . . . أتسمحين؟؟ دقيقة واحدة فقط . .

فأدارت وجهها إلى الخلف، وما إن لمحتنى حتى تجهمت وبان الغضب فى عينيها ورمتنى بنظرة شزراء، ثم مضت لحال سبيلها، وأنا أتبعها حتى حاذيتها فقلت لها :

- ماذا حدث؟ أرجو أن تردى بكلمة واحدة . .

- ألا تعلم ما قد حدث؟؟

- أقسم بالله العظيم أنى لا أعلم شيئًا على الإطلاق .

- ألم يزوركم والدى بالأمس؟؟

- بلى، ولكن ما صلة ذلك بموضوعنا؟؟

فالتفتت إلى فى ضيق وغضب وقالت :

- كيف تبيح لنفسك أن ترسل لي خطابًا على المدرسة؟؟ بأى حق؟؟ أهكذا تفضحنى أمام الناظرة وأمام زميلاتى؟؟

ثم احتدم غضبها وأوشكت الدموع أن تنفرط من عينيها وهى تقول :

- ألا تعلم أن خطابات الطالبات لا بد من فتحها وقراءتها بمعرفة الناظرة؟

وما إن سمعت هذا الكلام حتى أحسست بقلبى يكاد يسقط من مكانه وأنى أوشك أن أقع إعياء، وتلعثمت خطواتى، فأجبت فى حسرة وبصوت خافت :

- أقسم إنى لم أكن أعلم شيئًا عن ذلك .

فنظرت إلى دهشة ممزوجة بالألم وقالت :

- هذا أمر بديهى لا يحتاج إلى مواهب خاصة، فالرقابة على خطابات الطالبات أمر مفروغ منه .

- آسف، لم أكن أعلم شيئًا عن ذلك بالمرة . . فقالت غاضبة : اذهب بعيدًا عنى . . كفى ما سببته لى وللأسرة من منغصات ومتاعب .

وانطلقت مسرعة وهى تقول :

- ماذا لو كلمتنى بنفسك عما تريد؟؟ أليس هناك من وسيلة سوى الخطابات؟؟

فلحقت بها وأنا لا أكاد أصدق أذنى وهمست فى لهفة :

- ألم يكن هذا ليضايقك؟؟

فقالت نافرة :

- لم يضايقنى سوى غبائك الذى دفعك لإرسال الخطاب على المدرسة .

فسارعت قائلاً : أكنت توافقين لو خاطبتك وجهًا لوجه؟

فحثت خطاها وهى تقول : لا داعى لهذا السؤال، ويكفى أن تعلم أنهم فصلونى من المدرسة لمدة أسبوعين، لسوء سلوكى بسبب خطابك!!!

ولمحت دمعة تتدحرج على خدها، فتثاقلت فى مشيتى حتى أدعها تمضى وحدها إذ لا يصح أن نظهر معًا بعد الآن، أو يجب تأجيل ذلك على الأقل حتى أفهم ما ترتب على ذلك الحادث من آثار، ومن يدرى؟؟ لعل هذا الحادث هو فصل الخطاب الذى سيضع النهاية لعلاقتى الوليدة مع ثريا . . .

وتوقفت عن المسير . . كنت شديد الخجل من نفسى لدرجة فظيعة . . . كيف أقابل عمى؟؟ وبأى وجه ألقى زوجته؟؟ وماذا قال والد ثريا لهما؟

وهل انهارت آمال عمى بالنسبة لى عندما سمع بهذا الحادث

الذى سيترك أثره ولا شك، وتصبح مسألة دماثة خلقى موضع النظر من جديد؟؟ وهل سيفاخر عمى بعد ذلك بأخلاقى واجتهادى فى دروسى أمام زواره وأصدقائه؟؟

وبقيت واقفًا أمام «صيدلية الخضرى» الواقعة فى آخر شارع قدرى باشا، وسياط الندم تلهب ضميرى بلا رحمة فأقول: ليتنى لم أقدم على مثل هذا العمل المخزى... والآن ما العمل؟؟ من الصعب أن أذهب الآن للقاء عمى... هذه مصيبة كبرى حطت على رأسى، لكم أود أن أترك القاهرة بمن فيها وأذهب إلى قريتنا..!! لكن هل هناك مانع من قضاء هذه الليلة عند أحد الزملاء حتى أثوب إلى رشدى وأتدبر أمرى فى روية ورزانة؟؟ هذا غير معقول، فلو حدث ذلك لظل عمى وزوجته طول الليل سهرانين جوابين يبحثان عنى، فأزيد بذلك متاعبهما وإحراجهما... يا إلهى... إنه لشىء مقلق حقًا..!! وظهرت ثريا..

أجل ظهرت مرة أخرى وفى يدها سلتها، ولعلها جاءت لشراء شىء آخر، وكان الغضب ما زال مرتسمًا على وجهها، وخيل إلى أنها كلما رأتنى توشك أن تنهال على ركلاً وصفعًا لولا ما يستتبع ذلك من نتائج، فكانت تنفس عن نفسها بالكلمات القاسية التى توجهها إلى، فقد قالت لى وهى تمر بى فى تلك اللحظة: كنت أظن

أن تحت القبة شيخًا . . . لقد خدعني هدوؤك ورزانتك، فحسبتك أكبر من جسمك وسنك، لكن للأسف لم أجد غير تصرفات أطفال . . .

فغلى الدم في عروقي، وغامت عيناي فلم أر أمامي، وصحت في حنق زائد:

- اسكتي وإلا قطعت لسانك . . . اغربي عن وجهي . ولاحظت ثريا أني قد أتصرف تصرفات غير لائقة فيتورط كلانا فيما نحن في غنى عنه، لهذا لم أكد أتنبه لما حدث حتى وجدتها على مسافة بعيدة مني . . واندفعت على الأثر إلى مسكني غير عابئ بما سيحدث، فقد ملأني شعور بعدم اللامبالاة، وهتف صاخبًا: «ماذا سيعمل عمي؟؟ هل سيعلقني على المشانق؟ لقد فعلتها، وأرسلت لها خطابًا وليكن ما يكون . . ». وكان هذا نتيجة للتفكير الطويل والحيرة المؤلمة التي ألمت بي، ولما لم أجد حلاً سريعًا لهذا الورطة آثرت أن أدع المقادير تجري في أعنتها، وأتقبل النتائج مهما كانت محرجة . . .

لم تتغير معاملة عمي معي على الإطلاق، بل سارت على النهج نفسه السابق . . إن بعض الظن إثم . . كيف صور لي وهمي أن عمي سيغضب ويثور ويفور حتى يكدر عيشي؟؟ إنها الغلطة الأولى، وعمي «فريد» رجل مجرب قاسى الأهوال ومر بفترة الشباب والمراهقة، ولا بد أن كثيراً من الأحلام طافت بذهنه أو

ورطته عشرات المرات فيما هو أقسى من ورطتى، فكيف غاب عنى هذا فأشفقت لدرجة الهلع والجبن؟؟ وكيف فكرت فى الفرار من البيت واللجوء إلى أحد أصدقائى، أو مغادرة القاهرة كلية؟؟

أما زوجة عمى فقد كانت صريحة معى لدرجة كبيرة. ولم تكن كعمى الذى لم يخاطبنى فى الموضوع على الإطلاق، بل روت لى ما حدث بالتفصيل، وفهمت منها أن الناظرة عندما قرأت الخطاب استدعت ثريا وقالت لها:

- المدرسة معهد علم وليست عشًا للغرام يا ثريا..

- وماذا حدث يا حضرة الناظرة؟؟

- خذى هذا الخطاب واقرئيه..

فأمسكت ثريا الخطاب بيد مرتعشة، وجرت فوق سطوره بنظراتها العجلى، ولم تصدق عينيها، فأعادت قراءته مرة ثانية، بينما قالت الناظرة:

- من هذا الـ «سليمان» المتيم؟؟

- لا أعرف عنه شيئًا... لعلها مكيدة دبرها أحد الموتورين.

- لست غبية لهذا الدرجة، فالأسلوب ينبى عن متانة الصلة بينكما وقدمها، فليس الأمر مكيدة كما تزعمين، وإنما حقيقة مرة أوقعها سوء طالعك بين يدى حتى ينكشف أمرك.

- أقسم لك يا حضرة الناظرة أن ليس بينى وبين هذا الإنسان ما يدعو لهذا الشك.

- أنت وباء بين الطالبات، ولن يكون هنا فى المدرسة مكان لمثيلاتك بعد اليوم.

فانخرطت ثريا باكية أمام الناظرة، وهى تقول:

- أنا مظلومة... والله العظيم مظلومة... وما ذنبى أنا إذا كان أحد المجانين قد أرسل لى خطابًا على المدرسة؟؟

هل الملوم هو أم أنا؟؟.

- أنت الملومة طبعًا، فلولا الثقة المتبادلة، والحب المتمكن، لما كتب ما كتب.

- وماذا كتب يا حضرة الناظرة؟؟ إنه يطلب منى الخروج للتنزه فى الأندلس.

- وماذا بقى ذلك..؟؟ نزهة، وبعد النزهة أشياء وأشياء.. يخيل إلىّ أنك ابتدأت فى الوقاحة.. أليس فى النزهة ما يشين؟؟

- ما قصدت ذلك أبدًا، وإنى أؤكد لك يا حضرة الناظرة أن الموضوع لا يتعدى إنسانًا مهووسًا أقدم على هذا العمل الأخرق، ولو كان عاقلاً لفهم أن خطابات الطالبات تحت المراقبة، ولو كنت أنا على صلة به لأخبرته على الأقل بذلك.. فلم تلتفت إليها

الناظرة بل قالت فى غلظة :

- تفضلى بالخروج .

وهمت ثريا بالانحراف ناحية الفصل ، لكن الناظرة صاحت بها : إلى أين؟

- إلى الفصل .

فضحكت الناظرة فى سخرية وقالت : يستحسن أن تذهبى إلى البيت الآن وتطلبى من ولى أمرك أن يحضر إلى هنا غدًا وسأحرر له بدورى خطابًا رسميًا بذلك ، واعلمى أنى لن أسمح لك بالدخول حتى يأتى . . .

وخرجت ثريا كالتائهة ، تسير على غير هدى لا تدرى ماذا تفعل . غاض الابتسام والبشر من عينيها ، بينما كانت تعليقات زميلاتها تطرق سمعها ؛ فمنهن الشامتة التى لا تعرف مجاملة ، والمواسية الرقيقة القلب . . .

وتألم والد ثريا لهذا الخبر حتى إنه فكر فى عدم الذهاب إلى المدرسة ويكفى ابنته ما نالته من العلم ، وما عليها إلا أن تنتظر فى البيت حتى يرزقها الله بمن يصلح لها زوجًا . لكن بكاء ثريا وتوسلات والدتها ، وتفاهة الموضوع دفعه دفعًا لأن يذهب فيقابل الناظرة ، ويتفق معها على فصل ثريا لمدة أسبوعين . . .

وهكذا عاد والد ثريا إلى عمى ليروى له ما حدث، ويشكو له أمرى، ويوضح له أن سمعة البنت من كرامتها، وأن الشائعات كثيرًا ما تؤول وتحور ويستغلها الأشرار فيما يضر . .

قال الرجل لعمى :

- أسمعت عنا شيئًا يشيننا منذ أن نزلت على هذا الحى؟؟

- كلا ما سمعت إلا كل خير، وأنت يا أبا ثريا جدير بما هو أكثر من ذلك!!

- وماذا تعرف عن ثريا؟؟

- مؤدبة وبنت حلال لا شك فى ذلك . . ما السر فى هذه الأسئلة؟؟

- إذًا فخذ هذا الخطاب واقرأه . .

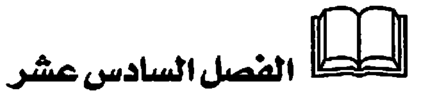
وضحك عمى، وحاول الترفيه عن الرجل، والتهوين من شأن الخطاب وقال :

- سليمان طيب ومؤدب جدًا . وثريا مثل أخته تمامًا، فلا مانع من أن يطلب منها ما طلب، وكل الغريب فى الموضوع هو إرسال هذا الخطاب، فكان من الواجب أن يقصدك أنت، أو يقصد أمها ويخرجا معًا بسلام . .

- لكن هذا الخطاب أثار شتى المتاعب لها فى المدرسة، ولنا أيضًا، وهى لا تفتأ تبكى ليل نهار، وأنت تعلم أن لكل بنت أعداء وحسادًا . .

- على كل حال أنا آسف بدلاً من سليمان، وسأجعله يعتذر ويكفر عن كل ما بدر منه، هذه أول مرة يقدم فيها على مثل هذا العمل، وأنا متأكد أنه سيكون فى غاية الندم عندما يدرك ما حدث . .

●●●



الفصل السادس عشر

قضيت عطلة صيفية طيبة فى هذا العام، ومما ضاعف سرورى أن ثريا هي التى أرسلت إلى نبأ نجاحى، ثم أتبعته بخطاب رقيق تعتذر فيه عما حدث فى أواخر هذا العام، وخاصة أن القطيعة ظلت سائدة بيننا حتى سافرت من القاهرة إلى قريتنا . . . بل إنها قالت إنها تشوقت إلىَّ جداً، وترجو أن أحضر قبل بدء الدراسة بأسبوعين أو ثلاثة . . والحقيقة أنى كنت فى غاية السعادة بهذه الخطابات، أقرؤها، وما إن آتى عليها حتى أبدأ فى قراءتها من جديد دون أن أمل، ثم نسختها فى كراسة خاصة بعيدة عن الأنظار، وبدأت فعلاً فى كتابة مذكرات خاصة لى، معظمها يتعلق بثريا . وكانت هذه الفترة من الفترات الجميلة فى حياتى . . ولطالما حلمت باللقاء بعد هذه الغيبة الطويلة، ورسمت له كثيراً من الخطط، لكنى لم أفكر مطلقًا فى الكتابة إليها، لأنى لم أرد أن ألدغ من جحر مرتين . . .

وأتيحت لي زيارة صديقي «سعيد حافظ» في القرشية، لقد تغير شكل سعيد كثيراً، فأصبح ذا شارب أسود منسق، وذقن حليقة، ورعرع عوده عن ذي قبل، وغدا منظره منظر رجل مكتمل النمو. ولاحظت أن المشاجرات التي كثيراً ما كانت تنشب بين خضرة والشيخ حافظ أصبحت في حكم المنعدمة، وأخت الشيخ حافظ هي الأخرى لم تعد تتشاجر مع خضرة كثيراً، وما زالت كعادتها في انتظار العريس المرتقب، تتزين له بأبهى زينة، وتلبس له أفخر الثياب، وتبحث عنه في كل المظان، لكن يظهر أنها كلما ألحت في طلبه، ازدادت الأقدار عناداً لها.. قلت لها:

- ما هذا الهدوء الذي تنعم فيه الأسرة؟؟

فقالت:

- لا بد أن نستر أنفسنا في «القرشية» فنحن غرباء عنها..

- أظن أن حالة الشيخ حافظ التجارية تحسنت كثيراً، وهذا طبعاً من أسباب الرضا والهدوء.

- صحيح، لكن خضرة تبلع كل شيء في بطنها، ولا أحد يعلم أين تخفي كل ما يصل ليد الشيخ حافظ من مكاسب.

- أتعودين للشجار والغيرة من خضرة؟

- غيرة؟ صلِّ على النبي. ولماذا أغار منها؟ أمن أجل وجهها

الشاحب ذى البروز، أم عيونها التى لا تستطيع فتحها فى الشمس؟؟ أنا أحسن منها ستين مرة، لكى حظى مائل . .

أما الشيخ حافظ فقد أصبح من رواد المقهى البلدى هناك، وسرعان ما وجد له أصدقاء جددًا يحبذون آراءه السياسية، وتعليقاته على الماضي، والوقائع الزاهرة التى كان صداها يرن فى أرجاء العالم فينحنى إعجابا لهلتر ولألمانيا . . .

قلت للشيخ حافظ : إن ألمانيا سيئة الحظ، لم تصب بالهزيمة فحسب، بل قسموها إلى شرقية وغربية . حتى برلين نفسها سيطر الروس على جزء منها والحلفاء على الآخر، إن مثل هذا التقسيم سيقصم ظهر ألمانيا، ولن يتركها لتقوم من كبوتها هذه المرة .

فأبدى الشيخ حافظ شيئًا من الألم والتأثر وقال :

- سبحان من يحيى العظام وهى رميم .

- إن التقسيم وسيلة استعمارية دنيئة .

- لكن تأكد أن كل فريق سيحاول أن يقوى منطقته ويسلحها بأفتك الأسلحة، وهكذا سيخلقون قوتين متضاربتين، ولن يسكت الصراع الدائر بينها إلا إذا التهمت إحداهما الأخرى، وبهذه الوسيلة تعود إلى ألمانيا وحدتها . .

- بعد عمر طويل . . .

- ليكن. . . ، ثم تبدأ دورًا جديدًا فى التاريخ لا يقل أهمية عن دورها فى عام ١٩١٤ ، وعام ١٩٣٩ ، فهذا الشعب لم يخلق ليموت ما دام يعتز بقوميته وأمجاده. . .

- لكن ألا تظن أن مثل هذا الصراع قد يجر إلى حرب عالمية ثالثة، لا تشمل ألمانيا وحدها بل العالم من أقصاه إلى أقصاه؟؟

- هناك حقيقة مهمة يا سليمان. . . إن العالم يبغض الحروب بغضًا شديدًا، والشعوب تريد أن تعيش فى سلام، والزعماء الذين سيحاولون إشعال نار الحرب سيقامرون بمستقبلهم ومستقبل أمتهم. .

- لن يعيش الناس بغير حروب أبدًا. .

- تستطيع أن تسمى هذا مناوشات فى حدود ضيقة كما يحدث بين مصر وإسرائيل مثلاً، أو بين كوريا الشمالية والجنوبية، لكن اتساع المجال حتى يشمل العالم كله، فهذا أمر قد يكون شبيهًا بالمستحيل، إلا إذا أصيب العالم بلوثة جنون.

كنت أستمع إلى الشيخ حافظ وهو يروى هذه الحقائق، فأزداد عجبًا، لقد كان فى الماضى يبدى من ضروب التحمس للحرب والاهتمام بها مبلغًا كبيرًا، بل كان يطرب طربًا للمعارك الدامية فى الحرب العالمية الثانية، أما الآن فقد أصبحت نظرته أبعد، وأمانيه

أسلم، وأصبح يؤمن بالسلام كعقيدة لا بد أن يعتنقها الجميع، وينفر من الحرب وأهوالها. ويبدو أن تقدم العمر به قد أسبغ عليه هذه الصورة الجديدة من الأمل والحب للسلام. . .

قلت للشيخ حافظ:

- وما الحل بالنسبة لهؤلاء الإنجليز الذين يرفضون الجلاء عن ديارنا؟؟

- إن رأيى معروف من زمن بعيد، فهم لن يخرجوا إلا إذا رأوا شعبًا مُصرًا على ذلك، وحكومة لا تستمد بقاءها منهم، وكتائب للتحرير تحرمهم لذة الراحة.

- عدنا لحديث الحرب من جديد.

قلتها وأنا أغمز بعينى، فرد قائلاً:

- ليست حرب عدوان ومطامع، وإنما هى الدفاع عن حق، ورغبة فى الحرية، ولن يستطيع إنسان أن يلومنا على ذلك، بل ستحنى الدول رءوسها احترامًا وتوقيرًا لنا.

- صدقت، هذا عين الحقيقة. . .

- فشلنا فى نهضتنا الصناعية، أتدرى لماذا؟؟

- لماذا؟؟

- بســـبب الإنجليـــز . . . وهزمنا فى فلسطين، وعلة ذلك هم الإنجليز، ثم اختلفنا فى وجهات النظر مع بعض الدول العربية والإسـلاميـة، وليس بيننا فى الواقع مـا يدعـو إلى ذلك، لكن السبب هم الإنجليز . .

- أجل، فهم أصل كل بلاء، ومنبع كل رذيلة وانحطاط .

ثم انحنى الشيخ حافظ نحوى، وهمس فى أذنى قائلاً :

- فى الحقيقة أن الملك هو الآخر عقبة كئود فى سبيل استقلالنا وحريتنا، مثل الخديوى توفيق الذى طعن عرابى من الخلف، وبدلاً من إعطائه حقوق الشعب الدستورية استعان بالإنجليز عليه، وصار ورقة رابحة فى أيديهم . .

- كفاية يا عم الشيخ حافظ . . الحيطان لها آذان . . وأولاد الحرام كثير، وأنت بذلك تطعن فى نظام الحكم الحاضر، وتسب فى الذات الملكية، وتعلم طبعًا العقوبة المنصوص عليها فى القانون .

فضحك الشيخ حافظ وضحكت معه، ودخلت خضرة فى هذا الوقت، ثم التفتت إلى الشيخ حافظ وقالت مداعبة :

- أمرك عجيب يا شيخ حافظ . . . الكلام فى السياسة هو حشيشك وأفيونك . . يا رجل استرح قليلاً من وجع الدماغ، والنبى السياسة ليس وراءها غير الفقر وخراب البيوت والصداع . .

- اخرسي يا خضرة وإلا سددت فمك بطريقتي الخاصة . .

- طول النهار لا يسكت لسانك عن الكلام في اليهود والإنجليز و . . . حتى أفسدت عقل سعيد، ومن آن لآخر يقبضون عليه فيتعطل عن دروسه، والمصيبة أنه كان عازمًا على الذهاب إلى فلسطين ليحارب اليهود، وكل هذا بسببك أنت . .

- اسكتي يا عبيطة . . !! لك الشرف أن يكون ابنك من الوطنيين والمجاهدين في سبيل الله . . . الدنيا فانية يا خضرة .

- غدًا ترى، سيكون مصيره مثل جده تمامًا، وسيمشي هائمًا على وجهه من بلاد الله لخلق الله، وسأفكرك يا حافظ إن كان لي عمر .

- اخرجي من هنا يا امرأة، اذهبي وجهزي «الملوخية» أو اطبخي اللحم أو قشري البصل . . . أنت لا تفهمين شيئًا . .

- كفانا أنت بعقلك النظيف وأفكارك النيرة يا شيخ «حافظ هتلر» .

وتبسم الشيخ حافظ لهذه التسمية القديمة التي كنا نطلقها عليه في حارتنا، ولم تخرج خضرة حسبما أراد لها بل قالت :

- ما رأيك يا شيخ حافظ، سليمان أصبح عريسًا محترمًا، وأنا أخاف أن توقعه بنات مصر في شباكهن، فيقع في ورطة لا يفلت منها أبدًا . .

- وماذا تريدين له؟؟

- إنى أتمنى أن نخطب له من القرشية هو وسعيد كل واحد منهم عروسة حلوة وبنت ناس كرام . . أحب أن نفرح بهم قبل أن نموت .

- يا خضرة لا داعى لهذا الكلام الفارغ . . سعيد وسليمان لهما مستقبل أهم من الزواج، ثم إن زواجهما مسألة تخصهما وحدهما، فهما صاحبا الشأن، وما زال أمامهما فرص كثيرة جدًا . .

فشردت بأفكارها حول «ثريا»، وحول نافذة بيتها فى شارع الطولونى، وتبدى لخيالى ألوان وسيمة جملية استراح لها قلبى، وهفت إليها روحى، لكنى صحوت منها على صوت خضرة وهى تقول :

- آه يا سليمان . . . لو عاشت بسيمة لزوجتها لك . . كانت تحبك وكنت تحبها، وهل كنت تجد لك صهرًا أحسن من سعيد ومن عمك الشيخ حافظ .

ثم تنهدت قائلة : آه يا حبيبتى يا بنتى .

وسرعان ما سادنا وجوم، وحزن ألجم الشيخ حافظ فلم ينطق بكلمة، واغرورقت عينا خضرة بالدموع، بينما شعرت أنا بشىء

من تأنيب الضمير وقلت لنفسى : لقد تنكرت لذكرى بسيمة ، وأحببت غيرها ، أصبحت ثريا حلم شبابى ، بعد أن كانت بسيمة جنة طفولتى وصباى . . . إن الناس قد طبعوا على عدم الوفاء . . لكن كيف أعيش راهبًا بعد أن اختفت بسيمة من الوجود على ما يبدو؟؟ هذا عمل خيالى لا يعقل . . لقد كانت طفلة وكنت طفلاً ، وأحببتها فعلاً ، بل ولن أستطيع نسيانها ، غير أن التعلق بها رغم ما حدث ، والشعور بالجريمة لأنى أحببت غيرها عمل لا يليق ولا يصح . . وعادت إلى صورتها الوادعة الباسمة ، وسذاجتها اللطيفة ، وغضبها منى حينما عدت إليها من «ميت غمر» بلا حلوى ولا فواكه ، ففاضت مشاعرى ، وأحسنت بميل للبكاء . . .

●●●

فى المساء خرجت مع سعيد قاصدين المقهى القريب من شريط السكة الحديد ، وبينما كنا نخرج زجاجات «البيبسى كولا» قال سعيد :

- أين أيامك الحلوة يا أبا داود؟

- لقد تشوقت إليك كثيراً يا سعيد ، ويعلم الله مدى تلهفى على خطاباتك فى القاهرة . .

- لا . . لا يا سليمان . . لقد اتضح لى أنك مهمل جداً . . ألم نتفق على أن ترسل لى خطابًا أسبوعيًا وأنا كذلك؟؟ وحافظنا على هذا

الاتفاق لمدة شهر، وبعد ذلك أصبح الخطاب لمدة أسبوعين، ثم كل ثلاثة أسابيع ثم شهريًا، وفى آخر العام لم ترسل خطابًا إلا بعد مرور شهرين ونصف. . . يظهر أن القاهرة قد صرفتك عنا بجمالها. . . إن من يلتقى بأحبابه ينسى أصحابه.

- لا يا سعيد، أنت الصاحب والحبيب وكل شىء، ولن تتساوى معزة أى إنسان بمعزتك عندى مهما كان.

فقال سعيد بدهاء:

- إذًا فلا بد أن هناك إنسانًا ما تعتز به، وينافسنى فى منزلتى لديك. .

فابتسمت وأنا أجرع ما بقى من المشروب الغازى. . لقد كنت أشعر بميل عجيب إلى الإدلاء بكل تفاصيل قصتى مع ثريا. . . كنت سعيدًا فخورًا وأنا أروى لسعيد كل شىء، وكنت أشعر أن هذا مما يزيد من سعادتى ومركزى، أما هو فقد استمع إلى فى شىء من الدهشة، ثم هز رأسه وقال:

- الله يجازى شيطانك يا سليمان. . . لقد كنت أظنك وليًا من أولياء الله الصالحين، فإذا بك غارق فى الغرام حتى قمة رأسك.

- ما أنا إلا بشر يترجم عن مكنون مشاعره وعواطفه.

- طبعًا، لا بد أنك ستفلسفها، وتقنعنى بما أقنعت به نفسك.

- أؤكد لك أنه ليس فى علاقتى مع ثريا ما يشين أو يدعو للشك.

- اليوم خمر وغداً أمر.. وهذه المسائل يا حبيبى تتطور دائماً ولا تنتهى بالنسبة لأمثالنا إلا بورطة أو مأساة دامية..

- أوه.. إنك تبالغ.. ولعلى لا أذيع سراً إذا قلت لك إنى أحبها من كل قلبى، وأنوى الزواج منها بعد التخرج.

- مسكين يا سليمان.. إن حالتك هذه- على ما يبدو-مستعصية جداً..

- هذه فرصة يا سعيد، ويخيل إلىّ أنى لن أجد فى مستقبل أيامى من ستكون زوجة صالحة جديرة بى غيرها... إن ثريا هدية السماء إلىّ.

فضرب سعيد كفاً بكف وهو يقهقه وقال:

- لقد سحرتك «ثريا» يا سليمان.. والعوض على الله...

فاعتدلت فى جلستى وقلت فى جد واهتمام:

- دعنا من هذا وقل لى عن حبك أنت... لا تخفِ عنى شيئاً..

فاتخذ سعيد هيئة الجد والاهتمام وقال:

- اسمع يا سليمان... هاك قصة غرامى بالتفصيل.

- قل، وأتحفنا..

- أنا لا «أحب» إلا السياسة وأحاديثها، وليس أعذب إلى قلبى من ذكريات ليلة قضيتها فى السجن. لقد صرفتنى هذه الأحداث عن أمثال ثريا، فوجدت فيها كثيراً من العزاء والأعمال التى شغلتنى.

- هذا جانب واحد، فأين الجانب الثانى؟؟ لماذا أغفلته؟؟ لا تحاول أن تحولنى عما أريد معرفته، فلست أنت بحجر حتى تعيش بلا قلب...

- لن تصدقنى، لكن والله تلك هى الحقيقة، أما الجانب الثانى الذى تشير إليه فأعتقد أن له وقته، قد يكون غداً لا أعلم، والآن أما زلت لا تصدقنى؟

- أتعتقد أنك ستظل متحكماً فى نزعاتك إلى هذا الحد؟؟

فهز سعيد رأسه دون أن يجيب...

لم يكن يجانب الحقيقة وهو يلقى على سمعى باعترافاته هذه، لأنها كانت تنطبق على طبيعته الثائرة، وأطماعه الوطنية، وبدا لى أن هناك أمراً ترك أثره فى حياة سعيد... فالنساء إما مشاغبات لا يهدأ لهن شجار مثل عمته، وأمه، وإما ثرثارات نمامات مثل نساء حارتنا اللاتى كن يتحدثن عن «بسيمة» الخادمة، وعن الشيخ حافظ الذى لا يجد قوت يومه له ولأولاده...

●●●

الفصل السابع عشر

فى عام ١٩٥٠ كانت مصر كلها فى شغل شاغل من أجل الانتخابات . .

كانت المعركة حامية الوطيس فى قريتنا بسبب انقاسمها إلى شطرين : الناحية الشرقية ، وهى تؤيد حزب الوفد وتؤمن به . والناحية الغربية ، وهى تعطى أصواتها لمرشح الحزب السعدى . ولقد اتخذت المنافسة صورة عنيفة ، لكنها مألوفة ، فلقد دارت المعارك الدامية بين شطرى القرية الواحدة ، فسقط الجرحى والقتلى ، وأتلفت المزارع بالأفدنة ، وأحرق كثير من البيوت والسواقى . لم يكن هذا الصراع يعطى غير معنى واحد قاسٍ غاية القسوة ، وهو أن أهل هذه القرية فيما يبدو قد انقسموا إلى ألمان وإنجليز ، أو عرب ويهود ، وتناموا الأرحام والأواصر ، والصفات الإنسانية ، وكانت هذه الأعمال المزرية تلقى تشجيعًا كبيرًا من (س . بك) . مرشح الدائرة ، والنائب القديم ، وكان يمدها بماله

ويتشجيعه الأدبي، فيظهر براعته وسلطانه بالإفراج عمن يتهمون في هذه الحوادث . . .

وظلت القرية أيامًا في العزائم والاحتفالات والشربات والوعود الخلابة والهتافات الراعدة، فقد وعدهم (س. بك) ببناء مسجد كبير، ووعدهم بإقامة مستشفى ومدرسة، وبتوظيف العاطلين منهم، وما أكثرهم، تمامًا كما كان يفعل في كل مرة، ووعد الموظفين منهم بالترقية والنقل إلى حيث يريدون . . .

ولم يكن أحد يخرج إلى حلقة أو يمشي في الليل إلا وبيمينه سكين ذات حدين، أو عصا غليظة، أو قطعة سلاح . .

وكان واضحًا أن الانتخابات ليست وسيلة لإبداء الرأي الحر، واختيار الأصلح مسؤولاً على مصالح البلاد، بل سوقًا للاستغلال والمنافسة غير الشريفة التي يستعمل فيها شتى أنواع الأسلحة والمكائد، فإن النجاح هو الغاية وفوز الحزب هو المرام.

قلت لأحد المتحذلقين من رجال قريتنا :

- إن المرشح (س. بك) هذا إنسان متقلب لا مبدأ له ولا عقيدة.

فنظر إليَّ شزرًا وقال :

- ومن أدراك حتى تحكم هذا الحكم الطائش . . ؟؟

- إنه يرشح نفسه دائمًا على مبادئ الحزب الذى ترضى عنه السراى، بل رشح نفسه فى الانتخابات «الحرة» وغير الحرة، فتراه وفديًا أو سعديًا أو دستوريًا أو مع صدقى باشا. المهم أنه ورث الدائرة عن أبيه، ويريد أن ينجح دائمًا مهما كان لون الحكم وحالة البلاد السياسية.

فرد الرجل مغتاظًا وقال:

- وفر هذه الحكم الغالية على نفسك... فأنت لا تفقه فى السياسة حرفًا واحدًا، أتعتقد أنك ما دمت فى التوجيهية تستطيع أن تحكم على مجريات الأمور؟

فأفلت منى زمام نفسى وقلت:

- طبعًا لا تريد أن تعترف بالحقيقة، لأن نجاح (س. بك) يهمك كثيرًا، فالجنيهات التى تقبضها منه كل أسبوع ليست بالشىء الهين.

فهوى الرجل بكفه على وجهى، وأعطانى صفعة قوية وهو يقول:

- كفى وقاحة وقلة أدب..

وكان هذا العمل بداية لمعركة شديدة بين عائلتنا وعائلته. ولم يكن من السهل على والدى أن يضيع حقى، إذ لم يهدأ له بال إلا

بعد أن أحدث جرحًا غائرًا بعصاه فى رأس هذا المتزحلق المأجور . . . وظل العداء بينه وبين أبى حتى توفاه الله . .

وعادت إلى ذهنى صورة عمى «فريد» وهو يقف بباب (س . بك) يطلب منه عملاً يفتح عليه باب الرزق، و(س . بك) يروغ كما يروغ الثعلب، ويرسل أعوانه لعمى يطلبون منه الرشوة، وعمى يقف حائرًا بين الوظيفة التى تلوح له كالسراب . وبين يده الفارغة وجيبه الخاوى، وقارنت هذه الصورة بالوعود الخلابة التى يبذلها اليوم (س . بك)، وعشرات الجنيهات التى يبعثرها بلا حساب، ثم تواضعه الجم الذى جعله يحضر المآتم والأفراح التى تحدث فى القرية على خلاف العادة، فآلمنى هذا الرياء القذر، وتلك الأخلاق الوضيعة . .

ولن أنسى يوم أن جاء المرشح (س . بك) بنفسه إلى بيتنا ليوقع الصلح بين أبى وذلك الرجل الذى اعتدى علىّ، لقد قال المرشح المحترم وهو يربت على كتفى :

– فى أى سنة أنت يا سليمان .

– فى التوجيهية . .

– حسنًا جدًا . . ما عليك إلا أن تنجح، وسيكون دخولك الجامعة بالمجان أمانة فى عنقى، وهذا عهد علىّ . .

– أشكرك ياسعادة البك .

وأحاط بي أعوانه من أهل البلد وأوقفوني وقالوا :

- لا بد أن تلقى خطبة من أجل سعادة البك . . هيا . . يا سليمان .

كان أحدهم يجذبنى من ذراعى والآخر يرفعنى فوق الكرسى، والثالث يصفق لى، وسعادة (البك) يبتسم عن أسنان بيضاء لامعة، فلم أجد مناصًا من أن أرحب وأشكر وأدعو بالنجاح، كالآلة التى تدور جسبما يراد لها .

ويظهر أن مواكب النفاق والرياء إذا كانت قوية متدفقة فإنها قد تكتسح فى طريقها أولئك القلائل الذين يحاولون أن ينأوا بأنفسهم عن هذا التيار الصاخب . . . وفى أثناء مغادرته لمنزلنا جاء أحد أعوانه ودس فى يد أبى ورقة من فئة الجنيهات العشرة وهو يقول :

- هذه من سعادة البك، ومن أجل الخطبة العظيمة التى قالها سليمان :

فتراجع أبى إلى الخلف فى ذعر، وأشاح بوجهه عن الرجل وقال :

- ابعد عنى يا رجل بمالك . . . حد الله بينى وبينك . . اذهب يا رجل، وربنا ساترها والحال رضا والحمد لله . .

- إنها نعمة ساقها الله إليك . . . أتركلها بقدمك؟؟

- قلت لك اذهب، لن أبيع ذمتى وشرفى بعشرة جنيهات، إنها

سحت وبلاء، ولن آخذها ولو خلا بيتى من لقمة العيش. . .
أعوذ بالله . .

وخرج الرجل وهو يهز كتفيه ويسخر من «سذاجة» والدى، بينما أخذتنى الحمية وتذكرت مواقف الشجاعة والبطولة التى كثيراً ما رأيتها على خشبة المسرح أو على الشاشة فصحت فى صوت جهورى :

- اخرج أيها المأجور . . عليك اللعنة . .

فشده الرجل، وخرج وهو يرثى لحال هذه الأسرة -أسرتنا- لا بد أن مسًا قد أصابها فاختبلت سواء الوالد أو الابن . بينما التفت أبى إلىّ قال :

- لا داعى يا سليمان لهذه الألفاظ الخارجة، لقد رفضنا ما عرض علينا وكفى . . ثم سكت قليلاً واستطرد : وأقسم بالله أننى لن أذهب إلى مكان الاقتراع، ولن أعطى صوتى لـ(س. بك) ولا لغيره .

- لا يا أبى، يجب أن تعطى صوتك لأيهما تختار .

- كلا، لا داعى لوجع الدماغ، كلا المرشحين دعى كذاب .

- لا بد أن أحدهما أفضل من الثانى .

- لا يتفاضلان إلا فى الخداع والاستغلال . .

- إن صوتك حينما تعطيه لمن يستحقه، فإنك بذلك تناصر قضية الحرية.

- حرية؟؟ إننى أذهب إلى الغيط لا يمنعنى أحد، وأعود منه وقتما أشاء، وآكل وأشرب ما يروق لى، وأنفق إذا أردت وأفعل ما يحلو لى. فماذا أبغى بعد ذلك؟ أهناك حرية أكثر من هذا؟؟

- بالطبع يا والدى.. إن بلادنا مثلاً يحتلها الإنجليز، ويصرف الملك أمرها حسب هواه، ويعاونه فى ذلك حفنة من ذوى الأملاك والأموال الضخمة، وهؤلاء جميعًا هم الذين يستمتعون بكل خيرات البلد، ويجعلون منا قنطرة إلى مطامعهم، ولا مقياس فى نظرهم إلا المحسوبيات والمعارف والمآرب الشخصية..

- وما علاقة ذلك بالحرية؟؟

- لو أن هناك حرية بالمعنى الصحيح لنال كل حقه حسب مجهوده وكفاياته، ولكان التعليم بالمجان لا لأولاد الكبراء المحظوظين وحدهم... إن الحرية توجد حيث لا تباع أصوات الناخبين وتشترى..

فأطرق أبى قليلاً ثم باغتنى قائلاً:

- لكن أتعتقد أن نجاح واحد من الاثنين المرشحين فى قريتنا سينصر قضية الحرية.

ولم أجد جوابًا شافيًا لتساؤل والدى، فسواء أنجحت أحزاب الأغلبية، أو أريد لأحزاب الأقلية أن تحكم، فالأمر لن يتغير كثيراً فى مخبره، لكنى قلت لأبى:

- الحقيقة أن الوضع محرج ومحير، لكن اختيار الكفاءات الموثوق بها يعتبر خطوة فى سبيل مجتمع وحياة أفضل..

- أنا لا أرى أمامى كفاءات، فالنصر للمال وللمرضى عنهم من الزعماء ورجال السراى.

- فعلاً، إنه شىء يؤلم كل ضمير حى..

- والعمدة هو الآخر يهدد بالمحاضر توقيع الغرامات، لكل من تسول له نفسه ألا ينتخب من يختاره حضرة العمدة.

- ربنا يصلح الحال..

- اللهم آمين.



الفصل الثامن عشر

حالما نجحت فى التوجيهية شعبة العلوم، قررت أتقدم بأوراقى إلى كليه الطب قصر العينى، وكنت بطبيعتى أميل إلى الدراسات العلمية، وعندى من المثابرة والصبر ما يجعلنى أعكف على الأشياء العلمية بلا ملل أو سأم.

قال لى أبى:

- إنى أتمنى أن أراك قاضيًا، لهذا أفضل التحاقك بكلية الحقوق. .

- ماذا لو خاننى الحظ ولم أنل الدرجة التى تؤهلنى لذلك؟ سأكون محاميًا، وبذلك أقامر بمستقبلى؛ لأن مهنة المحاماة تحتاج إلى موهبة خاصة وطلاقة لسان، وأنا أفضل النواحى العلمية أكثر من غيرها.

- لكن أنت تعلم يا سليمان أن كلية الطب طويلة الدراسة، وتحتاج إلى ما يقرب من سبع سنوات، وتحتاج أيضًا إلى نفقات باهظة.

- هذا حق، غير أن طول المدة وبهاظة النفقات، سيكون لهما مقابل، وهو مستقبل طيب مضمون . . . وهناك مسألة الميل الشخصى، فإذا أرغمت على نوع معين من الدراسة كان ذلك مدعاة للتعثر والفشل . .

- اختر ما شئت، فأنا ما زلت على أتم استعداد لأن أحقق لك كل مطالبك، ولو كان ذلك على حساب غذائنا وكسائنا . . كل ما يهمنى أن أراك رجلاً ناجحًا تشرفنا، وتشرف نفسك . . . لأن النتائج السارة تمحو عنا آلام التعب . . .

فقمت من فورى وقبلت يدى والدى المتشققة الجافة، تلك اليد التى لا تبخل على بمجهود، ولا تضن علىّ بمال، وقلت :

- أبقاك الله وأطال عمرك .

- لا تحمل همًا ما دمت أنا على قيد الحياة .

كانت نفسى مفعمة بالمشاعر الكثيرة، وظهر أبى أمامى مكافحًا من الطراز الأول، وأكبر من الزعماء ذوى الهيل والهيلمان، كان رجلاً فلاحًا، لكن بصيرته النفاذة وإيمانه العميق، ودفعاه لأن يؤمن بميولى الخاصة، ويؤيد كلامى المنطقى، لأن نفسه البيضاء الصافية لا تعرف جدلاً عقيمًا، ولا أنانية منحرفة . . . لكم تمنيت أن يكون مرشح دائرتنا (س، بك) مثل أبى فى هذا الموقف، لكنها أحلام الجائعين بين الثمار المحرمة .

أما أمى فقد جلست تستمع إلينا فى زهو وانشراح، والغبطة تطفو من وجهها، فلا تكاد تلمح أن وراء هذه التقاطيع الضاحكة آلامًا قاسية تحز فى قلبها. لقد قالت لى:

- ليت المنى تحقق يا سليمان... أصحيح أنى سأراك طبيبًا تختال فى ملابسك البيضاء كالملاك، والسماعة تتدلى من عنقك، وأنك ستخفف آلام البائسين؟

- بإذن الله يا أمى... إن الأيام تمر سراعًا... الله معنا..

- لو رأيتك على هذه الصورة لكفانى هذا نصيبًا من الحياة، ولا ستقبلت الموت راضية باسمة..

ثم رفعت يدها إلىّ كعادتها ضارعة: يا رب حقق الآمال، واحفظه من عيون الحاسدين، واحمه من الأخطار... يا رب.

وكان قلبى يخفق بقوة وانفعال مع دعواتها الصادقة..

ثم توجهت إلىّ بالقول مرة أخرى:

- أستحلفك بالله يا سليمان أن تكون رحيمًا بالناس إذا أراد الله لك أن تنال مرادك، انظر لأمك...، ألا تذكر أننى لم أكن أستطيع الذهاب إلى الطبيب لضيق الحال؟؟ ثم ألا تذكر حينما كنا نخرج من المستشفى حيارى لا ندرى من أين نأتى بالمال لشراء الداء؟؟

- إنى لأذكر كل ذلك يا أمى .

- إذًا فلا تحجب نفسك عن مرضاك، ولتكن معاملتك لهم معاملة مباشرة لا عن طريق التمورجية، حتى تعلم المحتاج وغير المحتاج . . والقناعة يا ولدى رأس مال كبير . . كبير جداً . . . ويكفيك رضى الله عنك . .

- أعاهدك على ذلك يا أمى .

لقد كانت أمى تستقى حديثها من صميم تجاربها ومقاساتها للأهوال، ولم أستغرب حديثها لأنى أعرف دوافعه وأسبابه . يا لها من إنسانة طيبة نبيلة ذات قلب كبير -ولو إنه مريض . . سأنقش هذه العبارات على شغاف قلبى بأحرف بارزة منيرة . . .

أما سعيد حافظ فقد تقدم بأوراقه إلى الكلية الحربية التى كان يحلم بها منذ أمد بعيد، حتى يكون ضابطًا مثل جده، أو مثل عرابى صديق ذلك الجد السيئ الحظ . . وكان سرور سعيد عظيمًا حينما نجح فى الكشف الطبى، لكن للأسف كانت فرحته شوهاء مبتورة . . . لقد وقفت تحريات رجال الشرطة عقبة كأداء فى سبيل التحاقه بالكلية الحربية، فلقد كانت التقارير تقول: «إنه وطنى متطرف . . معروف بعدائه لنظام الحكم الحاضر . . . ذو ميول ثورية ومن الخطرين . . . قد استضافته الشرطة مرات عديدة» .

وقال لى سعيد:

- والآن ما العمل يا سليمان، إذا لم أدخل الكلية الحربية، فستنهار آمالى، وخير لى أن أقذف بنفسى تحت شريط الترام حينذاك. .

- صبرًا يا سعيد. . الأمر لا يحتاج لأكثر من توصية، أو وساطة رجل مرموق له صلة بالموضوع.

- يا للمصيبة. . . !! ألا يستطيع الإنسان أن يصل لحقه إلا عن طريق الوساطة؟

- إنه شىء مخزٍ حقًا. .

- اسمع يا سليمان. . . لا بد من دخولى «الحربية» بأى ثمن. . أنا لا أتصور أنى سأحرم منها لمجرد عدم وجود توصية تبعد عن طريقى هذا التقرير المبالغ فيه. .

- اترك الأمر لوالدك فهو كثير المعارف، وكثير المال أيضًا، وبسمارك الداهية الأكبر يقول: يمكن شراء كل شىء بالمال حتى الذم. .

- لازم. . لازم دخولها ولو ارتكبت جريمة. .

- اهدأ يا سعيد عليك أن تجتهد وعلى الله التسهيل.

وصدقت مخاوف سعيد فقد حرم من دخول الكلية التى كان يتعشقها، وكان هذا مدعاة لحزنه وألمه الشديد، حتى إنه بقى فى «القرشية»، وفضل عدم الذهاب إلى أى كلية أخرى، فقال له أبوه: «ما الذى يجعلك تستمسك هكذا بالكلية الحربية»؟؟

فقال سعيد: لأنى أميل إليها، وأرى فيها تحقيقًا لآمالى، وهذا يكفى..

- أخاف يا سعيد أن تكون ممن تغريهم الأشرطة الحمراء، والملابس الزاهية..

- بل إنى أعشق الحياة العسكرية وما فيها من خشونة وتقشف وكفاح.

- الجيش الآن جيش مولانا، واستعراضات مولانا، أما الصورة الخيالية التى تتراءى لك عنه فهى وهم باطل لا وجود له..

- إن الرجل الشريف يستطيع أن يكون شريفًا كريمًا فى أى وسط يحل به، وإذا كان فى الجيش محاسيب وأذناب، ففيه أيضًا وطنيون مخلصون، يأنفون بنفوسهم عن مواطن الذلة، وينأون بضمائرهم عن بؤر الفساد..

- لكن ما أقلهم يا بنى!!!

- بل هم كثيرون... لو فرضنا أنهم قلة فلأكن أنا أحدهم..

- لقد صدقوا فيما كتبوا عنك من تقريرات.. إنك من الخطرين حقًا، يظهر أنك لا تريد أن تكون طالبًا بالكلية، بل رسولاً للتمرد والثورة فى الجيش، ولكن لا تنسَ أن الجيش ليس مدرسة

ثانوية تصول فيها وتجول بخطبك ومظاهراتك، فإن أقل شبهة أو أدنى غلطة قد تقضى عليك قضاء مبرمًا وتطيح بمستقبلك . .

- أنا ما زلت فى الشارع، ولم تقبلنى الكلية حتى الآن، فلا داعى يا والدى لأن تسبق الأحداث . .

- أما زلت مصرًا على دخولها بعد أن أصبح الرفض أمرًا مقررًا؟ !

- طبعًا، لن أتخلى عن ذلك . .

- ما دمت مصرًا على ذلك يا سعيد، فإنى أعدك بأنى سأعمل المستحيل فى الدفعة التالية، حتى تقبل فيها إن شاء الله . . . فما عليك إلا أن تلتحق بكلية الحقوق بصفة مبدئية «حتى تمسك بالعصا من الوسط» وتحتاط . .

- لكن باب القبول قد أغلق بصفة نهائية فى جامعة فؤاد .

- من السهل التحاقك بحقوق الإسكندرية .

- قضيت أيامًا ممتعة بجانب ثريا بعد أن عدت إلى القاهرة . .

لقد استطاعت بحنانها وبرها أن تمحو كل ما علق بنفسى من آثار الماضى. بل أصبح الماضى، وأصبحت قصة الخطاب الذى أرسلته إلى المدرسة مجرد ذكرى لطيفة تثير ضحكاتنا، ونعلق عليها بالنوادر والفكاهات، وقلت لها ذات مرة ونحن نمشى معًا عند كوبرى قصر النيل :

- أتذكرين حينما فصلتك الناظرة لمدة أسبوعين؟

- طبعًا، هذا شيء لا ينسى.

- إن الفصل من المدرسة معناه أنك مشاغبة، ومن الطالبات المشاكسات.

- اسمع يا سليمان.. لقد تضايقت هذه الأيام من المدرسة جدًا، ويا حبذا لو تكرمت بإرسال خطاب لى عن طريقها، فلعل الظروف تساعدنى آن أحظى بالفصل أسبوعين أو ثلاثة..

- ألم أقل إنك مشاغبة؟ لا يمكن أن أكتب مثل هذا الخطاب؟

- بسيطة جدًا.. سأعرف كيف أرغمك على كتابته بطريقتى الخاصة.

- كيف يا ثريا؟

- لن أكلمك بعد اليوم... ولن أخرج معك فى نزهة، بل ولن ترانى من النافذة.

فضحكت وقلت لها:

- سأسارع بإبلاغ الأمر إلى والدتك وأشكو لها منك.

- لم أعد قاصرة، فأنا لى حرية التصرف حسبما أشاء..

- قولى ما شئت، فسأنتزعك انتزاعًا، وأرغمك إرغامًا على الخروج معى.

- لعلك تحب المبدأ القائل: ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا؟؟

- هل هناك وسيلة غير ذلك ساعتئذ. .؟؟

فقالت وهي تبتسم:

- هيا بنا فقد تأخرنا عن العودة. . هيا. .

وهكذا أصبحت ثريا جزءًا لا يتجزأ من حياتي، وكثر لقائي معها تحت سمع أسرتها وأسرة عمي وبصرهم، وخفت حدة عواطفي لدرجة ما، فقد كانت هذه الحرية المحدودة، والصداقة البريئة الصريحة، مدعاة لرباط أوثق، وثقة متبادلة.

وكما قلت من قبل، كانت ثريا قوية صريحة، وكنت أشعر بقوتها وسيطرتها كلما انفردت معها في نزهة أو غير ذلك، فإذا ما نظرت إلى وجهها وحدثتني نفسي بشيء ما، شعرت برهبة ممزوجة بالاحترام تجاهها، لقد علمها أبوها أن الشرف حياة، وعلمتها أمها أن تكون سيدة الموقف دائمًا، وأن لها السيطرة والغلبة ما دامت تعتبر المحافظة على العرض رأس مال. . .

وكثيراً ما فكرت بادئ ذي بدء في الانقضاض عليها، وتقبيلها رغم أنفها، لكن عزمي كان ينهار أمام قوتها وإصرارها، نظراتها الجريئة التي تشبه الديدبان اليقظ المتحفز. . .

- أكان هذا السلوك منها مدعاة لنفوري وانصرافي عنها، وتبرمي بها. .؟؟

كلا فقد ازداد حبى لها، وكبرت فى نظرى، وأصبحت هيكلا مقدسًا للعفة والطهر، ويرغمنى على احترامها، والتضاؤل بجوار عظمتها . . .

وسرعان ما تغيرت نظرتى إلى فتيات المدن اللاتى كنت أحسبهن خليعات مغرورات، لا يعرفن من الوفاء إلا اسمه، ولا من الحب إلا مظاهره الداعرة، وكنت أظن أن الزواج بهن دناءة ومقامرة غير مأمونة النتائج . . وأن الريفيات بفطرتهن وبساطتهن الموروثة هن أدعى للسعادة والثقة، وآمن فى الزواج وحماية الأسرة . . . لقد تغيرت نظرتى كثيرًا، فها هى ثريا تضرب المثل لذلك بمحافظتها وبعدها عن التفاهات والسفاف، وها هى ترغمنى على احترامها ومحبتها . . . أجل، تستطيع المرأة أن تكون موردًا للصفاء والحب، وهى متدثرة بثوب عفتها وطهرها، وهذا ما أكدته لى علاقتى مع ثريا . .

وظل دأب ثريا معى هكذا، ولم تشذ عن هذه القاعدة إلا مرة واحدة سيأتى ذكرها فيما بعد . .





الفصل التاسع عشر

طال انتظار الشعب على أمل أن تحل قضيته الوطنية حلاً يرضى آماله . . . وجاءت حكومة الأغلبية ، وأمل الجميع أن تستجيب لرغبات الأمة ، وتكون لسانها المعبر ، والممثل الحقيقى لرغبتها فى التحرر الكامل ، والاستقلال التام . .

وابتدأت سلسلة جديدة من المحادثات والمفاوضات وجس النبض ، والوعود المطاطة فلم يطق الشعب هذه المظاهر التى ملها من كثرة تكرارها ، وخرجت الأفواج ثائرة هادرة مطالبة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وإباحة حمل السلاح ، وتشجيع حركة المقاومة الشعبية فى القنال وما إلى ذلك .

وتحت وطأة الضغط الشعبى تمزقت هذه الوثيقة التى كانت بيننا وبين الإنجليز ، وتسابقت جموع الشباب صوب القنال رغم أنف الملك ، وتكررت الحوادث التى اشترك فيها عمال وطلبة وموظفون وضباط من الجيش وفلاحون ، فساد الذعر معسكرات الإنجليز ،

فلجئوا إلى مسائلهم البربرية، وتصرفاتهم الوحشية، فكان التعسف واللصوصية هما ديدنهم عند نقط التفتيش التى أقاموها، وخاصة بعد أن تمردت جموع العمال المصريين، فتركوا معسكراتهم رغم الإغراء أو التهديد . . .

كان الشعب كله فى اهتمام وتحفز وإصرار على النصر . . . وازدادت مساحة قوائم المتبرعين فى الصحف السيارة، وطغت رويدًا رويدًا على ما يكتب من تسبيح بمجد الملك، وترنيم "بزاهر" عهده . .

قال عمى لى : أخاف أن يطعن الملك حركة المقاومة من الخلف .

- لا يمكن يا عمى، فهو الذى وافق على إلغاء المعاهدة . .

- كلا، يقال إنه لم يكن يوافق على ذلك، ثم أنسيت أنه كان قد وافق أيضًا على حرب فلسطين؟؟

- الوضع مختلف جد الاختلاف فى هذه المرة . .

- لم يختلف كثيرًا، وإذا كان الملك -كما يعتقد- قد انتابه على حين غفلة حمى الوطنية، فما على الإنجليز إلا أن يعيدوا مهزلة ٤ فبراير الشهيرة . .

- إذا كان الموقف لم يتغير بالنسبة للملك، فإن الشعب قد وثب إلى

الأمام وثبات طويلة، ولن يصل الإنجليز إلى مأرب من مآربهم بعد ذلك إلا على أشلائنا . .

– عندك حق فى هذه النقطة بالذات، فالشعب يفهم أن الملك قد يطعنه من الخلف، ومع ذلك فهو يسير فى إصرار لينال حقوقه . .

– لكن ماذا يحدث لو تآمر الملك مرة أخرى . .

– سيخوض الشعب المعركة الفاصلة ضده هو الآخر . .

– ستزيد أعباء المعركة، وقد لا ترجح كفة الشعب .

– خذها عقيدة يا سليمان . . الشعب هو الفائز دائمًا مهما طال الطريق، وزاد الصراع، ومهما كانت الحرب التى يخوضها سجالاً . . . إن إرادة الشعب المؤمن من إرادة الله . . .

– أجل، لكن الطريق طويل . . . طويل وشاق . .

زارنى سعيد حافظ زيارة غير متوقعة . . .

كان يلبس سترة صفراء . . . قلت له : كيف تركت الإسكندرية وكلية الحقوق؟

فقال سعيد : لا شأن لى بالإسكندرية ولا بكلية الحقوق . . الوقت وقت كفاح . . !! كفاح . . !! أفهمت؟؟

– ما هذا الحماس الزائد يا سعيد، إذا كان أبوك جديرًا باسم الشيخ

حافظ هتلر، فما أراك إلا كفئًا لأن تسمى باسم سعيد نابليون. . .

- لن أقضى معك غير ساعتين وسأتركك بعدها. . .

- إلى أين؟؟

- ألا تعلم؟ إلى القنال طبعًا. . . لقد طالبنا بإلغاء المعاهدة، وبإباحة حمل السلاح، واستطعنا الحصول عليه فعلاً، فماذا بقى بعد ذلك؟؟ هل كانت المسألة مجرد هتافات ومطالب. . .

- بارك الله كفاحك يا سعيد. . . لكن هل يعلم أبوك بسفرك؟؟

- الوقت ضيق، وقد طلبونا للسفر بسرعة، وسأكلفك بكتابة خطاب إليه.

- لكن ماذا؟ إنى أعرف ما تقول. . . أعلم أنها حياتى، وأنا أتصرف فيها حسبما أشاء، وليس لأحد دخل فى ذلك، قد يتألم والدى أو يحزن، ويعتبرنى مغامرًا، لكن هذا لن يثنينى عما اعتزمته. . . ومن أدراك أن أبى سيتضايق مما أفعل؟؟ إنه لا يقل حماسًا ووطنية عنى. . .

- بل هو الذى غرسها فيك ورعاها. .

وضغط سعيد بأسنانه، وكور كفه السمراء، وضرب بها على المنضدة وقال:

- لا بد أن نثأر من هؤلاء الأوغاد . .

ما أكثر الأشياء التي كان سعيد يريد أن يثأر لها . . . جده . . وأخته، حرمانه من دخول الكلية الحربية، أهوال الحرب وآلامها . . ابن مرسى أبو عفر الذى سخر منه لأن بسيمة خادمة . . الحياة السياسية الفاسدة . . الظلم الاجتماعى . . الرشوة . . المحسوبيات . . الانحلال؛ لأن كل هذه الأشياء أعراض لمرض واحد هو الاستعمار . .

وانطلق سعيد حافظ بحلته الصفراء، وعوده الفارع، وحقيبته فى يده، ليلحق بالجموع الذاهبة إلى الموت -أعنى الحياة- الجموع التى لا تحمل من السلاح إلا التافه الصديد، ولا تفخر إلا بما فى قلبها من إيمان وطيد.

وأخذت أتتبع أنباء المعركة باهتمام بالغ . . . انفجارات هنا، وكمين هناك، لغم تحت كوبرى . . . نسف لسكة حديدية . . هجوم على معسكر، منشورات تلقى فى أماكن القيادة الإنجليزية . . عبارات «كتائب التحرير مرت من هنا» مخطوطة فى كل مكان من معسكراتهم . . مواكب الشهداء فى القاهرة والإسكندرية والقنال . . قصص البطولة فى كل بيت . . أطفال يشعلون النار فى معسكرات الأعداء . . . أمة تتحرك رغم القيود الثقيلة التى تكبلها من قديم الزمان.

ولم أنسَ أن أكتب للشيخ حافظ شيحا خطابًا كما أراد سعيد، وملأته بعبارات المواساة والتشجيع، ويظهر أن الشيخ حافظ رثى لحالى وابتسم لسذاجتى، فقد قال فى خطابه الذى رد به علىّ:

« . . . سامحك الله يا سليمان . . أتظن أنى أضن بابنى به على وطنه؟؟ إن دم التضحية يا ولدى يجرى متسلسلاً من أب لابن فى شراييننا، وكم كنت أتمنى أن أكون بجانب سعيد، لكن جزى الله الشيب بما أوهن من جسدى، وأضعف من جلدى. . صحيح أن أمه تبكى بكاء مرًا، وتزعم أننى السبب فى فقدان بسيمة، وسأكون أيضًا الجانى على سعيد، بما أفرغه فى عقله من أفكار وآراء. . ولا شك أن خضرة زوجتى معذورة لجهلها، فهى لا تأمل من الحياة غير وظيفة طيبة لسعيد، وزيجة موفقة لسعيد، وسلامة وعافية لسعيد. . . أما التضحية والكفاح والوطنية فهذه مترادفات مبهمة، وطلاسم لا معنى لهل عندها، ولهذا فهى تسب الحكومة والإنجليز، وتسبنى معهم، لأننا كنا السبب فى حرمانها من سعيد. . .

قلت لها: لا تحزنى يا خضرة إن ابنك بطل. .

فردت علىّ ثائرة:

- بطل؟؟ أنت يا شيخ حافظ مجنون طول حياتك. . وستورث ابنك الجنون هو الآخر. . يا للمصيبة. . !!

ألست معى يا سليمان فى أنها معذورة . . ؟ أما أنا فأصلى ليل نهار، وأدعو الله أن ينصر سعيداً وإخوانه ويكتب لهم النجاة، فقلبى - على البعد - مع كل خطوة من خطواتهم، وروحى تهفو لكل خبر عنهم . .

●●●

وجدت أحداث ضخمة زلزلت مصر بعنف وقوة . . . العدوان الإنجليزى على دار المحافظة بالإسماعلية، سقوط عشرات من رجال الأمن صرعى الرصاص الغادر . . الحادث يهز الشعب من أقصاه إلى أقصاه. حريق القاهرة وما فيه من سلب ونهب . المنشآت والدور تشتعل، بينما الملك يحتفل فى قصره بالمولود الجديد ولى العرش . . إقالة وزارة ثم تولية أخرى . . ليالى القاهرة ميتة صامتة لمنع التجول . . انتكاس حركة المقاومة، مصر تعيش فى حلم رهيب مملوء بأشباح الهلع والارتياع .

وعادت أفواج الشباب من القنال، لكن سعيد حافظ لم يعد . . .

وخفتت أنغام الكفاح، وأناشيد النضال تحت ضغط الإرهاب، حتى أغانى الإذاعة الوطنية لم تعد تطرق الآذان، وبقيت الأنغام الحالمة، والألحان التى تحكى عن وله العاشقين، وهيام المحبين . .

وبكى الشيخ حافظ فآلمتنى دموعه حتى بكيت معه . . قلت له :

-ألم يكن فى حسبانك أن يقضى سعيد شهيداً فى المعركة؟

- بلى، لكنى أبوه. . ثم الخيانة التى طعنت كفاحه من الخلف، إن هذا ما يكينى، بل هو أقسى على من فقدان ولدى. . . إن قلبى يغلى بالحقد والنقمة على المجرمين الذين شوهوا حركة الكفاح. . وجعلوا منها سلعة وتجارة. .

وتراءت لى صورة سعيد بحلته الصفراء وهو يقول:

«لا بد أن نثأر. . » فساءلت نفسى: هل ثأر فعلاً، وشفى غليله وغليل أمته المستعبدة؟؟ أما خضرة والدة سعيد فقد ولولت، وقلبت حياة الأسرة إلى صراخ وجحيم، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الجنون، بل إنها جلست لتبكى بسيمة وتبكى معها أم سعيد، والشىء يذكر. .

وأقبل الشيخ حافظ ذات مساء إلى مسكننا، وقذف أمامى بورقة صغيرة مكتوب فيها خمسة أسماء بينهم اسم «سعيد حافظ شيحا» ، وقبل أن أسأله عن مدلول هذه الأسماء قال:

- علمت من قيادة كتائب التحرير أن أصحاب هذه الأسماء الخمسة لم يستشهدوا كما أشيع، لكنهم وقعوا أسرى فى أيدى الإنجليز.

- إذًا فسعيد ما زال حيًا لكنه أسير فى المعسكرات البريطانية. .

- يرجح هذا.

- الحمد لله.. ألف مبروك.

وسنحاول فى الغد إن شاء الله مقابلة رئيس الوزراء أنا ومن يمثلون هؤلاء الأسرى، ونطلب منه أن يتصل رسميًا بالحكومة البريطانية لتسليمهم.

- وسأكون أنا معك أيضًا..

- ولقد وعدنى بعض الصحفيين بأنه سيحاول إثارة الموضوع فى الصحف، ورغم الرقابة الشديدة، ووجود الأحكام العسكرية..

وثبت من مكانى لأقبل رأس الشيخ وأهنئه بنجاة سعيد..

وجلست أفكر: كيف أستقبل سعيدًا عند عودته..؟؟

لا بد أن أقيم له حفلاً عظيمًا، بل إن الحماس قد سيطر على وفكرت فى كتابة قصيدة من الشعر ولو مكسورة الوزن، بالرغم من عداوتى التقليدية للشعر الجاهلى ومقامات الحريرى وما شاكلها...

وتواترت الأنباء عن تعذيب الإنجليز للأسرى الأبطال، وسمعنا الكثير عن الكلاب المتوحشة التى تغرز أنيابها فى أجسادهم، وعن الحمامات المثلجة التى يقذف بهم فيها، وعن

تركهم بلا طعام أو شراب والسياط تنزل على أجسادهم، وعن اقتلاع أظافرهم فى عنف وغلظة، ونزع شعرهم فى قسوة منقطعة النظير؛ من أجل استقاء الأنباء منهم، فازداد الضغط على الحكومة حتى تلح فى مطالبتها بتسليمهم...

وكان سماع هذه الأنباء يؤلم الشيخ حافظ فيذرف الدمع السخين، لكنه كان يعود ويحمد الله على أن ابنه ما زال حيًا يرزق، أما التعذيب والاضطهاد فسعيد سيتحملها حتى تمر الأزمة بسلام..

وأخيرًا عاد الأسرى الخمسة.. عادوا وقد طالت لقد عاشوا مع الموت أيامًا حالكة مفزعة، حضروا فى اليوم التالى إلى الجامعة، وسط الهتافات الراعدة، والترحيب العظيم، ترمقهم نظرات الحب والتقدير من الألوف المؤلفة شعورهم، وضمرت أجسامهم من كثرة ما لاقوا من أهوال، التى احتشدت لاستقبالهم فى الجامعة، رغم الأحكام العسكرية، وتكميم الأفواه، والجو الخانق الذى يسود أنحاء البلاد..

●●●

الفصل العشرون

قام فريق الجوالة بكليتنا برحلة كشفية إلى معسكر الكشافة الدائم جوار بحيرة «قارون» وكنت مع الرهط فى هذه الرحلة التى استغرقت أسبوعًا كاملاً، وعقب انتهاء الرحلة عدت فى المساء متأخرًا، وكان شارع الطولونى هادئًا لا تكاد تسمع فيه حركة، والضوء الباهت يزيده سكونًا فوق سكون ووحشة إلى وحشة، ولفت نظرى وجود أعلام خضراء وحمراء، ومصابيح ملونة، وبقية مسرح متنقل أمام منزلنا، لكننى كنت متعبًا من أثر السفر، فقصدت من فورى إلى حجرتى لأصيب بعض النوم فى هذه الساعة المتأخرة. . . وحوالى الثامنة صباحًا أقبلت زوجة عمى وهزتنى برفق وهى تقول :

- لقد تأخرت فى نومك كثيرًا ففاتتك صلاة الصبح . . ألا تقوم؟؟

فتمطيت وتثاءبت، وأنا أحاول أن أرفع أهدابى الثقيلة التى ما زال النوم يغلقها بالرغم من جلوسى فى السرير . . .

وبعد تناولى طعام الفطور هممت بفتح النافذة، ونفسى تحدثنى برؤية «ثريا» بعد هذه الغيبة، لكنى تذكرت أنها تكون فى مثل هذه الساعة بالمدرسة، وما أشد ما كانت دهشتى حينما وجدتها تقف فى نافذتها وتبتسم وتحيينى تحية الصباح ملوحة بيدها . . .

ولمحت أحد العمال يستعين بسلم خشبى لينزل الأعلام والأضواء الملونة، وشعرت بزوجة عمى تدلف إلى حجرتى فقلت لها:

- ما هذه الزينات والمسرح الذى كان مقامًا ليلة أمس؟

- ألا تعلم؟؟

- ومن أدرانى؟

- لا. هذا كثير جدًا، كيف لا تعلم أن ثريا قد عقد قرانها ليلة أمس، وستتزوج بعد أيام قلائل.

- ثريا؟؟ يا خبر. . !!

قلتها فى سرعة وانفعال دون أن أستطيع أن أمسك بزمام لسانى. .

- طبعًا، لك أن تدهش لأنهم لم يدعوك فى الحفل، لكنهم معذورون فقد كنت بعيدًا عن القاهرة، ولا يعرف لك عنوان. .

وعلى كل حال فإن ثريا كانت قلقة من أجلك، لكنها احتفظت لك بنصيبك من الشربات وما إلى ذلك..

كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على، كنت كمن رنت فوق رأسه كتلة من الصخر تأرجح لها كيانه، وتبعثر على أثرها جماع ذهنه فلا يدرى؛ كيف يفكر ولا بماذا ينطق.. قلت لنفسى: «هذا مستحيل... لأنى لم أكن أتصور هذا الذى حدث، ولا فكرت فيه على الإطلاق... أتصير ثريا لغيرى؟؟ هذا فظيع ولن يكون..!! لقد قررت من زمن أنها لى وحدى، وسأتزوجها ولن أستطيع العيش بدونها، وكان الأمر يبدو لى سهلاً بسيطًا، فأنا أهل لها وهى أهل لى، وعواطفنا متبادلة..

وبعد أخبرتنى زوجة عمى بكل شىء...

قلت لها: كيف حدث هذا فجأة ودون سابق إنذار؟؟

- كثيرًا ما يكون زواج البنت بالصدفة والحظ..

- ربما، لكن كيف تم ذلك لثريا؟؟

- إن رئيس قسم تموين الخليفة. وفى الوقت نفسه رئيس والد ثريا، رجل فى الخامسة والأربعين من عمره، ومن أسرة طيبة السمعة، متسعة الثراء.

- لقد فهمت الآن، لا بد وأن ثريا تزوجت ابنه . . فضحكت زوجة عمى وقالت: صبرك علىّ يا سليمان.

ثم استطردت قائلة:

- ولقد تقرر نقل والد ثريا من القاهرة إلى الصعيد.

- متى كان ذلك؟؟

- فى أوائل الأسبوع الماضى . .

- لا شك أنه تألم كثيرًا، وخاصة لأنه كبير السن.

- وهذا ما حدث فعلاً، لذلك أخذ يقابل هذا، ويتوسل إلى ذاك من رجال الوزارة ذوى الكلمة المسموعة بلا فائدة، ولقد جاءه رئيس المكتب بنفسه -رئيس القسم- ليزوره زيارة الوداع، وكما قلت لك رأى ثريا عن طريق الصدفة فأعجبته، وسرعان ما طلب يدها من والدها.

- لنفسه؟؟

- أجل، ووعده بأن يعمل كل ما فى وسعه لإلغاء النقل لأنه -أى العريس- له صلة وثيقة بوكيل وزارة التموين، ولم يكتف بهذا بل وعده بترقية عاجلة، ووالد ثريا كما تعلم من الموظفين المنسيين . .

- كيف قبلوه زوجًا لها رغم فارق السن؟؟ إنها صفقة دنيئة، ولا بد أنها تمت رغم أنف ثريا . . .

- على العكس، إن ثريا فتاة طيبة عاقلة تفهم ظروف أسرتها وتعمل على تأمين مستقبلها.

عندما سمعت هذا الكلام خيل إلى كأن خنجرًا مسمومًا يتخذ طريقه إلى كبدى، لهذا قلت فى غيظ:

- ومن أجل ذلك قذفوا بها بين رجل يدلف إلى الشيخوخة. .

- وماذا تريد الفتاة؟؟ مالاً ومركزًا ممتازًا وأسرة طيبة، ورجلاً ذا صحة سليمة قوية، أما فارق السن فقد يأتى فى المرتبة الأخيرة من حيث الأهمية. . .

●●●

انتهزت فرصة وجود ثريا وحدها فى البيت بعد أن خرج والدها وزوجة عمى إلى حيث يشترون لها بعض ما يلزمها من حاجيات الزواج، واندفعت ناحية البيت، وكانت عوامل عدة وانفعالات مختلطة تعصف بكيانى، حتى إنى تصرفت تصرفًا جنونيًا لقيتها، ولست أدرى كيف طوعت لى نفسى أن أقترف هذا العمل الشاذ، فقد هبت «ثريا» لتستقبلنى عندما رأتنى وهى تبتسم وترحب بى،

فمدت يدها لتصافحني لكن يدى كانت أسبق من يدها، إذ رفعتها وهويت بها على وجنتيها، والشرر يتطاير من عينى، فعقدت الدهشة لسانها، فوضعت يدها مكان الصفعة، ووقفت صامتة برهة من الزمن ثم قالت:

- ما هذا يا سليمان؟؟ هل جننت؟؟ حسبتك جئت تحمل إلىّ التهنئة وتدعو لى بالتوفيق...

- اخرسى يا عديمة الوفاء... أهذا هو حبك ووفاؤك؟؟

وشعرت بأنى قد قمت بعمل غير لائق، ولولا اعتصامها بالصبر، وحبها لى لردت علي بالمثل، أو استغاثت وقذفت بى إلى الشارع، لكنها قالت والدموع تبلل عينيها:

- ماذا تقصد بذلك؟؟ هل من الوفاء لك أن أعيش عانسًا، وأرفض الزواج وأخرج على إرادة أبى؟؟

فلم أجب، بل رمقتها بنظرة احتقار قاسية، بينما التفتت هى إلىّ فى اهتمام وكأنها تذكرت شيئًا كان غائبًا عن ذهنها وقالت:

- أكنت ترغب فى الزواج منى يا سليمان؟؟

- ألم تكونى تعلمين ذلك؟؟

- ومن أدرانى؟؟ أنك لم تقل شيئًا عن ذلك ولو مرة واحدة.

- أظن أن الأمر لم يكن فى حاجة إلى كلام . . . فأطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها لأرى الدموع تهطل من عينيها وقالت :

- هل من الإنصاف أن أنتظرك سبعة أعوام أخرى حتى تنتهى من دراستك الطبية؟ ومن يدرى بعد ذلك؟؟ لعل سليمان عبد الدايم الطبيب يرفض الزواج من ثريا ابنة الموظف الصغير المنسى، والذى يسكن فى شارع الطولونى . . . إن المستقبل أمامك واسع كبير . . .

- كفى عن هذا الهراء، ودعى تلك العلل الواهية . . فاقتربت ثريا منى، والدموع ما زالت تترقرق فى عينيها، وألقت بيديها فوق كتفى وقالت وهى تمرغ وجهها ورأسها فى صدرى :

- لكم أحببتك يا سليمان . . . !! أحببتك بكل روحى وجوارحى، وأنت تعلم ذلك، واغتفرت لك مضايقتك وماكان يقوله عنى فتيات الشارع ونساؤه، لكن يظهر الإنسان فى هذه الحياة مدفوع بقوة قاهرة لا يستطيع الوقوف فى تيارها .

وكان كلام ثريا واضحًا غاية الوضوح . . كانت تريد أن تقول إنها ضحت بنفسها من أجل رغبة أبيها، ومن أجل إنقاذه من الانتقال إلى الصعيد، وفى سبيل الترقية المنتظرة .

ولم يكن الأمـر فى نظرهم يحـمل مـعنى التـضـحـيـة بكل مدلولاتها، لأن الزوج -كما تعلم- يسيل لعاب الكثيرات للزواج منه رغم فارق السن . .

ويبدو أن ثريا كانت منطقية فى أفكارها، وأكثر واقعية منى، لأنى ما زلت أتمسك بأهداب الحب الذى لا يستطيع أن يمس الأرض بقدمين، والحب المحلق فى سماء الخيال والأحلام، إذا تصورت أن ثريا لو كانت تحبنى حقيقة لرفضت الزواج من رئيس المكتب، ولما اكترثت بنقل أو ترقية أبيها، أو اهتمت بمال أو مركز، ولهربت معى إلى آخر الدنيا، ولم أسأل نفسى : «هل كنت أنا على استعداد لأن أغـامـر وأضـحى من أجل هذا الحب؟؟ ومن أين لى بالمال اللازم وأبى يرهق نفسه إرهاقًا حتى يحقق لى ما يلزمنى من مطالب؟؟»، لكنى أبديت عنادًا شديدًا، واتهمت ثريا بكل معانى الغدر والخيانة والتنكر لحبنا و. . . ولم أستجب لدموعها واعتذارتها إلا حينما أغرقت وجهى بالقبلات. . . أجل القبلات المجنونة النهمة، والتى ألهبت بها شفتى ووجنتى وجبينى وشعرى فاستسلمت لها وصرت كالطفل المدلل بين ذراعيها. . .

ووجدتنى أنا الآخر أسكب دموعًا لا أستطيع لها حبسًا. . .

ولما حان موعد ارتحالي قالت ثريا وهى تداعب شعرى بأناملها

الجميلة، والدموع ما زالت تبلل أهدابها، ورنة البكاء ما برحت تبدو في كلماتها:

- سليمان... لي رجاء... أتعشم أن تحققه لي بحق حبنا الذي لن يغادر قلبي مدى الحياة.. رجاء واحد، قد يكون فيه راحة لي وراحة لك فلعلك تحققه..!!

ولم يكن في استطاعتي أن أجيب فاستطردت ثريا قائلة:

- هذه آخر مرة أراك فيها قبل زواجي، فهل تعدني بذلك؟؟

فهممت بالخروج دون أن أجيب، لكنها تعلقت بعنقي من جديد وعادت لقبلاتها العميقة، وألحت عليّ كي أستجيب لمطلبها، فقلت منفعلاً:

- أعدك بذلك.

- مع السلامة.

وخرجت من عندها قاصداً حجرتي، وأخذت أجمع ما يكفيني من ملابس وكتب لمدة أسبوع، وهو الوقت الذي سيتم فيه زواج ثريا، وأضعه في حقيبتي، وكأن الدنيا من حولي كانت تعزف لحنًا جنائزيًا يمزق نياط قلبي، والدمع قد احتبس في أعماقي، وبدت لي الدنيا سوداء حزينة لاخير فيها، ولا أمل في أيامها...

وانطلقت إلى أحد زملائى لأقضى عنده هذا الأسبوع، وشريط ذكرياتى مع ثريا يمر على ذهنى بكل دقائقه وتفاصيله، واللحن الجنائزى يصب أنغامه المكتئبة فى وجنتى. . . وعنقى وشعرى، إلى حيث كانت قبلاتها تمسح عنى كثيراً مما بنفسى من الألم وأوجاع . . . ولم أنسَ بالطبع أن أكتب خطاباً لعمى أستأذنه فيه قضاء أسبوع مع زملائى استعداداً للامتحان ، وفى اعتقادى أن هذه الحجة الواهية لم تكن لتقنع عمى ولا زوجته الطيبة.

●●●



الفصل الحادى والعشرون

وعدت إلى عمى بعد أسبوع لأجد أمامى لغزاً محيراً فى انتظارى، حتى لكان الأحداث قد اتفقت على أن تأتى فى أسبوع واحد، وتتكوم فوق رأسى كما قال عمى: أين كنت؟ لقد ظللت أبحث عنك لمدة ثلاثة أيام متتالية.

- لقد أخبرتك أنى سأغيب أسبوعًا، فليس هناك محل للقلق إذًا..

ولم يستطرد عمى فى نقاشه معى احترامًا لشعورى، وحتى لا ينكأ الجرح الذى تسبب عن زواج ثريا، لكنه قصد مباشرة إلى الموضوع فقال:

- لقد وصل لك خطاب من سعيد حافظ.

- أين هو... !!

وقدم عمى الخطاب فوجدته لا يزيد على بضع كلمات موجزة:

«أخى سليمان. . أرجو انتظارى بعد أربعة أيام من تاريخه، لأنى سآتى مع والدى إلى القاهرة لاستلام «بسيمة» وشكراً. . .

«بسيمة» ؟؟ وكيف ذلك؟؟

أبعد ستة أعوام أو يزيد تعود بسيمة؟؟ إن هذا البعث لا يكاد يحدث إلا فى الأساطير أو الأقاصيص المفتعلة. . !!! لقد انتهت بسيمة الصغيرة من زمن بعيد، لا يعقل أنها أفلتت من غارات هتلر على الإسكندرية. وإذا كانت على قيد الحياة طوال هذه المدة، فما الذى حجبها عن الظهور؟؟ يا إلهى!؟ هل أنا فى حلم أم أن ما أراه حقيقة واقعة. . . ؟؟

وانتظرت سعيد على أحر من الجمر فى الميعاد المحدد، لكنه لم يحضر وكذلك أبوه. . وكان الامتحان على الأبواب، وأمامى كثير من المجهود الشاق والعمل المضنى، إذ لا بد أن أعيد تشريح الضفدعة والصرصور والأرنب وثعبان البطن ودودة الأرض وما إلى ذلك، ولم يكن هذا بالعمل السهل على، فبالرغم من عشقى للعلوم وإقبالى عليها إلا أنى كنت أصاب برعشة فى يدى كلما أمسكت المبضع -المشرط- وهممت بالتشريح، وأمامى الكثير من التجارب الكهربائية والحرارية والكيمائية و. . . مما ينوء به طالب الإعدادية بكلية الطب، فرأيت من الواجب أن أنسى ثريا وأنسى

بسيمة -أو على الأقل أحاول ذلك- ولو إلى حين، فالأمر يتعلق بمستقبلى وبالقروش التى يرسلها إلى والدى، وبسمعتى كطالب ناجح فى قريتنا ومحسود من الجميع، وقلت لنفسى:

- يكفينى تفكيراً فى الحب والغرام الشهور الماضية، ولا داعى لأن تسيطر هذه الأفكار على عقلى أكثر من ذلك، لأن التمادى فيها معناه الفشل الذريع، والضيعة التى ما بعدها ضيعة . . . ورضخت لذلك . . .

لكنى كنت أحس فى قراره نفسى بمشاعر كثيرة مختلطة، تمتزج فيها ذكريات بسيمة ومأساتها بفجيعتى فى ثريا وزواجها المباغت السريع . .

واستطعت بعد حين أن أغرق نفسى فى خضم الأعمال الكثيرة فى المعامل والمدرجات وفى البيت، فاستسلمت بذلك للجو الجديد، إذ لم يكن لدى الوقت الذى أضيعه عبثًا، والدقائق التى أفرغ فيها أستغلها فى النوم، أو فى مقابلة أحد زملاء الكلية للنقاش فى بعض المسائل العلمية . .

وانتهى الامتحان على وجه مرضٍ استراح له ضميرى، فعولت على الإسراع إلى قريتنا. وخاصة أن القاهرة لم يعد فيها ما يبهجنى بعد أن نأت ثريا، بل إنى أحسست بميل جارف وحنين عجيب إلى

بسيمة، وأيامها الساذجة الجميلة، ووجدت من اللهفة والقلق وما يدفعنى إلى لقائها . .

فهل تيقظ الحب القديم، وأراد أن ينفض عنه أكفانه ليبعث من جديد رغم تقادم العهد، وتوالى الأحداث، وتغير الأفكار والآمال؟؟ وقبل سفرى بيوم واحد نزل على سعيد حافظ بغتة . . .

قلت له : خير إن شاء الله . . ما الذى أتى بك هكذا فجأة دون سابق إنذار؟ لعلك انتهيت من الامتحان، وآثرت الاستمتاع بليالى القاهرة.

- كلا لم أمتحن على الإطلاق . .

- أصحيح ما تقول؟

- لقد أتيت لاستيفاء بعض الأوراق، وإنهاء بعض الأعمال المتعلقة بشأن قبولى فى الكلية الحربية . .

- من جديد؟؟ أما زلت مصراً؟؟

- وعندى أمل مائة فى المائة هذه المرة بعون الله . .

- هكذا أنت دائمًا يا سعيد . . إذا أردت شيئًا تفانيت فيه ولا تبغى به بديلاً، ما عيب كلية الحقوق؟

- أنعود للحديث عنها مرة أخرى، دعنا من هذا، لقد استقر رأيى.

وعادت إلى ذهنى حكاية بسيمة، وكان المفروض أن تكون هى بداية حديثنا، لكن وجدت نفسى فى شبه إحراج لا أعرف له سببًا وجيهًا، حتى لكأن هناك هاتفًا فى داخلى يوسوس لى أن فى الأمر شيئًا قد لا يرتاح له قلبى، أو يرتاح إليه سعيد، وأحسست بميل جارف لمعرفة الأمر، لا ولم أستطع الانتظار أكثر من ذلك، فقلت:

- لقد أرسلت لى خطابًا تطلب منى انتظارك أنت ووالدك. .

- أجل، لكن لم أجد ما يدعو لمقابلتك تلك المرة.

- إذًا فقد أتيتم إلى القاهرة؟؟

- طبعًا. .

وبدأ التأثر والألم على وجه سعيد، فأوجست خيفة، لكنى تشجعت وقلت: وهل وجدتم بسيمة وعادت معكم؟؟

- نعم، لكن ليتها لم تأتِ. . !!!

وهب سعيد واقفًا والضيق قد أخذ منه كل مأخذ، وقال:

- هيا بنا نتجول قليلاً فى القاهرة. . .

- ألا تنتظر حتى يعود عمى ونتناول العشاء معًا؟

- فى الإمكان تأجيل ذلك بعض الوقت.

ومع تلهفى الشديد لأخبار بسيمة وما حدث لها، لم أستطع أن أفاتح سعيد فى هذا الموضع مرة أخرى حتى لا أوله أو أحرجه . .

وهيأت الظروف لى فرصة طيبة لتحقيق أمنيتى. ففى أثناء توقيع الكشف الطبى على سعيد لدخول الكلية ضمن الدفعة الجديدة جدت أمور، وقال لى سعيد :

- أنا فى حاجة ماسة إلى عشرين جنيهًا، بأسرع وقت . .

- ما الحل؟؟ إن مرتب عمى كله لايتجاوز العشرة جنيهات . .

- عندى فكرة . .

- قل، وأنا مستعد لتقديم كل ما فى إمكانى . .

- أنا لا أستطيع مغادرة القاهرة الآن حتى لا أتغيب عن الكشف الطبى.

- طيعًا . . . طبعًا . .

- لهذا أرى أن تسافر إلى «القرشية» فتحضر هذا المبلغ من والدى وتعود إلى القاهرة فى الغد مباشرة.

- لكن . .

فقاطعنى قائلاً :

- ليس أمامنا غير هذه الطريقة . . فلا مجال للتردد إذًا . .

- على بركة الله . .

●●●

وعلمت بكل ما حدث لبسيمة حينما بلغت القرشية . . .

أخبرتنى أخت الشيخ حافظ عن كل شىء، وقالت لى :

- آه لو تعلم حالنا حينما وصلت بسيمة إلينا ! ! !

- لقد آثر سعيد الصمت ولم يخبرنى بشىء . . .

- له العذر . . . لقد صدمنا صدمة قاسية . . .

- كيف؟؟

- كان يومًا مشكومًا، أقسى مما لو كنا دفنا بسيمة فى القبر وأهلنا عليها التراب . . لقد أتى بها أبوها تحت ستار الليل . . . وعندما دخلت البيت كانت تصرخ وتبكى وتهذى كالمحمومة . . . وظلت حياتها بعد ذلك مقسمة بين فترات الذهول قد تطول وقد تقصر، وفترات من الهياج والهذيان والبكاء . . وكلما رأت أحدًا أو سمعت صوتًا مقتربًا فزعت وارتاعت وتمسكت بأهداب من حولها .

- وماذا تقول فى هذيانها . . ؟؟

تتحدث عن الغارات العنيفة فى الإسكندرية، وتروى الكثير عن الدماء والأشلاء والموت والمخابىء، وتزعم أن سيدها -ثرى الحرب- فى إحدى المرات قد جمع أولاده وزوجته وولى هاربًا عن البيت، وتركوها وحدها حيث الظلام والألم والخوف وطيف الموت الذى يحوم . . .

لم يكن عنده وقت ليأخذها ضمن أولاده، ثم تتحدث عن هجرة سيدها إلى أسيوط مسقط رأسه، وبقائه فيها بعد الحرب بعام أو أكثر . . وهناك طلبت منه أن ترى والدها فضحك ضحكة ساخرة، وماطلها ولم يحقق ما تريد . . . ثم انتقل سيدها إلى منطقة ريفية قرب أسيوط حيث توجد ضياعة الواسعة، وفى إحدى هذه الضياع حدثت لبسيمة مأساة . .

فقلت فى لهفة :

- ماذا حدث؟؟ . .

- سمعتها تهذى وتقول : حرام عليك يا سيدى . . حرام عليك . . . ماذا تريد منى؟

لا . . . لا أستطيع، إن أبى لو علم بذلك لقتلنى ووزع لحمى على الكلاب . . .

أتقول يا سيدى ستتزوجنى؟؟ لا. لا أريد هذا الزواج فإن سيدتى تضربنى لو حدث ذلك.. أنا خادمة يا سيدى.. اتركنى... وعندئذ تنهمر دموعها، وتنشب أظافرها فى جسدها وتمزق ثيابها، وتجرى فى الحجرة هنا وهناك، ثم تبدأ فى هذيانها من جديد: «ماذا تريد مرة ثانية يا سيدى؟. كلا لن أقبل هذا... لقد وعدتنى بالزواج ولم تفعل.. ماذا تقول؟؟ أتهددنى بالطرد، وبتسليمى لقسم الشرطة، وتقول عنى إننى من بنات الليل الفاسدات وأننى أتجنى عليك؟؟ حرام عليك يا سيدى أنك تظلمنى.. أنت من اعتدى على فلم أعد عذراء... ووعدتنى بالزواج وما زلت تماطل... إذًا فأنت ما زلت عند وعدك بالزواج منى... لك ما تريد... وتسود فترة صمت تضحك فيها بسيمة ضحكات هسترية ممتزجة بالبكاء، ثم تطوف بوجهها سحابة من الحزن القاتل وهى تواصل هذيانها.. إلى أين يا سيدى..؟؟ إلى بور سعيد؟؟ أتقيم فيها بدلاً من الإسكندرية؟؟ ليكن فأنا معك فى أى مكان، لكن أريد أن تتزوجى أولاً حتى أطمئن، ماذا يحدث لو جاء أبى ووجدنى على هذه الحالة. أقسم لك يا سيدى أنه سيشرب من دمى. ثم تصمت قليلاً، وتقول فزعة: مات؟ كيف؟؟ أتقول إن أبى الشيخ حافظ مات..؟؟ لا يمكن.. لن يموت قبل أن يرانى... يرانى زوجة.. إنك تخدعنى يا سيدى..».

وهكذا تمضى فى هذيانها على هذا النمط المحزن، وتظل طول الليل تهرف بهذه الأقوال، فتسأل وتجيب على نفسها، وفهمت من كلامها أيضًا أن سيدها حينما غادر بورسعيد إلى الإسكندرية مرة ثانية، تعمد أن يهرب منها فى محطة «سيدى جابر» بعد أن ترك معها حقيبة فارغة وأمرها بالانتظار حتى يعود...

ومضى هو وأسرته إلى حيث لا تعلم بسيمة... ويظهر أن المسكينة قد هالتها الصدمة والمأزق المحزن الذى تورطت فيه، ففضلت أن تقذف بنفسها فى البحر، لكن أمنيتها لم تتحقق إذ سرعان ما أنقذوها، وقادوها إلى أحد الأقسام، فوجدت نفسها بين عشية وضحاها وسط السارقات والعاهرات، وأصبحت موضعًا للزراية والاحتقار... فانهارت أعصابها...! انهارت حينما فكرت فى أبيها كيف تقابله؟؟ وحينما فكرت فيما مر بها من أحداث، ووجدت نفسها طريدة شريدة لا تعرف لها ملجأ ولا مأوى، فسارت فى الطريق إياه..

وسكتت أخت الشيخ حافظ لتسترد أنفاسها، بينما رددت عليها من فورى قائلاً:

- أى طريق تقصدين؟؟

- مستشفى الأمراض العقلية...

- يا خبر أسود. . !!!

- وهناك عثرنا عليها بطريق الصدفة بعد هذه السنوات التي مرت. . . وياليتنا ما عثرنا عليها. . !!!

- ومن قادكم إليها. . ؟؟

- أتعرف «الشيخة روحية» الموجودة فى بلدكم. . .

- تلك المقرئة الضعيفة البصر والتى ذهبت إلى مستشفى الأمراض العقلية من مدة؟

- أجل، إنها هى، لقد ألتقت بسيمة هناك، وعرفت حكايتها كاملة من أفواه المرضى. وكانت حالة «الشيخة روحية» عبارة عن لوثة خفيفة، سرعان ما شفيت منها، فاتصلت ببسيمة فى الأوقات التى كانت تهدأ فيها أعصابها، وسألتها عما إذا كانت ترغب فى العودة إلى أبيها حافظ، فارتاعت وبكت وفرت من أمامها. . . ولما عادت الشيخة روحية، وأخبرت الشيخ حافظ بما حدث، ذهب إلى القاهرة وأتى بها، ولما عرضها على الإخصائين أفهموه أن حالتها قد تتحسن، لكنها قد تستغرق وقتًا طويلاً. .

- هذا أمر غريب حقًا. .

- يظهر أن مستشفى الأمراض العقلية مجتمع مقفل مثل السجن

تمامًا، سرعان ما يلم نزلاؤها بقصة كل نزيل جديد ونوادره ويلده. . .

وبعد فترة التفتت إلى أخت الشيخ حافظ وقالت في دهشة:

- أتبكي يا سليمان. . ؟؟ إنك لطيب القلب، فقلت في ثورة واندفاع:

- لقد جعلها ذلك الوغد حطامًا، وتركها كومة من الألم والبؤس، أقسم لو عرفته أو لقيته يومًا لحطمت جمجمته. . .

- هذا نصيب. . . والمكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين. .

- قد يكون بعض هذا «النصيب» المكتوب مما يثير النفس ويدفع للتمرد على الأقدار. .

- لكن ما الحيلة؟؟ لا نتيجة ترجى من ذلك. .

ووثبت من مكاني مغتاظًا محاولاً الخروج من بيت الشيخ حافظ، فأمسكت أخته بكمي وقالت:

- أتريد أن ترى «بسيمة» قبل أن تأتي خضرة من الخارج؟؟

فلم تترك لي فرصة للتردد، بل جذبتني فسرت وراءها وهي تنصحني قائلة:

- حذار أن تحدث صوتًا، أو تفتح الباب. . . إن هذا ممنوع، ومدعاة للمتاعب. . .

- إذًا فكيف أراها . . ؟؟

- من ثقب الباب .

واستطعت أن ألقى نظرة شاملة على بسيمة ، كان قلبى يدق بعنف وسرعة ، وجسدى كله ينتفض انتفاضًا . . . كانت تجلس داخل الحجرة ذاهلة عن كل شىء تحملق فى اللامنظور . . ولست أدرى ما الذى جعلنى أشبهها بالأميرة المسحورة ، ورغم أنى لم أعرف شيئًا عن هذه الأميرة اللهم إلا ما قرأته عنها فى الأساطير . .

كانت بسيمة -كما صورها لى خيالى دائمًا- جميلة القوام جذابة ، حلوة التقاطيع رغم الشحوب الذى يكسوها وبروز وجنتيها ، ورغم الذهول الذى تسبح فيه . . . وألهانى النظر فى وجهها عن التدقيق فى ملامحها وهندامها ، وفجأة سمعنا طرقات على باب البيت فسارعنا إلى حيث كنا جالسين من قبل ، مخافة أن يرانا أحد ونحن نتجسس على بسيمة . . بسيمة التى يقولون أنها فقدت عقلها . . .

وأصررت على السفر إلى القاهرة مباشرة بعد أن أخذت العشرين جنيهًا من الشيخ حافظ ، ولم أستجب لرجائه فى قضاء ليلة معه .

ولن أنسى منظر «خضرة» زوجة الشيخ حافظ وهى تقول فى حزن :

- لقد عادت بسيمة . . .

فقلت لها :

- أعلم ذلك . . .

واندفعت خارجًا من البيت قبل أن يلمحوا دموعى التى أخذت فى الانحدار من جديد.

●●●



الفصل الثانى والعشرون

اليوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . .

عربات الجيش تطوف بالشوارع، والموقف يوحى بالرهبة والتوجس، لكن الناس كانوا على عكس ذلك. . فالشعب يقابل هذه المظاهرات بالهتاف والتصفيق، أما الزعماء والقادة القدماء ومن يدور فى فلكهم فقد جمدوا لينتظروا مجريات الحوادث. .

الملك يستجيب لبعض مطالب الجيش. . . حركات تطهير فى الحاشية. . . المفاجأة الكبرى وهى «فارق يرحل على ظهر المحروسة خارج البلاد فى تمام السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو. . » لقد انهار الإله الأكبر. . والناس بين مصدق ومكذب. . هذا لا يمكن أن يحدث بين يوم وليلة. . المجد والدنيا والصولجان. . كل هذا أصبح لا شىء؟؟؟ يا للعجب. . . !!!

قال عمى فريد :

- ها أنت ترى يا سليمان أن حركة الجيش وطرد الملك نتيجة حتمية للمخازى التى رزحنا تحت نيرها زمنًا طويلاً.

- إنه نجاح منقطع النظير يا عمى..

- الثورة أمامها أعمال كثيرة جدًا يا سليمان.. أمامها الإقطاع.. الأحزاب.. وأمامها قوات الأعداء الرابضة فى القنال. ألا ترى أن النجاح الآن لم يتحقق منه إلا جزء يسير...؟؟؟

- فعلاً فالأمر أعقد مما أتصور...

- لقد ورثنا عن الملك تركة مثقلة بالديون والمفاسد المنبثة فى شتى مرافق حياتنا -سياسية واقتصادية واجتماعية- وهذا هو الميدان الحقيقى الذى يجب أن تركز فيه الجهود، وتكتمل المجهودات..

- والاستعمار؟؟ أتعتقد أنه يرضى عن هذه الحركة..؟؟

- الاستعمار -كما تعلم- يعادى كل تحرر وطنى، وكل انطلاق نحو حياة أفضل، لهذا فلن يسكت عن مؤامراته وتدابيره، وعزاؤنا الوحيد أن نكون شعبًا يقظًا واعيًا لهذه الألاعيب، وأؤكد لك أن الاستعمار عندما يرانا كتلة واحدة متماسكة سيحمل عصاه ويرحل، ويحاول أن يخطب ودنا، ويكسب صداقتنا... صداقة الحر للحر، لا صداقة التابع للمتبوع..

- يا عمى إنى أكاد أطير من الفرح . .

- لست وحدك . . . سر فى الشارع فسترى على كل وجه ابتسامة، وفى كل عين أملاً، وأملاً واسعًا نضيراً . . .

يكفى يا ولدى أن هذه أول مرة يحكم مصر مصريون دمًا ونشأة وعواطف . . . إنه حلم تحقق . .

- الآن أستطيع أن أقول إن الحياة أصبح لها معنى يجعلنا نحرص عليها ونفنى فى سبيلها . . . لقد ردت إلينا قوميتنا واعتبارنا، وفى اعتقادى أننا أصبحنا شعبًا فى استطاعته أن يسود ويحكم نفسه، وينال المنزلة اللائقة به . . .

●●●

حينما تم جلاء القوات البريطانية عن مصر بمقتضى اتفاقية ١٩٥٤م، قلت للضابط الملازم سعيد حافظ شيحا ضاحكًا :

- لم تكد تتم تعليمك بالكلية الحربية حتى كان الإنجليز فى طريقهم إلى بلادهم . . مسكين أنت يا سعيد!!! لم تمكنك الظروف من أن تثأر منهم .

فلوى سعيد شفته السفلى وقال :

- أنا سيئ الحظ دائمًا . . . ويؤسفنى أن يكون هذا هو ختام الرواية .

- وماذا كنت تريد أكثر من ذلك؟ لقد خرجوا صاغرين أمام إصرارنا واستمساكًا بحقوقنا، فهل بقى شىء بعد ذلك؟

- لقد كانت إساءتهم لنا كثيراً بحيث لا يمسحها هذا الخروج الهادئ. .

- إنك غريب الأطوار حقًا، لعلك تريد أن تقول لهم قفوا مكانكم، لا تخرجوا من ديارنا الآن لأننا سنلقنكم درسًا قاسيًا لن تنسوه حتى نثأر لأنفسنا، وحتى لا تسول لكم أنفسكم العودة من جديد. .؟؟

- لا داعى للسخرية منى، يجب أن تفهم معركتنا مع الإنجليز ما زالت ممتدة، ما دام لهم جندى واحد فى أى بقعة عربية، وما دامت أسلحتهم تتدفق على إسرائيل بغزارة، بينما يضنون بها علينا الحاجة فى نفس يعقوب. إن إسرائيل خطر داهم علينا، وهى مخلب القط، وعنصر الاضطراب بيننا. . .

- ولماذا يا سعيد لا نشترى السلاح من أى مكان غير إنجلترا؟؟ ألم نعد أحرارًا؟؟ أليس من حقنا -بل واجبنا- أن نحمى أنفسنا من عدوان إسرائيل، ونحضر السلاح حتى من الشيطان نفسه؟؟ إذا لم نفعل ذلك فستؤرق إسرائيل علينا حياتنا، وتنغص عيشنا. .

- هذا ما طالب به ضباط الجيش، ولعلى لا أذيع سرًا حينما أقول لك إن هناك صفقات فى طريقها إلينا من بعض دول الكتلة الشرقية. .

- غداً يتهمونا بالشيوعية ويملئون الدنيا ضجيجًا ودعاوى باطلة . .

- فليفعلوا ما شاءوا لأننا لن نسكت حتى تدهمنا إسرائيل فى عقر دارنا .

- أجل، لا حق، ولا حرية، ولا كرامة إلا فى ظل القوة التى تحرس وتحمى هذه القيم والمثل العليا التى تحكم بها الإنسانية . .

وتمر فترة صمت، ويقول سعيد بعدها :

- نسيت أن أخبرك يا سليمان بأنى سأنتقل إلى منطقة القنال فى حركة التنقلات القريبة . .

- إذن ستحرمنا من أنسك إلى مدة لا يعلم إلا الله مداها . .

- انتهى عهد التلمذة . . . عهد الاستقرار، وبدأنا فى تحمل أعباء الوظيفة، فعلينا أن نقاسى الغربة، والبعد عن الأهل والأحباب . .

- هل أحمد الله إذًا على أنى ما زلت طالبًا بكلية الطب؟؟

- لا مبالغة فيما تقول . .

- يا صديقى إننى أتعجل الأيام حتى أحصل على شهادة إتمام الدراسة . . .

- للأسف، نحن لا ندرك جمال هذه الأيام إلا بعد فوات الأوان، عندئذ نجلس لنتغنى بذكراها، أو نترحم على جمالها. . .

- ومع ذلك فإني أحسدك لأنك تخففت من أعباء التعليم، وضمنت مستقبلك وأصبحت موظفًا لا يستهان به. . . أما أنا فما زلت طالبًا، طالبًا لا أكثر رغم أني في المرحلة النهائية. . . ليتني دخلت الكلية الحربية معك لكنت استرحت من زمن بعيد. . . أما الدراسة الطبية فهي أشغال شاقة. . لقد هصرت عودي، وأحنته من طول ما تفحصت وشرحت وذاكرت. .

- لكنك طبيبًا سامي المنزلة، غني الموارد. . . وغمز سعيد بعينيه ضاحكًا وهو يقول عبارته، بينما تمتمت قائلاً:

- المهم أن يوفقنا الله، ويحقق لنا الآمال. .

●●●

كانت كارثة ضخمة تلك التي حلت بي بعد أيام. . لم يكن في استطاعتي أن أصمد لها، لأنها كانت أكبر من رجولتي وصبري وتعليمي؛ بل إنها زلزلت إيماني بالحياة ومن فيها بالطموح والأمل والناس والمال وكل ما في الوجود. . . وخيل إليّ أن الأقدار تتحداني دائمًا، وتوجه إلي صفعات ظالمة قاسية. . . أتدري لماذا؟

لقد ماتت أمي!!!

فصرخت: كيف؟؟ لا أريد أن تموت الآن. . . إننى أذاكر وأكد وأستعجل الأيام حتى أرد لها الجميل. . كنت أود أن أقدم لها ثمن شقائها وتعبها من أجلى، فوضعت عشرات المشروعات كى أطبقها بعد تخرجى من الكلية، لقد انتويت أن أحضرها من قريتنا هى وأبى، ونعيش معًا فى إحدى المدن حيث الراحة والهدوء والهناء الذى يلزمهما فى شيخوختهما. . . بل إننى كنت قد أعددت العدة لنقلها إلى قصر العينى حتى يتم علاج قلبها تحت إشراف أحد أساتذتى المختصين بعد أن اتفقنا على ذلك. . . ليتنى أسرعت. . . ليتنى فكرت فى هذا الموضوع من قبل. . . وإشفاقى الذى لا ينفد. . . كم أنا حزين عليك يا أماه!!! إن قلبها رغم علله وأمراضه كان -كما قلت- رحيمًا كبيرًا، وهل أنسى نصائحها الغالية بشأن مستقبل حياتى ومعاملاتى مع الناس. . ؟؟

لقد حطمتنى هذه النكبة، وأحنقتنى فى الوقت نفسه، وأصبح الكتاب الذى أذاكر فيه عدوًا لدودًا، وشبحًا ثقيل الظل، وأصبحت ضيق النفس لا أرتاح لكلام الأصدقاء، ولا لمواساة المعارف. . . !!

أهكذا يكون المصير؟؟

يا لتعاسة الإنسان!! لقد كنت أرى العشرات يموتون فى قصر العينى فلا أكاد أشعر بشىء ذى بال، أترحم عليهن بكلمة مقتضبة، ثم أذهب إلى حجرة الدرس، كأن لم يحدث شىء، لهذا كنت

أتقزز من النساء الغارقات فى الملابس السوداء واللاتى يقفن أمام قصر العينى يبكين ويندبن . .

أما هذه المرة فإنها أمى . . ولماذا يسير الناس فى طريقهم كالمعتاد . . .

ترى هل تريد منهم أن يحزنوا مثل حزنى ، ويبكوا من أجل أمى دون أن يعرفوها؟ لست أدرى . . يبدو أن الإنسان بسيط . . بسيط جدًا . . يا له من درس قاسٍ . . . !!!

ولاحظ عمى إغراقى فى الحزن وإدمانى فيه ، فقال وهو يغالب عواطفه الجياشة :

- كفى حزنًا يا سليمان . . . إن كأس الموت طوافة على الجميع . . .

- كان من الممكن أن تبقى حية .

- «كان» فعل ماض ، فلا تقلق بالك بأمر مضى وفات ، وإلا جلبت لنفسك الشقاء المقيم . .

- لكنها كان يجب أن تعالج من دائها . .

- إنه قدر مكتوب . . . سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً . . . رحمها الله . . . لها الجنة . .

- الجنة . . ؟؟ ربما . . . لقد عاشت طول حياتها فى جحيم ، أمراض ، فقر ، و . . .

- أنت واهم يا سليمان . . لقد كانت سعيدة!! سعيدة رغم الداء وضيق ذات اليد . . . كانت تجد فى الحرمان بناء لمستقبلك، وتكوينًا لشخصيتك، وكانت تجد فى دائها امتحانًا لصبرها ورضائها بقضاء الله وقدره، وتكفيرًا لما قد اقترفته من صغير الآثام . . . إن هؤلاء الفلاحين البسطاء يا ولدى -أمثال أبيك وأمك- هم الذين يجدون السعادة فى حظائر الماشية، ومخازن الغلال، خلف المحراث والنورج والساقية، وفى الرضى بما قسم الله والخلود . . . !!! إنه لن يكون فى هذه الدنيا لغير الله . . فعد إلى نفسك يا سليمان، وتذكر والدتك وهى تدعو إلى الله ساجدة راكعة آملة، ثم انهض من يأسك وغمك هذا وابتهل إلى الله كما كانت تفعل . . واضرع إليه بقلب خاشع خالص فستشعر ببرد الراحة والسلام يغمر قلبك وكيانك كله، وستصبح بذلك إنسانًا آخر، إنسانًا صقلته التجربة، وجلته الأحداث، ورجلاً يؤمن بالله أعمق الإيمان، ويرضى بالقضاء الذى لا حيلة له فيه . .

- أشكرك يا عمى فقد أعدت إلى الثقة، ورددت علىَّ معانى الإيمان التى أوشكت أن أفتقدها لهول الكارثة.

- لا تأسَ يا بنى . . أنت بخير دائمًا ما دمت تركن إلى الله، وتستلهمه الرشد والتوفيق حين تنزل بك النوازل، وتحط عليك الملمات . .

- إنا لله وإنا إليه راجعون . .

- واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . .

- اللهم إن كانت محسنة فزد من حسناتها ، وإن كانت مسيئة فتجاوز عن سيئاتها . .

- اللهم آمين . .

●●●



الفصل الثالث والعشرون

ذهبت إلى الكلية يوم ٣٠ أكتوبر عام١٩٥٦ . . كان الجميع ذاهلين مشدوهين سواء فى ذلك الطلبة والطالبات والأساتذة، والسخط والألم يرتسم على وجوه الموظفين والفرّاشين والمرضى. . . وقفنا-نحن الطلبة-فى رحبة الكلية تجثم علينا حيرة قاتلة، وحان موعد تلقى المحاضرات والذهاب إلى المعامل والمشارح، لكن لم يتحرك أحد من الطلبة أو الأساتذة. . .

لم نكن نتوقع مثل هذا الغدر والهجوم الوقح الذى قامت به إنجلتر وفرنسا وإسرائيل مشتركين، لقد أممنا قناة السويس، وهذا حق لا جدال فيه، وأعلنا أمام الدنيا بأسرها ضمان حرية الملاحة للجميع، ووعدنا بتحسين القناة والاهتمام بأمرها، وأيدتنا أغلبية الدول فى ذلك. . فما معنى هذا العدوان الثلاثى. . ؟؟

أهذا هو معنى الصداقة فى المفهوم الإنجليزى الفرنسى؟؟ أهذا هو معنى الاستقلال والحرية اللذين نلناهم بعد كفاح السنين

الطويلة؟؟؟ أهذا هو السلام الذى يدعيه العالم الحر؟؟؟ وعدت إلى البيت من فورى، ودخلت صامتًا لا أتكلم. . وأخذت أجمع الكتب وأحشرها فى الدولاب وفى الحقائب، وأخرجت ملابسى الكشفية وارتديتها على الفور، ولم أنسَ أن أحمل معى بعض الآلات والمواد الطبية. .

ووقفت أمام عمى على هذه الصورة فنظر إلىَّ فى استغراب وقال :

- ما هذا؟؟؟ إلى أين؟؟؟

فقلت فى صرامة وإصرار :

- إلى القنال. .

- ماذا؟؟؟ أصحيح ما تقول؟؟؟

- طبعًا، إننى لا أمزح. . هل أنتظر هنا حتى يأتى الأعداء ليعسكروا فى الأزهر ويذبحوا فينا كالشاة، وكلنا يعرف مدى نذالة اليهود وخسة الفرنسيين ووحشية الإنجليز؟؟

- إن أمامك الامتحان النهائى بعد شهر ونصف والواجب عليك أن تكمل استعدادك للامتحان أولادك، وحينما تصير طبيبًا تستطيع أن تقوم بواجبك على أتم وجه، أما حماسك الذى طرأ عليك اليوم فهذا ما لا أقرك عليه. . .

- أعمى الذى يقول هذا الكلام؟؟ لا أصدق!! كنت لا أعبأ بمثل هذا الحماس من قبل، أما اليوم فهو جد مختلف.. يجب علينا أن نقف على حدودنا ونقطع رقاب من تسول له نفسه أن يعتدى علينا.. إنها حريتنا يا عمى.

وأطرق عمي دون أن يجيب، فأنا أعلم أنه كان يتكلم بما لا يعتقد، وما دفعه إلى ذلك إلا خوفه علىّ وعلى مستقبلى، وعلى مجهود أبى الطويل المضنى، لكن متى كان مستقبل الأوطان التى تنشد الحرية، يعبأ بمثل هذه التعلات والأسباب؟ ثم هز عمى رأسه وقال: عندك حق... غير أنى أخاف هذه الحادثة خوفًا شديدًا؛ إذ إن العدوان هذه المرة تقوم به دولتان كبيرتان بالإضافة إلى إسرائيل، وانتصارهم معناه الضياع لنا، وتحطيم قوتنا وقوميتنا..

إنها تجربة قاسية نمر بها، تجربة أثبتت أن الإنجليز ليسوا حلفاء ولا أهلاً للصداقة، وسنخرج منها أحرارًا شرفاء يعتز بصداقتنا العالم، وإلا فالموت أشرف لنا..

فسارع عمى قائلاً:

- لا تذكر ذلك الاحتمال الثانى، إن قلبى يحدثنى بأنه لن يكون.

- لن أنتظر هنا أكثر من ذلك، بل سأسافر فورًا يا عمى.

- لكن ماذا أقول لوالدك؟؟ إنه لن يتصور أنك ستقدم على مثل هذا العمل..

- قل له ذهب يدافع عنك وعن إخوته وعن الشيوخ والعجائز . .

- وماذا تنتوى أن تفعل؟؟

- سأستخدم مهارتى الطبية فى إسعاف الجرحى فى الميدان، وغير ذلك من الإسعافات الأولية، وسيكون مسدسى فى جيبى، فإذا ما رأيت غريبًا يزحف نحونا قتلته.

- المسدس فى يمينك، والمبضع فى يسارك . .

- أتقصد أن يمينى شيطان، ويسارى ملاك؟

- الدنيا مزيج من الرحمة والقسوة، والخير والشر.

- ليس هذا شرًا بالمعنى المعروف، لكنه دفاع عن النفس، وعن حق الحياة الحرة . .

- على بركة الله يا سليمان . .

●●●

التقيت بالضابط الصديق سعيد حافظ فى بور سعيد، وكانت المعركة حامية الوطيس. قال سعيد :

- إنهم أنذال، ويبيتون لنا أسوأ النوايا، تصور أنهم لم يكتفوا بضرب المطارات والمناطق العسكرية، بل تعدوها إلى حيث يسكن الآمنون من الأطفال والنساء والشيوخ، سواء فى منطقة القنال أو غيرها . .

- عجبًا لك يا سعيد، ليست هذه أول مرة يدوسون فيها الإنسانية . .

- لن نسلم لهم بما يريدون ولو رصفوا الأرض بأجسادنا .

فابتسمت وقلت: بهذه المناسبة، لعلك سعيد جداً . . ستثأر كيف شئت من الإنجليز هذه المرة . .

فقال وهو يضغط بأسنانه :

- أجل سأثأر . . . وأثأر . . وأثأر . .

وربت بيده على كتفى وقال :

- الوقت ضيق، ولا مجال فيه للعواطف والكلام، اذهب من فورك إلى المكان «ج» واتصل بالأومباشى (. . .) فيضمك إلى فريق الخدمة الطبية مع المتطوعين، وسيدفع إليك بالملابس اللازمة والشارات الخاصة . . هيا فإن الجرحى كثيرون فى شتى نواحى بورسعيد . . ومن يدرى لعل عددهم يتضاعف فى الغد . .

وفعلاً كانت بور سعيد فى انتظار الضربات المركزة من الأعداء . . وكانت كتائب المتطوعين والحرس الوطنى وأفراد الشعب يتدفقون في الشوارع حاملين السلاح، وأصبحت أعصاب الناس من القوة بحيث لم يعودوا يعبثون بأزيز الطائرات الذى لا يصمت لحظة واحدة، ولا بمناظر العمارات الضخمة وهى

تنهار على من فيها ، ولا بمناظر الدماء التى تضرج الأرض هنا وهناك . .

عجبًا ألا يعلم الناس أن إنجلترا بقضها وقضيضها هى التى تسير الجيوش لتعتدى علينا ومعها فرنسا وإسرائيل؟؟ هل عقولهم فى غيبة بحيث لا يقدرون الكارثة تمام التقدير ، أم الشياطين الحمر أصبحوا أسطورة وهمية لا ترهب إنسانًا ولا تخيف شعبًا؟؟ أم أننا أمة تعتصم بحقها وحريتها ، ولذلك فهى لا تضن فى هذا السبيل بأى تضحية مهما غلت . . ؟؟

وتحرك الضمير العالمى ، وتوالت الاحتجاجات على الدول المعتدية ، وثارت هيئة الأمم من أجل السلام الضائع وروسيا تهدد لندن وباريس بإطلاق الصواريخ الموجهة و . . . دول كثيرة ساخطة ، ناقمة على هذا التصرف الأحمق ، والشعب المصرى مستميت فى كفاحه الدامى لا يحيد ولا يكل . . ولواء المظلات يحاول احتلال بور سعيد ، ويقذف بقواته ونيرانه من الجو ، والشعب والجيش رابضان فى الشوارع والحوارى يقتنصون الهابطين من السماء . . .

وكان شارع فؤاد فى بور سعيد ميدانًا لمعركة رهيبة ، وكان فى مقدمة المدافعين فى هذه المنطقة الملازم «سعيد حافظ شيحا» . . إنه يتحرك وراء المتاريس مغبر الوجه ، مسود اليدين ، وسترته ملوثة

بالدماء، يوجه بعض الجنود لإطلاق الرصاص صوب السماء حيث الهابطين بالمظلات، ويأمر آخرين ليضربوا هؤلاء المتقدمين ناحية المتاريس، ثم يشير لنا-نحن رجال الإسعاف-كى نحمل جريحًا أو ننقل شهيدًا، ثم يعود إلى مدفعه ليقذف منه الحمم والموت فى حقد وإصرار إلى صدور المعتدين. .

كنت أرمق سعيد حافظ بإعجاب وهو يطلق الرصاص، وقد تقلصت عضلات وجهه، والشرر الثائر يثب من عينيه، وشعره الأشعث المنفوس يهتز مع اهتزازت جسده بتأثير حركة المدفع عند إطلاقه. . . لقد حانت الساعة لأن ينتقم سعيد لجده الضابط القديم ولعرابى معه، وينتقم لأبيه الذى قاسى كثيرًا، ولبسيمة التى عادت وليتها ما عادت. . إنه ليتذكر يوم أن وقع أسيرًا فى معسكرات الإنجليز، ويتذكر الكلاب والسياط والماء البارد والجوع وألوان العذب التى قاساها. ... وخيل إلىّ أنه ينتقم لى أنا الآخر من هؤلاء الذين قهقهوا حينما وقعت فى المجرى المجاور لطريق المعاهدة فى ميت غمر، ولسيد ابن عم سالم بائع الجميز، ويثأر لعمى الذى لم يستطع الحصول على عمل بلا رشوة أو توصية كبيرة. . . ويثأر للكثير جدًا الذى لا يستطيع حصره فى هذه اللحظات الرهيبة. . .

وكنت أنظر خلف الضابط سعيد حافظ فأرى عجبًا. . فهنا جنود رسميون بملابس الميدان المعروفة، وبجوارهم لابسو

الملابس الأفرنجية، وفريق ثالث يرتدى الجلاليب والبجاماتو، وهناك فريق رابع يلبس المهلهل الرث من الشباب ممن كانوا بالأمس يجمعون أعقاب السجاير أو يمسحون الأحذية أو يبيعون أوراق اليانصيب. . . خليط من الغلمان والشباب والكهول، فيهم الطالب والشيال والموظف والجندى والضابط وبعض الفتيات، بل لقد رأيت امرأة تظهر فى شرفة بيت نصف متهدم، وتقذف بإناء نحاسى فوق رأس أحد الجنود المعتدين، ثم همت بالدخول-ولعلها أرادت أن تحضر إناء آخر-لكن رصاصة غادرة باغتتها فى رأسها فتكومت حيث هى فى شرفتها والدم ينبثق من رأسها.

كانت معركة عجيبة استعملت فيها الزجاجات الفارغة والأسلحة الحديثة، والطوب والأحجار وسكاكين الجزارين، وأوانى الطبخ النحاسية. . . أمة تبنى مجدها وتدافع عن حريتها بكل شىء. . . أى شىء. .

ولم يكن نقل الجرحى والمصابين تحت وابل الرصاص بالعمل الهين، ومع ذلك فقد أنستنى رهبة الموقف، وخلال المقاومة ما أنا فيه من إنهاك وتعب و. . . وخوف، ويبدو أن امتداد المعركة وعنفها جعل من القتال أو الموت صنعة عادية من السهل مزاولتها. . .

وكانت الدفعة الأولى من لواء المظلات قد أبيدت، ثم الثانية . . . ثم الثالثة . . . وأصبح جليًا لى أن بورسعيد تخوض أتون معركة خالدة، لا أستطيع أن أشبهها بمعركة ستالينجراد التى لم أرها . . . إن معركة بور سعيد علم وحدها ، معركة فريدة رائعة فى تاريخ وطننا . .

وعشت فترة بين الدخان والصرخات وأصوات المدافع والقنابل المتفجرة، دنيا من الأشلاء والدماء والمكافحين . . ونظرت إلى حيث يتحرك سعيد حافظ فلم أجده . . . وهممت بالتسلل إلى حيث كان كى أستفسر أين ذهب، لكنى لمحت جريحًا فى النزع الأخير يستنجد بى فكان علىّ أن أسارع بنقله، وأؤجل موضوع الاستفسار عن صديقى. وحينما بلغت المركز الطبى أرقدت الجريح على فراش معد لذلك، وسارعت إلى حيث ينتظر الطبيب، فوجدته يقوم بعملية جراحية فى بطن أحد الضابط ليستخرج منه رصاصة . . . وتفحصت فى وجه الضابط الجريح . . .

لقد كان سعيد حافظ بلحمه ودمه . . . فصرخت من فورى :

– من هذا . . ؟؟

– إنه مسكين . . . لقد أخرجنا له رصاصة من كتفه الأيمن، ونحن على وشك إخراج الثانية من بطنه .

فنظرت بحزن إلى وجه سعيد الشاحب الذى لم يستطع المخدر أن يذهب عنه جمود ملامحه وإصراره العنيد، وقلت بلا وعى :

- هل هو الملازم سعيد حافظ؟

فرد الطبيب بهدوء :

- لا ندرى . . إنه مواطن يقال إنه أبدى ضروبًا من البسالة والتضحية يحسد عليها . . .

فقلت فى لهفة واضطراب وتوسل :

- أتعتقد يا سيدى أنه سيشفى . . ؟؟

- ولِمَ لا ؟ نحن الآن فى مصر أرض المعجزات . .

- إذًا فالجرح خطير جدًا . .

- ليس خطيرًا جدًا، وأعتقد أن عملية نقل الدم قد أفادته كثيرًا . .

- وفقك الله يا سيدى الطبيب . .

●●●

بعد قرار وقف إطلاق النار بأيام كنت أتنقل فى أنحاء مبنى المستشفى الذى يضم بعض جرحى المعركة ببور سعيد، فلمحت الشيخ حافظ بعمامته وجلبابه الصوفى الأسود يدلف إلى الداخل فى حالة من الحزن والخوف يرثى لها، والحقيقة أن رؤيته أدهشتنى

فى هذا الوقت، فأسرعت خلفه، وما إن دخلت الحجرة التى ينام فيها سعيد حتى رأيت مشهداً مثيراً، إذ وجدت الشيخ حافظ ينحنى على سعيد ويقبله وهو يبكى - بينما يحاول سعيد الابتسام ويقول:

- فيم البكاء يا أبى، إننى بخير والحمد لله . .

وتدخلت أنا فى الحديث محاولاً تهدئة الشيخ:

- يا عم الشيخ حافظ، إن سعيد قد أثبت بطولة نادرة، عندما تسمع تفاصيلها سينشرح لها قلبك، وتسعد بها نفسك، ولعلك قرأت طرفاً منها فى الصحف التى تكتب عن الفدائى العظيم الضابط سعيد حافظ حفيد أحد المشتركين فى ثورة عرابى . .

فرد الرجل فى تواضع:

- الحمد لله . . . هذا ما كنت أنتظره من ولدى . . . بل إنى لو مت الآن لكنت سعيداً بذلك، أما دموعى التى أذرفها فلا أستطيع منعها . . . فلتعذرونى . . .

وطالت الزيارة وطال بنا الحديث، وتكلمنا فى أشياء كثيرة، وعند خروج الشيخ حافظ، انفجر باكياً للمرة الثانية، فقلت له:

- لماذا تبكى من جديد؟؟ ألم يطمئن قلبك على حال سعيد؟

- لقد اطمأننت جداً لكن . .

- لكن لماذا؟؟

- لقد سألنى سعيد عن بسيمة . . .

- وماذا فى ذلك؟

- لقد كذبت عليه وقلت إنها بخير . .

- وماذا كنت تريد أن تقول له غير ذلك؟؟

- كان من الممكن أن أخبره بأننا وجدناها ذات صباح أشلاء ممزقة على شريط القطار، ولم ندرِ كيف خرجت من البيت ولا متى وكيف كان ذلك . . . لقد انتحرت المسكينة، وكنا نحسب أنها لا تعى شيئًا على الإطلاق، فما بالك بالتفكير فى الانتحار على هذه الصورة البشعة التى لم نكن نتصورها؟؟

- يا إلهى . . !!! هذا كثير . . . !!

فلم يجب الشيخ حافظ بغير الدموع التى أخذ يجففها بمنديله، وطافت بذهنى صورة سريعة لماضى هذه الأسرة، ثم تبصرت فى مآل بسيمة ومآل سعيد البطل المحبوب ووجود الشيخ حافظ بين الاثنين، وفؤادى يتفطر من الحزن والأسى العميق، وهتفت قائلاً:

- لا حول ولا قوة الا بالله . .

وقبل أن أودع الشيخ حافظ على المحطة همست له فى صوت خفيض يخالطه الألم:

- أرجو أن تخبر عمى عند مرورك بالقاهرة بأنى سأعود بعد أسبوع، كى أستأنف دراستى فى الكلية وأستعد للامتحان، وسأبقى هذا الأسبوع، بجوار سعيد حتى يتم شفاؤه . .

- أعانك الله . . . سأفعل . .

- مع السلامة . .

- سلمك الله . . .

«تمت»

●●●